

سبابتا كوس

شورۃ العاصم

اجزاء المشاط

تأليف بهوار دقانت

ترجمہ انور المیشری

راجعه بهوار دقانت

الصحف

الناشر
دار الكرنف



www.library4arab.com



بیت

تاریخات

www.alkottob.com
www.library4arab.com

الكتاب (٣١)

الكتاب

بناكوبس

(وزارة التربية والتعليم)

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
وزارة التعليم العالي

www.alkottob.com

لجنت

تتباينات

تقدير هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

www.liborary4arab.com

www.alkottob.com

الكتاب الثاني (٢١٤)

الآثار النادرة

(مجموعة العبيد)

الجزء الثاني

دار القادسية

ترجمته
على أرفعه

ترجمته
أنور المصري

دار الكتب للتحقيق والنشر والتوزيع

عمارة ومبنيش - ميلاد - القاهرة

www.alkottob.com

تاريخ

تاريخ

هذه ترجمة كتاب

SPARTACUS

أليف

Howard Fast

www.alkottob.com

www.library4arab.com

الترايات

الترايات

الجزء الخامس

ويتضمن قصة لتولوس، وبعض ذكرياته، وبعض
تفاصيل إقامته في تولوس.

www.alkottob.com

www.library4arab.com

كان لنتولوس جراكوس مغرماً بترديد أن قدرته على مواجهة الأزمات تزداد مع زيادة وزنه . وكان ما يؤيد صدق هذا الزعم أنه أمضى سبعة وثلاثين عاماً من عمره البالغ ستة وخمسين في مسيرة السياسة الرومانية بنجاح . فالسياسة ، كما كان يردد من وقت لآخر تحتاج إلى مواهب ثلاثة لا تبدل ، ولا تحتاج إلى أية فضائل . وكان يزعم أن الفضيلة حطمت من السياسيين أكثر ممن حطمهم أى سبب آخر . وكان يرتب المواهب الثلاثة على هذا النحو : الموهبة الأولى هي القدرة على اختيار الجانب الرابع . فإذا ما نشلت هذه ، فالموهبة الثانية هي القدرة على الانسحاب من الجانب الخاسر . أما الموهبة الثالثة فهي ألا تعادى أحداً .

وهذه المواهب الثلاثة كلها مثل عليا ، إلا أنه نظراً لأن للمثل العليا طبيعتها ، وللناس طبيعتها ، لذلك لم يكن هناك ما هو تحقيق كامل لهذه المثل مائة في المائة . ومع ذلك فهو من جانبه قد نجح . إذ بدأ حياته ابناً لإسكاف بسيط ولكنه مجتهد . وفي التاسعة عشرة من عمره كان يبيع ويشترى الأصوات الانتخابية ، وفي الخامسة والعشرين كان يبيع ويشترى المناصب ويقوم بعمليات الاغتيال بين الفينة والفينة ، وفي الثامنة والعشرين تزعم عصابة سياسية قوية ، أما في الثلاثين فقد أصبح الزعيم المطاع لحي كاليبوس الشهير . وبعد ذلك بسنوات خمس أصبح قاضياً ، وفي سن الأربعين دخل مجلس الشيوخ . وكان يعرف في المدينة عشرة آلاف شخص بالاسم

وعشرين ألفاً آخرين بالنظر . وكان يضمن قائمة عطاياه حتى أعدى أعدائه . ونظراً لأنه لم يرتكب يوماً خطأ الاعتقاد في أمانة أى من مساعديه ، فقد ساعده ذلك على ألا يقع أبداً في خطأ أعمق . هو قبول عدم أمانة أى واحد منهم على علاتها .

كان وزنه ومعدنه بالأثمان وضعه في الحياة . لم يثق بالنساء قط ولم يلاحظ أن زملاءه قد حققوا من ورائهن منفعة بعينها . إنما كانت رذيلته الوحيدة هي حب الطعام . ونجحت طبقات الشحم الضخمة التي اكتنزها على مدى سنوات عمره الناجحة ، لا في أن تكسوه المهابة فحسب ، بل جعلت منه كذلك واحداً من أولئك الرومانيين القلائل الذين لا يظهرون في المجتمعات إلا وهم ملتفون بطيات العباءة الرومانية . إذ لم يكن لتولوس جراكوس ليبدو في المعالف كرجل يسعى الإنسان لكسب وده ، أما في العباءة الرومانية فكان رمزاً للبعدن والفضائل الرومانية . وكان جسده البالغ في وزنه ثلاثمائة رطل يحمل رأساً أصلعاً ملغداً مثبناً بإحكام في دوائر الشحم . وكان صوته عميقاً أجش ، وابتسامته جذابة ، له عينان زرقاوان صغيرتان مبتسمتان تطلان من بين طيات اللحم ، وبشرة وردية كبشرة الرضيع .

وكان جراكوس شخصاً مطلعاً أكثر منه شخصاً ساخرآً بالدنيا . لم يستغلق عليه يوماً فهم تركيب القوة الرومانية . وكان تقدم

شيشرون المتشد نحو ما مال شيشرون إلى اعتباره أعلى الحقائق
وأكثرها أهمية يسليه ويهجه . فعندما سأله أنطونيوس كايوس
عن رأيه في شيشرون ، أجاب جراكوس في اقتضاب قائلاً :
— شاب يتمسك بالقديم .

وعلاقة جراكوس بأنطونيوس كايوس علاقة طيبة للغاية ،
شأن علاقته بكثير من النبلاء . إذ كانت الأرستقراطية هي السر
والمحراب الوحيد الذي يسمح لنفسه بدخوله . فهو يحب
الأرستقراطيين . وهو يحسدهم ، ويحتقرهم كذلك ، إنما في نطاق
معين ، لأنه يعتبرهم كلهم أميل إلى الغباء . ولم يستطع قط أن
يهضم عدم إفادتهم كثيراً من مزايا الأصل العريق والمكانة
المرموقة . ومع ذلك فهو يتقرب منهم وتبعث فيه دعوته إلى
إحدى ضيعاتهم الفاخرة ، مثل فيلاسالاريا ، الشعور بالكبرياء
والسعادة . ولم يكن يتظاهر بما ليس فيه ، ولم يحاول يوماً أن يدعى
أنه أرستقراطي . ولم يشكك لغتهم اللاتينية المهذبة المنمقة ، إذ كان
يفضل لغته السوقية السهلة . ولم يحاول أن يشتري لنفسه ضيعة
خاصة وإن كان قادراً على ذلك . أما بالنسبة للأرستقراطيين فكانوا
يقدرون فيه إمكاناته العملية وحصيانه من المعلومات المفيدة ،
وكان حجمه الضخم يوحى بالثقة . وكان أنطونيوس كايوس يحبه ،
لأن جراكوس كان رجلاً لا تهزه الأحكام الأخلاقية على الإطلاق ،

وكان يشير إلى جراكوس عادة على أنه الرجل الوحيد الآمن أمانة كاملة من بين من عرف في حياته .

لم يفت جراكوس إلا قليل مما دار في تلك الأمسية . فهو يقدر الأشياء ويزنها ، لكنه لا يصدر أحكاما . فهو لا يكن لكايوس إلا الاحتقار . أما القائد الكبير الثرى كراسوس فهو بالنسبة له رجل مسل . أما شيشرون فقد قال عنه لمضيفه :

— إنه يملك كل شيء . إلا العظمة . وأعتقد أنه من النوع الذي يذبح أمه لو كان في ذلك خدمة لأهدافه .

— لكن ، ليس لأهداف شيشرون كل هذه الأهمية .

— تماما . ولهذا فيفضل في كل شيء . تقريبا . فهو إنسان لاخرف منه ما دام هو إنسانا لا يشير الإعجاب .

وكان هذا تعليقا نافذا يعلو على فهم أنطونيوس كايوس ، الإنسان الجدير بالإعجاب ، على الرغم من أن ميوله الجنسية قد توقفت عند المستوى الخاص بصبي في الثانية عشرة من عمره . وكان جراكوس على استعداد لأن يعترف بيته وبين نفسه أن الأرض التي يقف عليها تميد به من تحته وتستحيل إلى وحل ، وأن عالمه يتفكك وينحل ، لكنه لم يرغب في خداع نفسه ما دام سير التفكك بطيئا كل البطء ، وما دام هو نفسه بعيداً كل البعد عن أن يكون خالداً . وهو قادر على أن يرى ما يدور

من حوله دون أن يتحيز لجانب إذ لم يكن في المظهر الذي يظهر
به ما يدعو إلى التحيز لجانب ما .

ظل في تلك الأمسية بالذات مستيقظا بعد أن نام بقية أهل
البيت . فهو قليل النوم ، وإذا نام فلا ينام نوما عميقا ، لذا راح
يجول في الحدائق في ضوء القمر المنير . ولو أنه مثل لاستطاع أن
يقدم تقريرا دقيقا واضحا عن العلاقات الخاصة بين الناس .
لكنه قد لحظ ذلك وأدركه دون تجسس ، ولم يشعر بأى امتعاض ،
فهذه هي روما ، واللاحق وحده هو الذي لا يدرك ذلك .

وبينما هو يسير إذ شاهد جوليا تجلس على أريكة من الحجر
كشبح حزين في الليل ، مسلوبة الإرادة ، يعصف بها الذعر من
الطريقة التي رفض بها كايوس عرضها لنفسها . فاستدار متجها
إليها وقال لها :

— نحن وحدنا عشاق الليل . إنها ليلة رائعة الجمال . أليست
كذلك يا جوليا ؟

— إذا كنت تشعر بالجمال .

فراح يرتب عباة الرومانية ثم قال :

— وأنت ، ألا تشعرين بالجمال يا جوليا ؟ أتودين أن أجلس

معك برهة ؟

— أرجو أن تجلس .

وجلس صامتاً زمناً ، مستجيباً في رقة لجمال الحدائق التي يضيئها نور القمر ، والبيت الأبيض الكبير يسمق رائعاً من مرقدته بين الشجيرات والنباتات دائمة الخضرة ، والشرفة ، والنافورات ، والانتعاع الشاحبة للتماثيل هنا وهناك ، والأشجار ومن تحتها الأرائك الرائعة من الرخام الوردي الشاحب أو الأسود الداكن . لقد نجحت روما في تحقيق قدر كبير من الجمال !

وفي النهاية قال :

— يبدو يا جوليا أن كل هذا يجب أن يرضينا .

— أجل . يبدو ذلك .

— إنها ميزة أن يكون الشخص رومانياً .

فأجابت جوليا في هدوء :

— أنت لا تقول هذه التفاهات الحقاء أبداً إلا عندما

تكون معي .

— حقاً ؟

— أجل . أظن ذلك . قل لي ، هل سمعت أبداً عن فارينيا ؟

— فارينيا ؟

— ألا تقرر شيئاً أبداً قبل أن تديره في ذهنك خمس مرات على الأقل؟ أنا لا أحاول المكر بك يا عزيزي .
وأراحت يدها على مخالبه الضخم ثم قالت :

— فأنا لا أستطيع . كانت فارينيا زوجة سبارتا كوس .
— أجل ، لقد سمعت عنها . والحقيقة ، أنكم تحبون هنا وشبح سبارتا كوس في مخيلتكم . فأنا لم أسمع الليلة عن شيء عداه .

— الحق ، إنه لم يدمر فيلا سالاريا ، ولست أدري أشكر له ذلك أم لا . لكنني أظن أن السبب في ذلك هو رموز العقاب .
لم أخرج إلى الطريق بعد ، أهي مخيفة جداً؟

— مخيفة . لا أعرف أني أعرتها كثيراً من التفكير . فهي هناك ، وهذا كل شيء تقريباً . الحياة رخيصة ، والعبيد لا قيمة لها تقريباً في هذه الأيام . لماذا تسأليني عن فارينيا؟
— كنت أحاول التفكير في شخص أحسده . أظن أني أحسدها .

— حقاً يا جوليا؟ تحسدين أمة بربرية حقيرة؟ أتودين أن أبعث غداً بمن ينتق لك اثنتي عشرة واحدة مثلها من السوق ويرسلهن إلى هنا؟

— أنت لا تعرف الجد أبداً . ألسنت كذلك يا جراكوس؟
— قليل جداً ما يستحق الجد . لماذا تحسدينها؟

— لأنى أكره نفسى .

فقال فى صوت كالحزيم :

— هذا أمر كثير التعقيد بالنسبة لى . أنتستطيعين أن تتصورى
شكها وهى قدرة ، تمسح أنفها بيدها ، وتتنخم ، وتبصق ، وأظافر ها
مكسورة قدرة ، ووجهها تغطيه الدماامل ؟ هذه هى أميرتك الامة .
أما زات تحدينها ؟

— وهل كانت بهذه الصورة ؟

فضحك جرا كوس وقال :

— من يدري يا جوليا ؟ السياسة أ كذوبة والتاريخ تسجيل
للأ كذوبة . لو أنك ذهبت إلى الطريق غدا ونظرت إلى تلك الصليبان
فسترين الحقيقة الوحيدة عن سيارتا كوس . الموت . ولا شىء
عدها . وكل شىء عدا ذلك ليس إلا تلفيقا . أنا أعرف .

— أنا أنظر إلى عبيدى ا

— ولا ترين سيارتا كوس ممثلا فيهم ؟ طبعاً . كفاك تعذيبا
لنفسك يا جوليا . أنا أكبر منك سنا ، ولى الحق فى أن أوجه إليك
النصح . نعم ولو بمخاطرة التدخل فيما لاشأن لى به . انتقى من بين
عبيدك من يعجبك .

— كفى يا جرا كوس .

وظفقت تبكى . وجرا كوس لم ير كثيرا من نساء طبقته يكنين
فشعر فجأة بالهرج والحماقة . وبدأ يسألها هل أخطأ ، فهو لم يقل
شيئا مهينا بالذات ، لكن أكان ذلك خطأ منه ؟

— لا . لا . أرجوك يا جرا كوس . أنت واحد من أصدقائي
القلائل . لا تكف عن صداقتك لى لأنى على هذا القدر من الحماقة .

وجففت عينيها واعتذرت وتركته هناك وهى تقول :

— أنا شديدة التعب . أرجو ألا تأتى معى .

كان لجرا كوس ، مثل شيشرون ، إحساس بالتاريخ ، ولكن كان الفارق الكبير بينهما أن جرا كوس لم يحير نفسه يوما في فهم مكانه ودوره ، فاستطاع لذلك أن يرى كثيرا من الأشياء أوضح مما كان يراها شيشرون .. جلس وحده في تلك اللحظة من ليل إيطاليا الدافئة الرقيق ، وراح يقلب في ذهنه الحالة الغريبة للسيدة الرومانية النبيلة التي تحسد أمة بربرية ، ففكر أولا هل كانت جوليا صادقة ، وقرر أنها صادقة فعلا . إذ أن فارينيا ، لسبب ما ، تلتقي الضوء على جوهر المأساة المثيرة للشفقة التي تعيش فيها جوليا — وتساءل هل معنى حياة الاثنين متضمن بنفس الطريقة في رموز العقاب التي لا حصر لها والتي تخطط الطريق الأيوسى . وجرا كوس لا تزججه الأخلاقيات ، فهو يعرف شعبه ، وليس هو من تخدعه أسطورة السيدة الرومانية والعائلة الرومانية . ولكنه ، لسبب ما لا يدريه ، كان منزججا في أعماقه لما قالته جوليا . وظلت هذه المسألة عالقة بذهنه ترفض أن تفارقه .

وجاءه الجواب على تساؤه في لحظة من الفهم تركته باردا مهزوزا بطريقة لم تهزه من قبل إلا نادرا ، وتركته مليئا بالخوف من الموت ومن الظلام المطبق المخيف ومن العدم الذي يعقب الموت . فقد بدد الجواب قدرا كبيرا من اليقين الساخر الذي يستند في حياته

وتركه يجلس هناك على الأريكة الحجرية ثقلاً ، رجلاً عجوزاً سمينا
مستكرشاً ، ارتبط مصيره كشخص فجأة بحركة هائلة من تيارات
التاريخ .

رأى ذلك بوضوح . فالشيء الذي دخل إلى العالم حديثاً هو
مجتمع كامل يقوم على ظهور العبيد ، ولغة هذا المجتمع هي قرعة
السياط . وماذا قدم هذا العالم لهؤلاء الذين يجيدون استعمال هذا
السوط ؟ ماذا كانت جوليا تعنى بقولها ؟ هو لم يتزوج قط ، فقد
حالت نواة هذا الفهم الحالى بينه وبين اتخاذ زوجة ، فاشترى النساء
والمحظيات ليقين في بيته عندما يحتاج إليهن . لكن أنطونينوس
كايوس يحتفظ بحظيرة من المحظيات ، مثلها يحتفظ كل سيد من معارفه
بعدد من النساء ، كما يحتفظ المرء بعدد من الخيول أو الكلاب .
والزوجات يمررن هذا ويقبلنه ويعملن نفس الشيء مع العبيد .
لم يكن الأمر مجرد فساد بسيط ، إنما هو هول مخيف
قلب العالم رأساً على عقب . وهؤلاء الناس المجتمعون الليلة معا في
قبلاسا لاريا يقيمون في رعب من شبح سبارتا كوس لأن سبارتا كوس
كان كل ما لم يكونوه هم : قد لا يفهم شينرون أبداً من أين نبع
فضل هذا العبد الغامض ، لكنه هو جراكوس قد فهم . فالعبيد
كانوا يدافعون عن البيت والأسرة والشرف والفضيلة وعن كل
ما هو طيب ونبل ، كما كانوا يماكون كل هذا لأنهم طيبون نبلاء ،
إنما لأن سادتهم قد تركوا لهم كل ما هو مقدس .

وكما استطاع سبارتا كوس أن ينفذ بصيرته إلى ما قد يحدث مستقبلا - وهي الرقيا النابعة من نفسه - كذلك استطاع جراكوس أن ينفذ بطريقة الخاصة إلى رؤية ما قد يحدث مستقبلا . وجعله ما رآه في المستقبل يحس بالبرودة والمرض والخوف ، فتمض وجمع عباته الرومانية حول جسده ومشى بطيئا بخطوات ثقيلة متجها إلى غرفته ومرقده .

لكنه لم يستطع النوم بسهولة . وحقق رغبة جوليا في الإبقاء على صداقته لها فبكي من أجلها كصبي صغير بدموع جافة صامتة ، من أجل زميلة له في وحدته . وتظاهر كصبي ، بأن الأمة فارينا تشاركه مرقده . وزاد الرعب من رغبته الحزينة في التفضيلة ، وراحت يده السمينتان المحللتان بالخواتم تربتان على شخص وهي يرقد على ملأه سريريه . وممرت الساعات وهو يرقد هناك مع ذكرياته .

كأهم بكرهون سبارتا كوس . وروح سبارتا كوس يملأ هذا البيت ، وليس فيهم من يعرف هيئته أو شكله ، أو أفكاره أو سلوكه ، ومع ذلك فهو موجود في كل مكان في هذا البيت ، كما هو موجود في كل مكان في روما . ووهم مطلق أن يقال إنه هو ، جراكوس ، كان خلوا من تلك الكراهية لسبارتا كوس . على العكس ، فإن كراهيته لسبارتا كوس ، اتى أخفها بمهارة على الدوام ، لحي أكثر عتفا ، وأكثر مرارة ، وأكثر توقدا من كراهيتهم لسبارتا كوس .

وبينما هو يصطرع مع ذكرياته ، راحت ذكرياته تتخذ لنفسها شكلا وهينة ولونا وواقعا . تذكر كيف كان يجلس في مجلس الشيوخ ، وما من مرة جلس فيها في قاعة المجلس إلا أحس واستقيح شعوره الخاص بالكبرياء لوجوده هناك بين العظماء الأرستقراطيين . عندما جاءت الأنباء بالبريد العاجل من كابوا بأنه قد حدث تمرد بين المجالدين في معهد لنتولوس باتياتوس ، وأن التمرد يتسع وينتشر في الريف . وتذكر موجة الخوف التي انتشرت في مجلس الشيوخ وكيف بدأوا ينقنقون كسرب كبير من الإوز ، إذ راحوا يتكلمون كلهم في نفس الوقت ، يقولون كلهم أشياء عنيفة مدعورة لا لشيء إلا لأن حفنة من المجالدين قد قتلوا مدربيهم . وتذكر اشمئزازه منهم . وتذكر كيف نهض وهو يجمع عباءته حول جسده ويلقي بطنها فوق كتفه ويوميء بإيماءته المكتسحة التي صبحت علامة مميزة له ، ويصبح كالرعد مخاطبا زملاءه الأجلاء .

— ياسادة ، ياسادة أنتم تنسون أنفسكم .

فكفوا عن نقنقتهم واستداروا له .

— ياسادة ، نحن نواجه جريمة ارتكبتها حفنة من العبيد القساين

القذرين التعسفين . لسنا نواجه غزوا بربرياً . وحتى إذا كنا ، فإنه

يدولى بإسادة أن من واجب مجلس الشيوخ أن يسلك سلوكا مخالفا لهذا . يدولى أننا مطالبون تجاه أنفسنا بقدر من الوقار .

فأشعلت عباراته غضبهم نحوه ، لكنه كان شديد الغضب منهم . فهو يعتبر السيطرة الدائمة على الأعصاب مظهراً من مظاهر الكبرياء . لكن هذه المرة كانت إحدى المرات التي فقد فيها السيطرة الدائمة على أعصابه ، فأهان ، هو ، الوضع المنبت والنشأة ، السوقي ، وحقر أكبر وأجل هيئة في العالم بأسره . ومع ذلك فقد قال لنفسه .

— اللعنة على ذلك .

وخرج من القاعة ودفعهم الورع عن كرامتهم يدوى في أذنيه وعاد إلى بيته .

كان ذلك اليوم يحيا في ذاكرته . كل دقيقة من ذلك اليوم عاشت معه . لقد أصابه الفزع أول الأمر . فقد خان القواعد المقدسة التي استنها لسلوكه ، ففقد السيطرة على أعصابه ، وخلق لنفسه خصوما . ومشى في شوارع مدينته المحبوبة روما وهو مليء بالخوف مما فعل . لكن الخوف كان ممزوجا بالاحتقار لزملائه ، والاحتقار لنفسه ، لأنه لم يستطع حتى حينذاك أن يتغلب على رهبته من مجلس الشيوخ ومن الاحترام الذي تشبعت به نفسه لأوائك الحقى الذين يحتلون مقاعد المجلس .

ولأول مرة في حياته يعنى عن روائع وأصوات ومناظر
محبوبته روما . فحرا كوس مولود في روما وفيها نشأ ، وروما مسكنه
ومأواه ، وهى جزء منه ، وهو جزء منها . وربى في نفسه احتقاراً
كاملاً للآفاق المفتوحة والأودية الخضراء والجداول الرقراقة ، وتعلم
السير والجرى والقتال في المسالك المتعرجة ومجارى المياه القذرة
في روما ، وتسلق في طفولته كالعنزة الأسطح العالية لمنازل السكنى
التي لا حصر لها ، وأصبحت رائحة الفحم المحترق التي تسود هذه
المدينة أحلى عطر عرفه . كانت هذه إحدى فترات حياته التي لم
تستطع طبيعته الساخرة أن تنفذ إليها قط . إذ كان السير في شوارع
الأسواق الضيقة بما يرحمها من عربات اليد والأكشاك حيث
تعرض وتباع تجارة العالم بأسره مغامرة جديدة بالنسبة له على
الدوام . ونصف المدينة يعرفه بالنظر ، والتجيبات تلتقي إليه . .
مرحى جرا كوس هنا ، و أهلا جرا كوس ، هناك دون احتفال
أو اهتمام من جانبه . والباعة المتجولون والإسكافية والشحاذون
والمتعطلون وسائقو عربات النقل والبناءون والنجارون يحبونه لأنه
واحد منهم كافع وجاهد في سبيل شق طريقه إلى القمة . وهم يحبونه
لأنه يدفع أعلى الأسعار ثمنا لشراء الأصوات الانتخابية . وهم يحبونه
لأنه لا يتظاهر بما ليس فيه ولأنه يفضل أن يمشى على قدميه بدلا
من الركوب في محفة ، ولأن لديه على الدوام الوقت لتحية صديق
قديم ، أما كونه لم يقدم لهم علاجا لشقتهم المتزايد ولفقدانهم

الامل في في عالم يحرفهم فيه العبيد نحو التعطل والشحاذة والحياة
على صدقات الدولة ، فهذا لم يغير حبهم له في قليل أو كثير . لأنهم
لم يكونوا يعرفوا لوضعهم علاجا . وكان بدوره يحب عالمهم ، عالم
الكآبة ، حيث تكاد روس منازل السكنى العالية تلتقى فوق
الطرق الضيقة القدرة فيضطرون إلى إبعاد بعضها عن البعض
بعروق الخشب ، عالم الشوارع الصاخبة القدرة التعة في أكبر مدينة
في العالم .

لكنه كان أعمى غافلا عن كل هذا في ذلك اليوم الذي يذكره
الآن بكل وضوح . إذ راح يسير في الشوارع غير عابئ . بالتحبات
الموجهة إليه . ولم يشتر شيئا من الأكشاك . حتى شرائح لحم
الخنزير المملح المقلية ذات الطعم الجميل ، والسجق المدخن ، والجلد
المحشو ، التي كانت تطهى فوق كثير من عربات اليد لم تجذبه إليها .
فهو لا يستطيع عادة مقاومة إغراء الطعام المطهو في الشارع ..
فطائر العسل ، والسماك المدخن وأسماك السردين المملحة المحففة
والتفاح المخلل والبطارخ ، لكنه غفل عن كل هذا في ذلك اليوم .
وعاد إلى بيته غارقا في كآبته .

لم يرض جراكوس لنفسه قط ، وهو في مثل ثراء كراسوس
تقريباً ، أن يشتري لنفسه إحدى القبلات الخاصة التي
كانت تنشأ في الجزء الجديد من المدينة بين الحدائق والمتنزهات إلى
جانب النهر . وفضل أن يشغل الدور الأرضي في منزل للسكنى في
(٢٢ - سبارتاكوس)

حيه القديم ، وترك أبوابه مفتوحة على الدوام لكل من يرغب في مقابلته. والجدير بالذكر أن كثيرا من العائلات الثرية كانت تعيش في هذه الأدوار الأرضية ، إذ كانت خير ما يسكن في منازل السكنى . فقد كان الإيجار في منازل السكنى الرومانية يقل والتعس يزيد كلما صعد المرء في السلام الواهنة المؤدية إلى الأدوار العليا . كما جرت العادة على أن ينعم الطابقان الأول والثاني وحدهما بالمياه عن طريق الأنابيب وبدورات المياه والحمامات الجديرة بحمل أسمائها . ولم يكن المجتمع القبلي قد أوغل في القدم بعد حتى يمكن الفصل فصلا كاملا بين الفقراء والأغنياء في كل مكان . فكان الكثير من التجار الأغنياء أو المصرفيين يقطنون مساكن تحمل فوق رؤوسها عشا حقيقياً للفقير يعلو سبعة طوابق .

وهكذا يذكر جراكوس كيف عاد إلى بيته في ذلك اليوم دون أن يلقى كلمة ترحيب أو تحية لأي إنسان ، وكيف دخل إلى مكتبه وهو يلقى إلى عبيده أمرا غير عادي ألا يدخل عليه إنسان . وكان كل عبيده من النساء ، وكان يصر على ذلك ويرفض أن يشاركه عبد ذكر في سكناه . ومع ذلك فلم يبائع في شراء الإمام كما كان الكثير من أصدقائه يفعلون . فاكتفى بأربع عشرة أمة لسد كل حاجياته . ولم يكن ليحتفظ لنفسه بحريم خاص كما كان العزاب يفعلون عادة . ولما لم يكن يرغب في تعقيد حياته المنزلية ، كان

يبيع من تحمل من إمانه إلى مالك ضيعة لأنه كان يرى أن من الخير للأطفال أن يشبوا في الريف . ولم يكن ليجد في ذلك التصرف من جانبه شيئا قاسيا أو منافيا للأخلاق .

ولم يكن يفضل امرأة من نساته على أخرى - ما دام أنه لم يكن ليقدر على أكثر من مجرد العلاقة العابرة مع أى امرأة . وكان مغرما بتريد أن يبنه أكثر نظاما وأكثر هدوءا وسلاما من غالبية البيوت . لكنه الآن وهو يرقد في سريره في فيلاسالاريا ويسترجع ذلك اليوم لا يجد في ذكرياته عن بيته دفئا ولا بهجة . فقد استولى عليه معيار أخلاقي جديد وأسقمه التفكير في طريقة حياته السابقة . ومع ذلك فقد راح يتابع أحداث ذلك اليوم . رأى نفسه من وجهة نظر امتيازه ، رجلا سمينا ضخما يلتف بالعباءة الرومانية ويجلس وحيدا في الغرفة العارية التي يسميها مكتبه . ولا بد أنه قد أمضى هناك ما يزيد على الساعة جالسا قبل أن يزعجه أحد . إذ سمع طرقا على الباب فسأل قائلا :

— ماذا جرى ؟

فقالت الأمة

— جماعة من السادة يرغبون في مقابلتك .

— لا أريد أن أقابل أحدا .

كم كان هذا التصرف صديانيا من جانبه .

— إنهم سادة أجلاء ورجال نبلاء من مجلس الشيوخ .
إذن فقد جاءوا إليه ، ولم يضع أو يطرد من دوائرهم بعد .
ما الذى دفعه إلى التفكير فى أنهم سيطردونه ؟ من الطبيعى أن
ياتوا إليه . وشعر بالحياة تعود إليه من جديد . وعادت إليه
نفسه فقفز من مقعده وفتح الباب على مصراعيه وعاد من جديد
جرا كوس القديم الباسم الواثق من نفسه الكفو . وقال :
— يا سادة ، مرحبا بكم يا سادة .

كانوا خمسة من أعضاء لجنة المجلس من بينهم اثنان من القناصل
أما الثلاثة الآخرون فكانوا من النبلاء ذوى المكانة والحكمة . لقد
رأت لجنة المجلس ألا تدع هذه الحالة الطارئة الحديثة تزيد من أى
خلاف سياسى قد يفكر جرا كوس فى إثارتها فمزجوا بين الألفة
والتعاضم وهم يؤنبونه قائلين .

— ماذا دهاك يا جرا كوس ؟ أكنت تجلس فى مجلس الشيوخ
طيلة هذا العام فى انتظار فرصة لإهانتنا .
فاعتذر جرا كوس قائلا

— لست أملك لا القريحة ولا البراعة لأطلب منكم الصفح
كما يجب .

— بل أنت تملك الاثنتين . لكن هذا خارج عن الموضوع .

وطالب مقاعد وجلسوا في دائرة من حوله ، خمسة رجال يزينهم السن والوقار يلتفون في العباءات الرومانية البيضاء الفاخرة التي أصبحت رمزا للحكم الروماني للعالم بأسره ، وجاء الشراب وصينية من الحلوى . وتولى القنصل كاسيوس الحديث باسم الجميع . فتملق جراكوس وحيره لأن جراكوس لم ير فيما حدث أزمة لها كل هذه الضخامة ، وهو طالما حلم بأن يصبح قنصلا ، لكن ذلك لم يكن ممكنا فهو لم يكن يملك المواهب أو الصلات العائلية الخاصة اللازمة لذلك ، وحاول أن تخمن ما يسعون إليه فكان كل ما انتهى إليه تخمينه هو أن الموضوع صلة بأسبانيا ، حيث استعالت الثورة ضد مجلس الشيوخ — وروما بالطبع — التي يقودها سير توريوس إلى نزاع حول السلطان بين سير توريوس وبومبي . وكان لجراكوس تقديره الخاص لهذا الموضوع ، فهو يحتقر الخصمين المتنافسين وكان قد عقد العزم على ألا يحرك ساكنا وأن يتركهما ليحطم كل منهما الآخر . وكان يعرف أن للسادة الخمسة الجالسين حوله نفس الرأي .

وقال كاسيوس

— أنت ترى إذن أن هذه الثورة التي نشبت في كاپوا تنذر

بخطر عظيم .

فأجابه جراكوس في صراحة

— أنا لا أرى هذا على الإطلاق .

— لو وضعنا في اعتبارنا ما قاسيناه من ثورات العبيد —

فسأله جرا كوس في مزيد من الرقة عن ذى قبل :

— ماذا تعرفون عن هذه الثورة ؟ كم عدد العبيد المشتركين فيها ؟
من هم ؟ وأين ذهبوا ؟ وما مدى الصحة في هذا الجزع من جانبكم ؟

فأجاب كاسيوس على أسئلته واحدا إثر واحد قائلا :

— لقد داومنا على الاتصال بكابوا . تقول التقارير إن المجالدين
وخدمهم هم الذين قاموا بالثورة في أول الأمر . ويقول تقرير إنه
لم يهرب من المجالدين سوى سبعين . ثم جاء في تقرير وصل بعد
ذلك أن عدد الهاربين يزيد على المائتين وهم التراقيون والغاليون
وعدد من الإفريقيين السود . وتزيد التقارير التي وردت بعد ذلك
من عددهم وقد يكون هذا نتيجة للذعر . ومن ناحية أخرى ،
من المحتمل أن تكون الاضطرابات قد سادت الضيعات . ويبدو
أن الثوار قد تسببوا في إحداث خسائر كبيرة ، لكن التفاصيل لم
ترد بعد . أما أين ذهبوا ، فيبدو أنهم يتقدمون في اتجاه جبل
فيزوف .

فانفجر جرا كوس يقول وهو نافذ الصبر :

— ليس هناك أكثر من ، «يبدو أنهم» . أهم من الحفاقة في كابوا إلى
حد أنهم لا يستطيعون تقدير ما حدث بين ظهرانيهم ؟ لديهم قوات

للحراسة هناك . لماذا لم تقم هذه القوات بإخاد هذا الشيء بسرعة
وفي الحال ؟

فتطلع كاسديوس إلى جراكوس في هدوء وقال :
- ليس في كابوا إلا كتيبة واحدة .

- كتيبة واحدة ؟ وكم من القوات نحتاج لتؤدب قلة من
المجالدين التعسفين ؟

- أنت تعرف كما أعرف أنا ما يمكن أن يكون قد حدث
في كابوا .

- أنا لا أعرف ، لكنني أستطيع أن أخمن . وتخميني هو أن
قائد قوات الحراسة يتناول أجر آمن كل متعهدي المجالدين القدرين
الذين يعملون في المنطقة . عشرون جندياً هنا ، ، واثناعشر جندياً
هناك . كم من القوات كان موجوداً في المدينة ؟

- مائتان وخمسون جندياً ، هذا ما تبقى ، ولا حاجة بك إلى
مطالبة الناس بالاستقامة يا جراكوس . لقد هزم المجالدون قواتنا .
وهذا ما يزعجنا غاية الإزعاج يا جراكوس . ونحن نحس أن من
الضروري أن نبعث بكتائب المدينة إلى كابوا على وجه السرعة .
- وكم عددهم ؟

- ست كتائب على الأقل - ثلاثة آلاف رجل على الأقل .

— متى ؟

— فى الحال .

فهز جراكوس رأسه . فهذا بالضبط هو ما كان يتوقعه . وفسكر
فما ينوى أن يقول . وأعاد التفكير فيه بعناية كبيرة . وجمع فى
ذهنه كل ما يعرفه وكل ما عرفه عن نفسية العبيد . ثم قال .
— لا تفعلوا .

وكان معتادا على معارضتهم فطلب الجميع معرفة السبب فقال :

— لأنى لا أثق فى كتاب المدن . دعوا العبيد وشأنهم فى الوقت

الحاضر . دعوا قليلا من الفوضى والفساد يدب فيهم . لا ترسلوا
كتاب المدن .

— ومن نرسل إذن ؟

— استدعوا فيلقا من الفيالق .

— من أسبانيا ؟ وبومى ؟

— دعوا بومى يتعفن ويذهب إلى الجحيم . حسن . لن دع

سبانيا جانبا . استدعوا الفيالق الثالث من بلاد الغال (عبر الآب)

ولا تتعجلوا فهاهم إلا عبيد ، حفنة من العبيد . ولن يصبح الأمر

شيئا إلا إذا جعلتم أنتم منه شيئا .

وراحوا يمدلون ويتناقشون . واسترجع جراكوس تلك
المناقشة حبه في ذاكرته من جديد وفقدتها مرة ثانية ،
يقررون ، يقررون ، يقررون ، يقررون ، يقررون ،
من كتاب الميسرة . جراكوس قليلا واستيقظ عند مطلع النور
كما يفعل دائما ، بعض النظر عن الزمان والمكان الذي ينام فيه
وحمل الماء والتفاحة اللذين يتناولهما كل صباح إلى الشرفة حيث
جلس يتناولهما .

يبدد ضوء النهار مخاوف الإنسان وحيرته . بل هو في كثير من الأحيان بلسم وبركة . نقول في كثير من الأحيان ولكن ليس بصفة دائمة لأن من المخلوقات البشرية فئات معينة لا ترحب بضوء النهار . فالسجين يحتضن الليل ويعتبره رداء يبعث فيه الدفء ويحميه ويبعث الراحة إلى نفسه ، بينما لا يحمل ضوء النهار إلى المحكوم عليه بالإعدام أى بهجة . لكن ضوء النهار يمحو في معظم الأحوال ما ضمه الليل من بلبلة وحيرة . ففي كل صباح يتشج الرجال العظام بوشاح عظمتهم من جديد . ذلك لأنه حتى الرجال العظام يصبحون كغيرهم من الرجال أثناء الليل ، ويقترب بعضهم خلاله أعمالا حقيرة بينما يبكي البعض ، ويتزاحم الخوف من الموت في نفوس البعض الآخر والخوف من ظلمة أعمق من الظلمة المحيطة بهم . أما في الصباح فإنهم يعودون رجالا عظاما من جديد . وكان جراكوس وهو جالس في الشرفة ماشحا بعباءة جديدة بيضاء كالثلج ووجهه الضخم السمين بشوش فيه ثقة بالنفس ، كان صورة لما يجب أن يكون عليه عضو مجلس الشيوخ الروماني . فقد قيل أكثر من مرة ، في ذلك الوقت وفيما تلاه من الأزمان ، إن العالم لم يشهد هيئة من الرجال اجتمعت لمناقشات تشريعية أحسن أو أنبل أو أحكم من مجلس الشيوخ في الجمهورية الرومانية . وكانت النظرة

إلى جراكوس تميل بالإنسان إلى تصديق ذلك . حقيقة لم يكن جراكوس نبيل المولد ، وكانت الدماء التي تجري في عروقه من سلالة مشكوك في أمرها إلى حد كبير ، لكنه كان واسع الثراء . وكان من فضائل الجمهورية أن تقدير الرجل كان يقاس على أساس ما حققه هو نفسه، وعلى أساس الأصل الذي ينحدر منه بنفس القدر . وكان ذلك مصداقا للحقيقة القائلة بأن الآلهة عندما منحت الإنسان الثروة كان ذلك دليلا على مميزاته الشخصية . وأن المرء إذا أراد البرهان على ذلك فكل ما عليه هو أن يرى أن كثرة الناس من الفقراء وأن الأغنياء قلة قليلة .

وانضمت بقية الجماعة ، التي زادت فيلاسالاريا رواء ، إلى جراكوس وهو جالس هناك . وكانت جماعة غير عادية من الرجال والنساء اجتمعت هناك لقضاء الليل ويستمتع أفرادها بمعرفة أنهم أشخاص مرموقون ومن ذوي الحيتية . وساعد هذا على تسهيل التعامل فيما بينهم وأكد ثقتهم في أنطونيوس كايوس الذي لم يخطئ قط بالجمع بين أشخاص غير متكافئين في ضيافته . لكنهم بالنسبة للظروف العامة للحياة في الريف الروماني لم يكونوا غير عاديين إلى حد كبير . حقيقة أن من بينهم اثنان من أغنياء العالم ، وامرأة شابة ستصبح بغيًا شهيرة على مدى الأجيال ، وشاب سيظل شهيرا خلال أجيال عديدة قادمة عن طريق حياته القائمة على التآمر وإعداد الخطط في هدوء بارد وحساب دقيق ، وشاب آخر سيصبح

انحلاله موضوعا للشهرة في حد ذاته ، إلا أن قبلا سالاريا كانت تشهد جماعات مماثلة في كل وقت تقريبا .

اجتمعوا هذا الصباح حول جرا كوس . وكان هو الوحيد من بينهم الذي يرتدى العباة الرومانية ، مثال للقاضي الكبير الذي لا يهتز وهو جالس هناك وأمامه الماء المعطر يقشر تفاحة ويلقي بكلمة هنا وهناك . وقال لنفسه وهو ينظر إلى الرجال المصففة شعورهم في دقة وإلى النساء المزوقات في عناية ، فشعورهن صفتها يدخيرة في شكل جميل وطلاء الشفاه وأحمر الحدود قد وضعتهما يدفئانه .
- إنهم سرعان ما يعودون إلى أنفسهم .

إذ را حوا يتحدثون عن هذا الشيء وعن ذلك . وكان حديثهم بارعا أجيد تدر بهم عليه . إذا تكلموا عن النحت اتخذ شيشرون سمة المسترل ، كما هو المتوقع من جانبته وقال :

- لقد سئمت كل هذا الحديث عن اليونان . هل عملوا شيئا لم يعمله المصريون قبلهم بألف عام ؟ في كلا الحالتين تجدون في نحتهم انحلالا من نوع خاص ، تجدون فيه شعبا غير قادر على النمو أو السلطان . هذا ما يعكسه النحت عندهم . بينما يصور الفنان الروماني ما هو موجود على الأقل .

فاحتجت هيلينا ، نجر الشباب ، هيلينا المثقفة ، والمرأة في نفس الوقت قائلة :

— لكن من الممكن أن يكون ما هو موجود باعثا على الملل .
وكان المتوقع من جراكوس أن ينفي معرفته أى شئ عن الفن
على الإطلاق . ومع ذلك فقد ظهر أن جراكوس يعرف الكثير
عن الفن إذ قال :

— أنا أعرف ما أحب .

فهو يشتري الفن المصرى لأنه يمس وترا معيننا من نفسه . بينما
لم تكن لكراسوس آراء قوية عن الفن . وكان مما بلغت النظر قلة
الآراء القوية عنده ومع ذلك فقد كان قائدا خيرا كما أثبتت التجربة .
وامتعض في نفس الوقت من رأى شيشرون لما فيه من زهو وثقة ،
فن الرانع أن تتكلم عن الانحلال عندما لا تكون مضطرا إلى
محاربة من تصفهم بالانحلال .

وعلق أنطونيوس كايوس قائلا :

— أحب أن أقول إنى أفضل النحت اليونانى فهو رخيص ويصبح
أكثر بهجة ما إن يزول عنه الطلاء . وما أملكه منه طبعاً هو هذه
القطع القديمة الخالية من اللون التى يجدها المرء من حوله . لكن
منظرها يبدو جميلا إذا وضعت فى حديقة ، وأنا أفضل رؤيتها فى
هذا الإطار .

— إذن كان من الممكن أن تشتري آثار سبارتا كوس قبل
أن يأمر صديقنا كراسوس بتحطيمها .

وابتسم شيشرون . فسألت هيلينا قائلة :

- آثار ؟

فقال كراسوس في هدوء :

- كان من الضروري تحطيمها .

- آية آثار ؟

فقال شيشرون :

- إذالم أكن مخطئا ، كان جراكوس هو الذى وقع الامر

بتحطيمها .

فهدر جراكوس يقول :

- أنت لا تخطى . أبدا . ألسنت كذلك أيها الشاب ؟ أنت على

صواب تام .

ثم قال يشرح لهيلينا :

- أقام سبارتاكوس على السفح الشرقى لجبل فيزوف تماثيل

كبيرين نحنا من الحجر البركاني . لم أرهما قط لكنى وقعت

بالامر بتحطيمهما .

فسأته هيلينا :

- كيف أقدمت على ذلك ؟

- وكيف لا أقدم على ذلك ؟ إذا أقامت القذارة رمزا من

القذارة فعليك أن تزيله .

وسألت كلوديا قائلة :

— وكيف كان شكلها ؟

فهز جرا كوس رأسه مبتسما في حمرة أسفا على الطريقة التي تتدخل بها أشباح العبيد وشيخ قائدهم في المحادثة مهما كان الموضوع الذي تبدأ منه المحادثة . ثم قال :

— لم أرهما قط يا عزيزتي . كراسوس هو الذي شاهدتهما فاسأليه .

فقال كراسوس :

— لا أستطيع أن أبدى لك فيهما رأى فنان . لكن شكل هذه الأشياء يكون مثل ما هو مطلوب منها أن تمثله . كان هناك تمثالان ، يمثل الأول عبدا أستطيع أن أقول إن طوله يبلغ حوالى خمسين قدما يقف متباعد الساقين وقد حطم أغلاله لأنها ما زالت تحيط بجسده وهي محطمة ، ويضم إلى صدره طفلا على إحدى ذراعيه ، ويتدلى من يده الأخرى سيف أسباني . كان هذا واحدا من الاثنين ، وتستطيعين أن تصفيه بأنه هامئ فيما أعتمد . وكان متقن الصنع بقدر ما أستطيع أن أرى ، ولو أنى لست من يحكم على الأعمال الفنية كما قلت ، لكنه كان منحوتا فى بساطة . وكان الرجل والطفل جميلى التكوين إلى حد يبرز حتى التفاصيل الصغيرة أمثال القروح والآثار الجسدية التى من الطبيعى أن تحدثها السلاسل . وأذكر كيف راح كايوس تانريا الشاب يوضح لى التكوين القوى لكنف العبد

والعروق البارزة على اليدين كما ترى في أي عبد وراء المحراث تماما .
وأنت تعرفين أنه كان مع سبارتا كوس عدد كبير من اليونانيين .
واليونانيون بارعون في هذا النوع من الأشياء . لم يجدوا الفرصة
لطلاء التمثال قط أو لعلمهم لم يستطيعوا الحصول على أية صبغة .
وكان التمثال في مجموعه يذكرني ببعض التماثيل القديمة التي ترىنها في
أثينا ، التماثيل التي زال من عليها الطلاء . وأوافق كايوس على أن
شكلها أفضل من غير طلاء - ورخصة جدا كذلك .

أما التمثال الآخر فلم يكن يمثل هذا الطول . إذ لم يزد طول
الأجسام عن عشرين قدما ، لكنها هي الأخرى كانت دقيقة الصنع .
كان هذا التمثال يمثل ثلاثة مجالدين ، تراقى وغالى وأفريقى . والطريف
حقا أن تمثال الأفريقى كان منحوتا من الحجر الأسود ، أما الآخران
فكانا من الحجر الأبيض . كان الأفريقى يقف في الوسط وأطول
بعض الشيء من زميليه ويمسك بمدراته في كلتا يديه في قوة . وعلى
جانب منه وقف التراقى ممسكا بالسكين في يده وفي الجانب الآخر
وقف الغالى والسيف في يده . وكان متقن الصنع لأنك كنت
تستطيعين أن ترى أنهم كانوا يقاتلون لأن أذرعهم وسيقانهم
كانت مغطاة بجراح عميقة . ومن خلفهم تقف امرأة .
تقف في كبرياء بالغة ويقولون إنه تمثال فارينيا . وكانت المرأة
تمسك بمسطين في إحدى يديها وبمحول في اليد الأخرى . ومن
واجب أن أعترف بأنى لم أستطع على الإطلاق أن أفهم مغزى ذلك .

فسأله جرا كوس في هدوء قائلاً :

— فأرينيا ؟

وسألته هيلينا قائلة :

— لماذا كنت مضطراً إلى تحطيمها ؟

فتولى جرا كوس الرد عليها إذ قال :

— أكان من الممكن أن تتركي تماثيلهم قائمة ؟ أكان من الممكن

أن تتركها قائمة هناك لبشير إليها الجميع وليقولوا هذا ما فعله العبيد ؟

فقالت هيلينا تعلن عن رأيها :

— إن روما من القوة إلى حد أن تسمح ببقائها — أجل وأن

يشار إليها .

فعلق شبشرون قائلاً :

— كلام طيب .

لكن كراسوس كان يفكر فيما كانت عليه الأحوال حينذاك ،

وعشرة آلاف مقاتل من خيرة قواته يسبحون في دمايتهم في ميدان

القتال ، والعبيد يرحلون كأسد غاضب لم يتجحوا إلا في إزعاجه

وفشلوا في الإضرار به .

وسأله جرا كوس وهو يحاول أن يجعل سؤاله يبدو كما لو كان

قد جاء عرضاً .

— وكيف كان شكل تمثال فارينيا؟

— لأظن أني أستطيع أن أسترجه في ذاكرتي جيدا . إذ كنت تحسبها امرأة ألمانية أوغالية ، لها شعر طويل ومنزروا واسع فضفاض .. وكل هذه الأشياء . الشعر مضفر ومعقوص بالطريقة التي تعقص بها الألمانيات وبنات الغال شعورهن . صدر جميل — جسد جميل قوى مثل بعض تلك الألمانيات اللاتي تراهن في الأسواق هذه الأيام ويقبل الناس على شرائهن . بالطبع لا أحد يدري أكانت تلك فارينيا حقيقة أم لا . ككل شيء آخر في قصة سبارتا كوس . فالمرء لا يكاد يعرف شيئا عنها . اللهم إلا إذا أردت أن تصدق الدعاية كاملة وتدع الأمر عند هذا الحد . كل ما أعرفه عن فارينيا هو مارواه لي ذلك المتعهد القديم القدر باتياتوس ، وكان مارواه لي قليلا جدا ، عدا أن لسانه تدلى وسال لعابه لمجرد ذكرها . ولذا لا بد أنها كانت جميلة .

وقالت هيلينا :

— وحطمت هذا التمثال أيضا؟

فأخني كراسوس رأسه . فلم يكن هو بالرجل السهل إزعاجه .
وقال هيلينا :

— يا عزيزتي كنت جنديا وكنت أنفذ تعليمات مجلس الشيوخ .
وستسمعون أن حرب العبيد كانت شيئا بسيطا . ومن الطبيعي جدا

أن يتخذوا منها هذا الموقف ما دامت روما لن تفيد كثيرا من
مصارحة العالم بحقيقة ما عانيناه من جماعة من العبيد . لكننا نستطيع
هنا على هذه الشرفة البهيجة في بيت صديقنا العزيز الطيب أنطونيوس
كايوس وفي هذه الصحبة أن نصرف النظر عن الأساطير ، لم يوشك
إنسان على تحطيم روما كما أوشك سبارتا كوس ، ولم يستطع أحد أن
يصبها بمثل هذه الجراح الرهيبة . أنا لا أريد أن أنغم فيما فعلت ،
فليكن بومي هو البطل فليس إخماد فتنة للعبيد بالأمر الخطير ،
لكن الحقيقة تبقى . وإذا كانت رموز العقاب أمرا لا يسر ،
فلتفكرى فيما أحسسته عندما رأيت الأرض مغطاة بجثث جنود
أحسن القوات في روما . لذلك لم أفزع أو أتراجع عن تحطيم بعض
التماثيل الحجرية التي أقامها العبيد . على العكس تماما لقد أحسست
رضاء نفسيا معيناً في القيام بذلك . لقد حطمتنا التماثيل تحطيماً كاملاً
وسحقناها تراباً حتى لا يبقى منها أثر . وكذلك حطمتنا سبارتا كوس
وجيشه وكذلك سنحطم في الوقت المناسب — وتبعاً للضرورة —
مجرد ذكرى ما فعل وكيف فعل ذلك . ما أنا إلا مجرد رجل بسيط ،
ولست بارحاً براعة خاصة لكنى أعرف هذا ، أعرف أن نظام
الأشياء هو أن البعض يجب أن يحكم وأن البعض الآخر يجب أن
يخدم . هكذا نظمت الآلهة الأشياء وأرادتها . وهكذا ستكون .
وكان من صفات كراسوس أنه يستطيع أن يستثير عواطف
الآخرين دون أن يفعل هو أدنى انفعال . وكانت تقاطع وجهه

المنسقة القوية العسكرية تزيد من وزن ما يقول . كان يمثل الصقر
البرونزي رمز الجمهورية بكل معاني الكلمة .

وراح جراكوس يرقبه من تحت جفونه المسدلة . إذ جلس
جراكوس هناك يتطلع إليهم الواحد بعد الآخر ، شبشرون النجيل
الوجه ، النهاب ، وكايوس الغندور الشاب ، وهيلينا ، وجوليا الصائمة
المعذبة المثيرة للضحك إلى حد ما ، وكاوديا الناعمة القانعة ،
أنطونيوس كايوس — وكراسوس — كلهم راح يرقبهم ويصفى
إلى ما يقولون . وعاد بدأ كرتيه من جديد إلى يوم جاءت لجنة مجلس
الشيوخ ورائه بعد أن تركها وخرج . كانت تلك هي البداية طبعاً
— عندما أرسلت اللجنة الكتاب الستة . والبداية معرضة للنسيان
وكذلك النهاية كما قال كراسوس — اللهم إلا إذا كانت النهاية لم
تأت بعد — كما هو محتمل .

كان قرار مجلس الشيوخ في أول الأمر هو إرسال ست من كتائب حراسة المدينة إلى كابوا في التو لإخماد ثورة العبيد. وكان هذا هو القرار الذي عارضه جراكوس والذي نفذوه من ناحية ليلقنوه مبادئ التحقير. وكان جراكوس يتذكر مسألة التحقير هذه في ضوء ما حدث بعد ذلك في رضاء معين مرير.

كانت كل كتيبة من كتائب حراسة المدن تتكون من خمسمائة وستين جنديا - مسلحين كنتسليح جنود الفيالق العاديين - إنما في مظهر أفضل وبمعدات أعلى ثمنا. فالمدينة مكان طيب الإقامة. أما الفيالق فتذهب إلى أطراف المعورة ولا تعود أبدا في كثير من الأحيان، من إنما تدفن في أرض غريبة ولا تعود في كثير من الأحيان كذلك إلا بعد خمس أو عشر أو خمس عشرة سنة. وجنود الفيالق يمشون طيلة اليوم على حفنة من الطعام ويعرقون ويعملون ويشقون الطرق ويشيدون المدن في الفيافي وتصبح روما المدينة الكبيرة بالنسبة لهم مجرد ذكرى في بعض الأحيان. أما جنود كتائب حراسة المدن فيعيشون على خيرات الأرض، ولانهاية للنساء والشراب والألعاب بالنسبة لهم. حتى الجندي البسيط في كتيبة لحراسة المدينة كان يمثل عاملا سياسيا وكانت قطرات المال تداعب راحته على الدوام. وكان لكثير من رجال الكتائب في المدينة

مساكن جيدة لأوقات الفراغ . وكان البعض يملك عددا من الإماء يصل إلى ستة نساء . وقد رويت قصة عن أحد جنود المدينة كان يملك أربع عشر محظية في مسكن كبير في روما يريد عملا رابحا من إنجاب الأطفال وتربيتهم حتى سن السادسة ثم يعيهم في الأسواق . كما كانت تروى قصص كثيرة مشابهة .

كان جنود كتائب حراسة المدن يرتدون سترات رسمية أنيقة ، ويقود كل كتائب الحراسة ضباط شبان من أبناء العائلات الطيبة الذين كانوا يبنون مستقبلهم في الجيش لكنهم يرغبون في ألا يكون مستقبلهم بعيدا عن المسرح وساحة القتال والمطاعم الجيدة . وكان نصفهم من أصدقاء كايوس ، وداعبته مرة أو مرتين فكرة الالتحاق بمثل هذا العمل ، لكنه نبذ الفكرة لأنها لا تتلاءم مع مواهبه الخاصة . لكن هذا النوع من السلطان بالإضافة إلى حقيقة أن الكتائب كانت تستدعى للقيام بالاستعراضات العسكرية في كل احتفال رسمي عام تقريبا ، أدبها إلى حدوث تنافس طبيعي بين السادة الشبان حول قيادة أحسن الفصائل مظهرا . ففي المدينة كانت سراويل الجلدية القذرة المشربة بالعرق التي يرتديها جندي الفيالق يستبدل بها جلد أنثى الغزال الجميل الصباغة الرقيق الدباغة . كما كان لكل فصيلة لونها الخاص بها . وكانوا في العادة يمنحونهم امتياز تثبيت الريش في الخوذات . وكانت الشرايح الحديدية التي توضع على الكتف وتنزل على الصدر من الأمام وتتداخل في الشريحة التي

توضع على الصدر كثيرا ما تغطي بالذهب أو الفضة . وكانت دروع إحدى الكتائب كلها من النحاس الأصفر كما كان لكل فصيلة حذاء متميز يعلو حتى الركبة وتزينه الأجراس الفضية الصغيرة . وكان نصف جنود فصائل المدينة يستعمل دروع الساقين البرونزية التي أقلعت فيالق الحدود عن استعمالها منذ زمن بعيد لأنها وجدت أن مشى الأميال في اليوم الواحد أمر مستحيل بالنسبة لرجال سيقانها مغلقة بالمعدن . وكان لكل كتيبة تصميم مختلف لواجهة الدروع وكانت أسلحتها ودروعها من نوع لا نظير له في كل إيطاليا .

لم تكن الكتائب مفتقرة إلى التدريب ، فقد كانت تقوم بتدريباتها كل يوم في تلك الفترة . إذ كانت تتدرب عادة في الصباح المبكر في ساحة مكسيموس المستديرة التي كانت حينذاك ميدانا مفتوحا للسباق في منخفض وادي موراسيا . وكانت مشاهدة الجنود وهي تقوم بتدريباتها على إيقاع الموسيقى الصادرة عن مائة صفارة أمرًا يبعث البهجة إلى النفس . فكانت سفوح التلال المحيطة بالساحة المستديرة تزدهم كل صباح بأطفال روما الذين كانوا يرقبون المشهد العسكري في غبطة وحسد .

ولكن حقيقة الأمر كانت أن الكتائب لم تكن في قوة الفائق . فنشبت جمهرة من المتعطلين الجائعين اليائسين ، والاشترك في خصام سياسي في شوارع المدينة الضيقة شيء ، أما قتال الأسبان أو الغالين أو الألمان أو التراقيين أو اليهود أو الإفريقيين فذلك شيء آخر مختلف تماما .

ومع ذلك لم يكن هذا أكثر من تمرد قامت به حفنة من العبيد .
وست من كتاب المدن ، مع كل ما فيها من نواحي النقص تضم
أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي روماني . وكان جراكوس
نفسه يسلم بذلك ولو في القليل . إذ لم يكن ليرضى من ناحية
المبدأ أن يرى الكتاب تبعد عن جدران المدينة أكثر من مسيرة
يوم واحد . لكن عدد الكتاب كان سبعة وعشرين . وحتى
جراكوس سلم بأن في استطاعتها أن تقوم بما كلفت به . إنما
قامت معارضته بصورة أكبر على أساس من خوف عميق من هذه
الفصائل السياسية التي لا تتكون من الجنود الفلاحين إنما من أبناء
المدينة التي ولدوا وعاشوا فيها ومن المتعطلين فاقدى الضمير
والطفيليات المتعفنة في روما ومن المنبوذين وفاقدى الأمل الذين
كانوا يحيون حياتهم محصورين بين كتلة العبيد التي يقوم عليها المجتمع
وحفنة الحكام التي تنهض فوقها . وكانوا يزيدون في عددهم عن عمال
روما ، جوهر الصانع وأصحاب الحوانيت الذين كانوا في تناقص
مستمر . وكانوا ينفقون أيامهم في الشوارع أو في الساحة ،
ويعيشون على مرتباتهم الضئيلة ويقامرون ويراهنون في السباق
ويبيعون أصواتهم الانتخابية في كل انتخابات ، ويخنقون أولادهم
عقب ولادتهم ليهربوا من مسؤولية تربيتهم . وكان جنود الكتاب
يمضون الساعات في الحمامات ويحبون في المساكن الصغيرة القذرة

في منازل السكنى العالية — ومن كل هؤلاء كانوا يجندون الجند
لكتاب حراسة المدن .

تحركت الكتاب الست في مطلع الفجر في اليوم التالي لقرار
مجلس الشيوخ . وأعطيت قيادتها لعضو شاب في مجلس الشيوخ
يدعى فارينوس جلابروس ، وأعطوه شارة السفارة ، وبمثرا به
كممثل لمجلس الشيوخ وله سلطات المجلس . ولم تكن روما لتخلو
من الرجال الأكبر سنا من فارينوس من ذوى الخبرة العسكرية
الطويلة ، لكن الصراع الداخلى في سبيل السلطان كان يمزق روما
منذ سنوات طويلة وكان مجلس الشيوخ شديد الحذر من وضع قوة
عسكرية بين يدى أى فرد خارج المجلس . وكان فارينوس
جلابروس مغرورا أميل إلى الغباء وموثوقا به سياسيا .

وكان فارينوس فى التاسعة والثلاثين من عمره فى ذلك الوقت ،
وكانت له عن طريق أمه علاقات عائلية طيبة . فلم يكن طموحه
ليفتقر إلى السند ومن ثم رحب هو وعائلته بهذا الاختيار كفرصة
لقدر من المجد لا يشوبه احتمال الفشل . وكانت أغلبية الأعضاء
فى مجلس الشيوخ ، باختيارهم لفارينوس تقوى موقفها من فريق
كامل من النبلاء . إذ سيقوم الضباط تحت إمرته بتنفيذ ما يجب
عمله عسكريا ، أما القرارات القليلة التى قد يضطر إلى اتخاذها فقد
أعطيت له التعليمات الدقيقة الصريحة بشأنها ، عليه أن يقود رجاله

إلى كابوا بسرعة السير في ميادين القتال أى عشرين ميلا في اليوم .
وهذه المسافة كلها على الطريق الأيبوسى ومعنى ذلك أن العربات
هى التى ستحمل الطعام والماء الذى يحمله جندى الفيلق على ظهره
عادة . وعليه أن يعسكر للراحة برجاله خارج جدران كابوا وعليه
ألا يمضى فى تلك المدينة أكثر من يوم واحد فى جمع المعلومات عن
مدى تقدم ثورة العبيد ولوضع خططه لقمعها، وعليه بعد ذلك أن
يبعث بخططه إلى مجلس الشيوخ على أن يشرع فى تنفيذها فوراً
دون انتظار اعتمادها من المجلس . وعليه أن يتصرف فى العبيد بما
يراه واجبا ، لكن يجب أن يبذل كل جهد ممكن للقبض على قادة
الثورة وأن يعود بهم وبأكبر عدد يمكن أسره إلى روما لمحاكمتهم
محاكمة علنية وتوقيع العقاب بهم . وإذا طلب مجلس مدينة كابوا
رموز عقاب ، فله الحق فى صلب عشرة من العبيد خارج كابوا -
لكن على شريطة أن يكون هذا العدد أقل من نصف الأسرى .
وأصدر مجلس الشيوخ أمرا صريحا يقضى بمصادرة كل حقوق
ملكية العبيد لحساب المجلس . وصدرت التعليمات لقارينيوس بأن
يرفض قبول أى مطالبات بالعبيد ولو أن من الممكن قبول أى
إعلانات قضائية لقضايا ترتب على ذلك وأن تسلّم هذه الإعلانات
إلى لجنة المطالب .

حدث هذا قبل أن يكون لدى روما أى فكرة عن قائد
الثورة . ولم يكن اسم سبارتا كوس قد عرف بعد ، كالم يكن

مفهوما بصورة واضحة كيف قامت الثورة في مدرسة باتياتوس .
تجمعت كتائب حراسة المدينة للقيام باستعراض عسكري عند مطلع
الفجر . ولكن حدث بعض التأخير نتيجة للخلاف بين الضباط
حول مواضع الكتائب . فكانت الشمس قد صعدت إلى السماء
عندما بدأت الكتائب تتحرك . ودوت في أنحاء المدينة الموسيقى
العسكرية المثيرة الصادرة عن طبولها وصفاراتها . وعندما وصلت
الكتائب إلى أبواب المدينة ، كان جمهور كبير قد احتشد لمشاهدتها
وهي ترحل .

جراكوس يتذكر كل ذلك جيدا — جيدا جدا . فقد انضم
هو واثنان من أعضاء المجلس إلى الجمهور المحتشد عند أبواب
المدينة . وتذكر جمال منظر الكتائب وهي تسير ، والفرق الموسيقية
تعزف ، والأعلام تنطير ، والألوية تتمايل في كبرياء ، وخوذات
الجنود بما فيها من ريش تهتز في أثناء سيرهم ، وقارينوس على رأس
الصفوف يضع على صدره درعا من النحاس اللامع ويمتطي صهوة
جواد أبيض رائع ، ويلوح للجماهير التي راحت تحببه . ليس في
العالم ما يشير مثل استعراض الجنود أجيد تدريبهم . جراكوس
يتذكر ذلك جيدا جدا .

وهكذا عرف مجلس الشيوخ اسم سبارتاكوس . ويستطيع
جراكوس أن يذكر أول مرة سمع فيها الاسم . ولعل ذلك كان
أول مرة ينطق فيها الاسم في روما . فقد علق عليه فارينوس في
التقرير الذي بعث به بالبريد العاجل من كابوا إلى مجلس الشيوخ
في روما تعليقا عابرا دون اهتمام خاص وبلا احتفال . ولم تكن
لتقرير فارينوس أهمية خاصة فقد بدأ بالعبارة التقليدية . .
« أرجو أن يسر مجلس الشيوخ الموقر ، ثم راح يعدد تفاصيل
الحوادث القليلة التي حدثت أثناء سير القوات على الطريق الأيوني
والمعلومات التي جمعها في كابوا . وكان أهم ما حدث أثناء المسير هو
أن جنود الكتائب الثلاث التي يضع جنودها الدروع على سيقانهم
قد أصيبوا بقروح مؤلمة في ظاهر القدام فقرّر فارينوس أن
يخلعوا دروع السيقان وأن تعود إحدى العربات بالدروع إلى
روما ورأى ضباط هذه الكتائب الثلاث في ذلك مساساً بشرفهم
العسكري وإهانة لرجالهم وأن في الإمكان التغلب على هذه المشكلة
بقليل من شحم القدام . فنزل فارينوس على رغباتهم واضطروا
نتيجة لذلك إلى ترك أكثر من مائة رجل في كابوا لأنهم غير صالحين
للخدمة ، بينما راحت عدة مئات غيرهم تعرج . ومع ذلك فالشعور العام
هو أنهم سيكونون صالحين للاشتراك في الحملة ضد العبيد .

(وجفل جراكوس عندما سمع كلمة الحملة) . أما بالنسبة للحديث عن الثورة فكان من الواضح أن فارينوس كان موزعا بين رغبته في تقرير الحقائق بطريقة تهون من أمرها وبين الفرصة للتقدم والرقى . ومعنى هذا المبالغة في وصفها وتضخيم أمرها . فحشر في تقريره عبارة لباتيانوس تناول فيها أصل الثورة وأشار إلى ، أنه يبدو أن الثورة بقيادة من يدعى سبارتاكوس وهو تراقي وآخر غالى يدعى كريكوس ، والاثنان من المجالدين . ولكن كان من المستحيل معرفة عدد المقاتلين المشتركين في الثورة من التقرير . ووصف فارينوس بالتفصيل كيف أحرقت ثلاثة مزارع متباعدة ، وأن العبيد في هذه المزارع كانوا غايه في الولاء ، لسانتهم ، وكيف اضطر العبيد تحت التهديد بالقتل إلى الانضمام إلى العبيد الثائرين ، وأن كل من رفض قتلوه في التو .

(وهز جراكوس رأسه موافقا . فهذه هي الطريقة الوحيدة لحسم الموقف) وحاول اثنان من أصحاب المزارع الاحتماء بكابوا ، لكن المجالدين قطعوا عليهما الطريق وذبحوهما واضطر عبيدهما إلى الانضمام إلى الثورة . وبالإضافة إلى هذا فقد فرت أعداد من عبيد المنطقة المتدمرين وانضموا إلى الثائرين . وأضاف فارينوس قائمة طويلة بالأعمال الوحشية التي زعموا أن العبيد قد اقترفوها . وأرفق بتقريره ثلاثة إقرارات منفصلة جمعت وصدق عليها . وعددت هذه الإقرارات أعمالا وحشية أخرى زعموا أن العبيد قد اقترفوها .

وأنتهى تقريره بأن قرر ، على قدر معرفته ، أن العبيد قد أقاموا
مقر قيادتهم على سفح جبل فيزوف الصخرى الموحش ، وأنه
ينوى أن يتقدم إلى هناك في التو وينفذ مشيئة مجلس الشيوخ فيهم .

تلقى مجلس الشيوخ تقرير فارينيوس وقبله . وتقدم كذلك
أحد الأعضاء بقرار أجازة مجلس الشيوخ يقضى بتقديم ثمانين عبدا من
الفارين المقرر عقابهم بإرسالهم إلى المناجم لإعدامهم كرموز
للعقاب ، كي يجد كل عبيد المدينة في مصير زملائهم نذيرا ودرسا .
وفي نفس اليوم صلبوا هؤلاء التسعين المساكين في ساحة مكسيموس
المستديرة في فترة الاستراحة أثناء السباق ، وتدى العبيد فوق
صلبانهم بينما كان الجواد الأثير أريستونيز وهو مهر آسيوي رائع
قد انطلق دون توقع على شاروس المهرة النوية فتسبب بذلك في
إفلاس قسم كبير من هواة السباق في روما .

لكن أخبار فارينيوس وكتائب حراسة المدينة انقطعت ستة
أيام متوالية . وفي نهاية اليوم السادس وصل تقرير مقتضب يقول
إن العبيد هزموا كتائب حراسة المدينة . كان تقريرا مقتضبا خاليا
من الحقائق التي تدعّمه ، فانتظر مجلس الشيوخ وانتظرت روما
أربعة وعشرين ساعة يتربصون الأنباء مشدودي الأعصاب ،
وتحدث كل إنسان عن ثورة العبيد الجديدة دون أن يعرف أحدهم
عنها ، ومع ذلك فقد ساد الخوف المدينة بأسرها .

وعقد مجلس الشيوخ اجتماعاً سرّياً متكامل الأعضاء .
وتجمعت الجماهير في الخارج وظلت أعدادها تتزايد حتى امتلأ
الميدان وسدت الشوارع المؤدية إليه . وانتشرت الشائعات في كل
مكان لأن مجلس الشيوخ كان يستمع في تلك اللحظة إلى ما أصاب
كتاب حراسة المدينة .

لم يخل من مقاعد المجلس إلا مقعد أو مقعدان . وقرر
جرا كوس ، وهو يتذكر ذلك الاجتماع ، أن مجلس الشيوخ
يكون في أبهى لحظاته في مثل تلك اللحظات — لحظات الأزمة
والمعرفة المريرة . كانت عيون الشيوخ الفارقين في الصمت وفي
عباداتهم الرومانية مليئة بالاهتمام وإن لم يزعجها الخوف . بينما
كانت وجوه من يصغرونهم سنا قاسية غاضبة لكنهم جميعاً كانوا
يحسون إحساساً حاداً بكرامة مجلس الشيوخ الروماني . ومن ثم
استطاع جرا كوس أن يطنى غلة سخريته المريرة في ذلك المحيط .
فهو يعرف هؤلاء الرجال ويعرف أية أساليب رخيصة فاسدة ،
اشترى بها مقاعدهم ، وأية ألعايب سياسية قدرة لعبوها . وهو يعرف
كل واحد منهم ، ويعرف كل أنواع القذارات التي يقيم عليها كل
واحد منهم وكأهم حياته الخاصة . . ومع ذلك فقد كان يحس بهزة
النشوة والكبرياء لوجوده بين صفوفهم .
إلا أنه لم يستطع في تلك اللحظة أن يمضي في تأمل انتصاره

الشخصى بوجوده بينهم لأن انتصاره الشخصى كان جزءاً لا يتجزأ مما كانوا يواجهون . ومن هنا اختاروه ليكون مقررأً للمجلس فاضطر إلى أن يحمل همهم وأن يضع نصره الصغير جانباً . ووقف أمامهم يواجه الجنيدى الرومانى الذى عاد من المعركة ، الجنيدى الرومانى الذى تربي ونشأ فى شوارع وطرقات المدينة ، لكنه يقف الآن ولأول مرة فى حياته أمام مجلس الشيوخ الموقر . كان رجلاً نحيل الوجه أسود العينين وجلاً خائفاً تطرف إحدى عينيه ويلدق لسانه شفثيه فى قاق المرة بعد المرة . وكان ما زال مرتدياً دروعه ، لا يحمل سلاحاً كما هو الحال عندما يمثل المرء أمام مجلس الشيوخ ، حليقاً ، غسل بعض أجزاء جسمه على الأقل وإن كانت تحيط بذراعه ضمادة مشربة بالدم ، وكان فوق ذلك بالغ التعب . وأقدم جراكوس على ما لم يكن ليقدم عليه سواه . طلب قبل أن يبدأ توجيه الأسئلة الشكلية من أحد الأتباع أن يحضر نبذاً ويضعه على منضدة صغيرة إلى جانب الجنيدى ، فقد كان الرجل ضعيفاً ولم يرد جراكوس أن يقمى على ركبتيه مغشياً عليه فذلك لن يساعد فى شيء . وكان الرجل يمسك بين يديه القضيب العاجى الصغير الذى يحمله سفير مجلس الشيوخ ، القضيب الذى كان - إنهم لا يجرؤون على القول - أقوى فى سلطته من جيش غاز ، الذى كان يمثل السلاح والسلطان والقوة المركزة فى مجلس الشيوخ .

بدأ جراكوس بقوله :

— لك أن تعطيني إياه .

لم يفهم الجندي أول الأمر ما يعنيه فأخذ جراكوس القضيب من يديه ووضعهُ فوق المذبح وهو يشعر بحلقه يضيق وبالآلم يعتصر قلبه . فهو يستطيع أن يكن الاحتقار للرجال نظراً لما جبلوا عليه من طبائع لكنه لا يستطيع أن يكن احتقاراً لهذا القضيب الصغير الذي يمثل كل ما تعنيه حياته من كرامة وقوة ومجد ، والذي سلموه لقاريبيوس منذ أيام قليلة ليس إلا .

ثم سأل الجندي :

— اسمك أولاً .

— أراوس بورتوس .

— بورتوس ؟

فأعاد الجندي قوله :

— أراوس بورتوس .

وأحاط أحد أعضاء المجلس أذنه براحة يده وقال :

-- ارفع صوتك ، ألا تستطيع أن ترفع صوتك؟ أنا لا أسمعك .

فقال جراكوس :

— ارفع صوتك . لن يصيبك أذى هنا . أنت هنا في القاعة

المقدسة لمجلس الشيوخ وعليك أن تقول الصدق كاملاً بحق الآلهة

التي لا تموت . ارفع صوتك .

(م — ٤ سبارنا كوس)

فأخى الجندي رأسه موافقاً .

وقال جراكوس :

- خذ بعض النبيذ .

وراح الجندي يدير بصره من وجه إلى وجه ، إلى صفوف من الرجال الأغنياء الذين يرتدون ملابس بيضاء ، وإلى المقاعد الحجرية التي جالسوا عليها كتماثيل منحوتة ثم صب بيد مرتعدة كوباً من النبيذ وظل يصب حتى فاض الكوب وشربها دفعة واحدة ثم لعق شفطيه ثانية .

وسأله جراكوس -

- كم عمرك ؟

- خمس وعشرون عاماً .

- وأين ولدت ؟

- هنا - في المدينة .

- ألك تجارة ؟

فهز الرجل رأسه نفيماً .

- أريد منك الإجابة على كل سؤال . أريد منك أن تجيب

بلا أو نعم على الأقل . وإذا استطعت أن تجيب بمزيد من

التفاصيل فافعل .

فقال الجندي :

- لا ، ليست لي تجارة غير الحرب .
- أية فصيلة كانت فصيلتك ؟
- في الكتيبة الثالثة .
- وكم مضى عليك من الزمن وأنت جندي في الكتيبة الثالثة ؟
- سنتان وشهران .
- وقبل ذلك ؟
- كنت أعيش على الإعانة الحكومية .
- ومن كان قائدك في الكتيبة الثالثة ؟
- سيلفيوس كايوس سالفاريوس .
- ومن كان قائد فصيلتك ؟
- هاريوس جرا كوس ألبو .

- حسن جدا يا أرايوس بورتوس ، أريد منك الآن أن تقص على وعلى أعضاء المجلس الموقرين المجتمعين هنا كل ما حدث بالضبط بعد أن سارت كتيبتك والكتائب الخمس الأخرى جنوبا من كايوا .
وعليك أن تقص على ما حدث بوضوح وبلا استطراد . لن نأخذك على شيء مما ستقول ، ولن يحل بك أي أذى هنا في هذه القاعة المقدسة .
ومع ذلك فلم يكن من اليسير على الجندي أن يتحدث في اتساق .
أما بالنسبة لجرا كوس فقد كانت ذكرى الصور القاسية المشؤمة التي أثارها كلمات الجندي تعود إليه وهو يجلس في شرفة فيلا سالاريا

في ذلك الصباح الرقيق من أيام الربيع بعد الحادث بسنوات ،
أكثر وضوحاً من الكلمات نفسها ، لم يكن الجيش الذي تقدم
جنوباً من كابواتحت قيادة ثارنيوس جلابروس كثير البهجة أو الرضاء .
فقد استحال الجو حاراً في غير موسمها فقااست كتائب حراسة المدينة
الكثير نظراً لعدم اعتيادها على السير المتواصل . وعلى الرغم من
أن أحمال الجندي كانت تقل عشرين رطلاً عما يحمله جندي الفيالق
أثناء السير ، فقد ضاق الجنود بثقل الخوذة والدروع والترس
والحرية والسيف . وتقرحت أجسادهم في الأماكن التي كانت
أطراف المعدن الساخن تحك فيها لحم أجسادهم ، وتبين لهم أن
أحذية الاستعراضات الرقيقة الجميلة التي كانوا يتهنون بها وهم
يخطرون جيئة وذهاباً في ساحة مكسيموس المستديرة أقل نفعاً في
السير على الطريق وفي ميدان القتال . وأغرقتهم شآبيب المطر التي
هطلت بعد الظهر ، فما إن جاء المساء حتى كانت المرارة والاكنتاب
قد أخذوا بخناقهم .

كان في استطاعة جراكوش أن يتصورهم أحسن التصور ،
الطابور الطويل من الجنود ، وقد خرجوا عن الطريق الأيوسي
وراحوا يمشون في تشاقل فيما تخلفه العربات من دروب قدرة
والريش المبلل يتدلى من خوذاتهم النحاسية ، وقد أسكت الشعور
بالتعب كل شيء . فيهم حتى الرغبة في الشكوى . كان ذلك الوقت
تقريباً هو الذي أمسكوا فيه بأربعة من عبيد الحقول وقتلوهم .

ثلاثة رجال وامرأة .

فقاطعه جراكوس قائلا :

- ولماذا قتلتموهم ؟

- كنا نحس أن كل عبد في ذلك الجزء من البلد ضدنا .

- لو أنهم كانوا ضدكم ، لماذا كانوا ينزلون من سفوح الجبال

إلى الطريق ليرقبوا الطواير وهي تسير ؟

- لا أدري . كانت الكتيبة الثانية هي التي فعلت ذلك . خرجوا

من الصفوف وأمسكوا بالمرأة . وحاول الرجال حمايتها فطعنوهم

بالحراب . لم يستغرق ذلك إلا دقيقة ثم مات الرجال . وعندما

وصلت إلى هناك -

فسأله جراكوس قائلا

- أتعني أن فصيلتك خرجت من الصفوف هي الأخرى ؟

- أجل ياسيدي ، الجيش بأسره . تراحمنا حولها - كل من

استطاع منا الاقتراب مما كان يدور .

فقاطعه جراكوس :

- لا حاجة بك إلى الخوض في تفاصيل ذلك . هل تدخل

ضباطكم في الموضوع ؟

- كلا ياسيدي .

- أتعني أنهم سمحوا بالاستمرار في ذلك دون تدخل من جانبهم ؟
فتوقف الجندي لحظة دون أن يجيب .

- أريدك أن تصدق في إجابتك ولا أريدك أن تخاف من
الصدق في الإجابة .

- لم يتدخل الضباط .

- وكيف قتلت المرأة ؟

فاستجاب الجندي لدعوته في صوت خفيض وقال :
- ماتت بما كانوا يفعلونه بها .

عند ذلك اضطروا إلى مطالبتته من جديد بأن يرفع من صوته
فقد كاد صوته يتلاشى تماماً .

وقصر عليهم كيف عسكروا في تلك الليلة . لم تنصب كتيبتان
حتى خيامهما فقد كانت الليلة دافئة ونام الجنود في حقل في العراق .
هنا قوطع حديث الجندي :

- هل حاول قائدكم أن يقيم معسكراً محصناً ؟ هل تعرف ما إذا
كان قد فعل أم لم يفعل ؟

وكان مما يفخر به الجيش الروماني أن الفيلق لا يعسكر في أي
مكان ولو لليلة واحدة دون أن يقيم معسكراً محصناً محاطاً بسياج من
الأعمدة الخشبية ، أو بحائط يقام ، وبخندق وبأوتاد ، ويقام كقلعة
صغيرة أو مدينة .

- أنا أعرف ما قاله الرجال .

- قل لنا ذلك .

- قالوا إن فارينوس جلابروس كان يريد ذلك لكن قادة الفصائل قاوموا رغبته . وقال الرجال إنه حتى لو أنهم وافقوا كلهم فلم يكن معنا مهندسون وأن الحملة بأسرها لم تصمم على أساس فهم الفهم أو المعقولة . وقالوا - أرجو المجلس الموقر .

- قل لنا ما قالوه دون خوف .

- أجل ، قالوا أن الطريقة التي نظمت بها الحملة خلت من المعنى والإدراك . لكن الضباط تجادلوا حول أن حفنة من العبيد لم تكن لتمثل أي خطر عليهم . وكان الليل قد بدأ ينزل فعلا وكانت حجة الضباط ، كما سمعتها ، أنه إذا كان فارينوس جلابروس يريد معسكرا محصنا ، فلماذا جعلنا نواصل السير حتى الفسق؟ وكان الجنود بدورهم يرددون نفس الكلام . وكان ذلك أسوأ جزء قطعناه من الرحلة كلها . فقد مشينا أولا على الطرق المتربة واختنقنا بالتراب إلى حد أننا لم نستطع التنفس ، ثم مشينا بعد ذلك تحت المطر المنهمر . ولم يكن ذلك إيضاح الضباط في شيء ، كما قال الجنود ، إذ كانوا يركبون جيادهم ، أما نحن فقد كنا مضطرين إلى المشي . لكن الجدل كان حول أنه ما دامت العربات معنا ، وتحمل عنا متاعنا ، وما دامت العربات موجودة ، فيجب أن نقطع أكبر مسافة يمكننا .

- وأين كنتم حينذاك ؟

- ملاصقين للجبل .

نعم كان استرجاع الحادث في الصور التي أثارها حديث الجندي خيراً منه في الكلمات التافهة التي أدلى بها الجندي الخائف عديم الخيال الذي كان يدلى بشهادته . وكان بعض هذه الصور من الوضوح في ذهن جراكوس إلى حد أنه يكاد يعتقد أنه رآها مرأى العين . الطريق القذر وهو يضيق حتى يصبح مجرد درب للعربات ، والحقول الجميلة والمراعى في الضيعات وهي تنتهى لتبدأ الغابات المتشابكة، وشظايا الصخور النارية المقفرة المحيطة بفوهة البركان، ويسمو فوق كل هذا جبل فيزوف في عظمته المتأملة . وانتظمت الكتاب الست على طول ميل من الطريق . وراحت عربات المتاع تتمايل مترنحة في الأحاديث والرجال ساخطون متعبون . وعند ذلك لاحت أمامهم حافة كبيرة من الصخر ومن تحتها حقل صغير منبسط يجرى فيه جدول من الماء وتكسوه الشقائق الصفراء والأقاح والحشيش الناعم والليل في طريقه إلى النزول .

هناك أقاموا معسكرهم ونزل فارينوس على رأى الضباط فيما يختص بمسألة التخصيصات . وذلك أيضاً كان جراكوس يستطيع أن يتصوره . سيقول قادة الفصائل إنهم كانوا يقودون أكثر من ثلاثة آلاف من الجنود الرومانيين الثقيلين بالأسلحة . ولم يكن

هناك أى احتمال للهجوم . كما لم يكن هناك أى خطر من الهجوم ، فقد كان عدد المجالدين ، حتى عند بداية الثورة ، مائتين أو حول ذلك ليس إلا ، وقد قتل الكثير من هؤلاء . وكان الرجال شديدي التعب فرقد بعضهم على الحشائش وسرعان ما ناموا . ونصبت فصائل قليلة الخيام وحاولت أن تشق الطرق بين خيام الفصائل بطريقة منظمة . وأشعلت معظم الفصائل النيران للطهى ، إلا أن بعضها استغنى حتى عن ذلك نظراً لوجود كميات كبيرة من الخبز في عربات الأمتعة . هكذا كانت صورة المعسكر الذى أقيم في ظل الجبل . ونصب قاربنوس خيمته في وسط المعسكر تماماً . وهناك عقد لواءه والبيرق الذى يمثل مجلس الشيوخ . وكان سكان كاپوا قد أعدوا لهم سلالاً كبيرة من أطايب الطعام الجميلة الطهى لا بد أنه جلس مع ضباطه العظام ليأكلوها - ولعله كان قد استراح إذ لم يعد مضطراً إلى القيام بعملية بناء الاستحكامات الشاقة . وبعد فليست هذه بأسوأ حملة في العالم فهى إن كان فيها تشریف له فمن المحتمل ألا يكون فيها إلا القليل من المجد ، وما هى إلا مسيرة أيام قليلة من المدينة الكبيرة .

وهكذا راح جراكوس يتصور ويسترجع الصور التى كونت البداية فى ذاكرته ، معتمداً فى ذلك على بصيرته الباطنة التى ترفعه عن مستوى الحيوان وتفصل بينه وبين الحيوان . فالذاكرة متعة

للإبشيرية ومصدر أنى لها . جلس جرا كوس بمدد الأطراف في الشمس ينظر إلى كوب ماء الصباح وهو ممسك به في يده ، ويصغى إلى الصدى البعيد لجندى تعس عاد يحمل في يده القضيب العاجى الذى يحمله السفير وجاءته الصور . كيف يكون حال من يترصد بهم الموت بعد ساعات قليلة وهم لا يعرفون ؟ هل سمع قارينيوس جلابروس باسم سبارتا كوس قط ؟ ربما لا .

وقال الجندى لأعضاء المجلس ذوى الوجوه المتحجرة :

— أذكر كيف نزل الليل وسطعت كل النجوم فى السماء .

الجمال البسيط فى حديث جندى أحق . نزل الليل ولا بد أن قارينيوس جلابروس جلس هو وضباطه فى فسطاطه الكبير يشربون النبيذ ويأكلون بتأن اللحم من صغار الحمام المطهو بالعسل . ولا بد أن حديثاً شائفاً قد دار فى تلك الليلة ، حديثاً بارعاً ، فتلك مجموعة من السادة الشبان من أكبر المجتمعات التى شهدوا العالم تحضراً . علام تراهم قد تحدثوا ؟ حاول جرا كوس أن يتذكر اليوم ، وبعد سنوات أربع ، ما كان شائعاً فى ذلك الوقت - فى المسرح ، فى ميادين السباق ، وفى ساحات القتال . ألم يكن ذلك بعد الإخراج الجديد لمسرحية با كوفوريوس « اللعب بالسلاح ، مباشرة ؟ ألم يعنى فلاقيوس جاليس الدور الرئيسى كما لم يعنّه أحد من قبل ؟ (أم هل كان ذلك مجرد تخيل كما هى العادة ، أن يقال إن المعنى أو الممثل

قام بغناء أو تمثيل الدور كما لم يغنه أو يمثله أحد من قبل ؟) ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون ذلك صحيحاً . ولعل الشباب من كتائب حراسة المدينة قد رفعوا عقيرتهم وهم يشربون النبيذ ويغنون .
« هؤلاء يجب أن يخافوا ضياع الروح المصونة مثلما يجب أن أخاف .. »

ويعضون في الغناء وأصواتهم مسموعة في أنحاء المعسكر . من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث فالذاكرة أمر خيال . لا بد أن التعب قد ساد كل أنحاء ذلك المعسكر . فرقد رجال كتائب حراسة المدينة الذين لم ينصبوا خياما على ظهورهم يمضغون العيش وينظرون إلى النجوم . وهكذا غشيم النوم ، غشى النوم الرقيق جنود روما البالغ عددهم ثلاثة آلاف وعدة مئات الذين تقدموا جنوبا إلى جبل فيزوف ليعلموا العبيد أن العبيد يجب ألا يرفعوا أيديهم ضد ساداتهم .
كان جراكوس مقرر المجلس ومهمته أن يوجه الأسئلة ، وكان يرين على قاعة مجلس الشيوخ في قترات الصمت التي تخلت إجابات الجندي ، صمت يكاد المرء أن يسمع لفرطه أجنحة الذبابة وهي تحتك بالهواء .

وسأله جراكوس :

— وهل تمت أنت ؟

فأجابه الجندي الوحيد المذعور الذي عاد ليبدى بشهادته :

- أنا نمت .

- وما الذى أيقظك ؟

وهنا جاهد الجندى من أجل الكلام وأضحى وجهه شديد
البياض . وظن جراكوس أنه سيقع مغشياً عليه لكنه لم يغم عليه .
وهنا أصبح تقريره دقيقاً واضحاً ولكنه خال من العاطفة . وهذا
ما قال إنه حدث كما رآه .

- نمت . ثم استيقظت لأنه كان هناك إنسان يصرخ . ظننت أن
رجلاً واحداً على الأقل هو الذى كان يصرخ ، لكننى أدركت
عندما استيقظت أن الهواء كان مليئاً بصراخ كثير من الرجال .
وكان الهواء مليئاً به . استيقظت واستدرت فى الحال لانى أنام على
بطنى ولهذا استدرت . وكان ينام إلى جانبي كاليوس الذى لا يحمل
إلا اسماً واحداً لأنه ينيم من أبناء الشوارع ، لكنه كان أقرب
وأصدق صديق لى . وكان ذراعى الأيمن ولهذا كنا ننام جنباً إلى
جنب . وعندما استدرت غاص رسغى الأيمن فى شيء مبلل ساخن
وناعم الملمس وعندما نظرت تبين لى أنه عنق كاليوس ، لكن
العنق كان مقطوعاً قطعاً كاملاً . وظلت تلك الصرخة تتردد طيلة
الوقت . ثم وجدت نفسى أجلس فى بركة من الدماء . ولم أدر هل
كانت تلك الدماء دماءى أم دماء غيرى ، لكن جثث الموتى كانت
تحيط بى من كل جانب فى ضوء القمر حيث نام أصحابها . وكان

المعسكر بأسره، أينما بعبيد مسلحين بمدى في حدة الموسيقى، والمدى تعلو وتهبط مرسله وميضها في ضوء القمر . وبهذه الطريقة قتلونا ، قتلوا نصفنا وهم نيام . وعندما كان رجل يقفز واقفا على قدميه كانوا يقتلونه هو الآخر . وتجمع قليل من الجنود هنا وهناك في جماعات صغيرة لكنهم ما كانوا ليقاتلوا طويلا . كان ذلك أبشع شيء رأيته في حياتي إلا أن العبيد لم يتوقفوا عن القتل لحظة واحدة . ثم فقدت صوابي وبدأت أصرخ أنا الآخر . ولا أجد خجلا في التصريح بذلك . وجردت سيفي واندفعت داخل المعسكر وأهويت بسيفي على عبد وقتلته فيما أعتقد ، لكنني عندما وصلت إلى طرف المرج واجهت صفا حديديا من الحراب كان يحيط بالمعسكر من كل جوانبه . وكانت غالبية حملة الحراب من النساء . لكنهن لم يكن نساء مثل من رأيت أو حللت بهن ، إنما كن أشياء رهيبة مترحشة نتطاير شعورهن في ريح الليل وأفواههن مفتوحة تصدر صيحة كراهية رهيبة . كان هذا جزءاً من الصراخ . واندفع من جانبي جندي وألقى بنفسه على الحراب فانغrust فيه لأنه لم يكن يظن أن النساء سيطعننه بالحراب ، لكنهن طعننه . ولم يهرب إنسان من ذلك المكان . وعندما كان الجرحي يزحفون قادمين كن يفرسن الحراب فيهم هم الآخرين . جريت حتى وصلت إلى الصف ففرسن حربة في ذراعي فانتزعنها وعدت أجرى إلى المعسكر ثم سقطت في الدماء ورقدت فيها . رقدت فيها وذلك الصراخ يملاً أذني .

ولا أدري كم من الوقت رقدت هناك . لكن ذلك لم يبد لي طويلا
جدا . قلت لنفسي انهض وقاتل ومِت ، لكنني انتظرت . ثم تناقص
الصراخ وأمسكت بي أياد وأوقفنني على قدمي ، وفكرت في أن
أضربهم بسيفي ، لكنهم أوقعوا به من يدي . ولم تكن يدي لتقوى
على ذلك نتيجة للألم الذي سببه جرح الحربة . أمسك بي العبيد
وارتفع سكين ليقطع عنقي فأدركت عند ذلك أن كل شيء قد انتهى
وأني سأموت أنا الآخر . لكن شخصاً صاح قائلاً . انتظر . فانتظر
السكين . انتظر على بعد بوصة من عنقي . ثم خطا عبد قادمًا وكان
يحمل بدوره سكيناً تراقباً في يده وقال لهم . انتظروا . أظنه الوحيد
الباقي . فوقفوا هناك وانتظروا . وتعلقت حياتي منتظرة . ثم جاء
عبد أحمر الشعر وراحا يتحدثان وهما يذرعان المكان جثة وذهابا .
كنت أنا الوحيد الباقي على قيد الحياة ولذلك لم يقتلوني . كنت أنا
الوحيد الباقي على قيد الحياة أما الباقي فقد ماتوا كلهم ، وأخذوني
عبر المعسكر وكانت الكتائب كلها قتلى . ماتت غالبيتهم حيث كانوا
ينامون . لم يستيقظوا قط . أخذوني إلى فسطاط تارينيوس
جلايروس سفير المجلس ، لكن السفير كان ميتا . كان يرقد على
سريره ميتا . وكان في الفسطاط بعض من ضباط الكتائب وفيها
قتلوا . كلهم موتى . ثم ضمدوا لي جرح ذراعي وتركوني هناك في
حراسة بعض العبيد . في ذلك الوقت استحالت السماء مادية اللون
وبدأ الفجر يقترب ، لكن الكتائب كانت كلها قتلى .

قال الجندي هذا دون انفعال وفي أسلوب روائي مباشر واقعي ،
لكن عينه ظلت تطرف طيلة الوقت ولم يتطلع قط إلى صفوف
أعضاء مجلس الشيوخ الذين جلسوا وقد تحجرت منهم الوجوه .

— وسأله جراكوس قائلاً :

— وكيف عرفت أن كلهم قد ماتوا ؟

حجزتني في الفسطاط حتى طلع الفجر ، وكانت جوانب الفسطاط
مطوية مرفوعة فاستطعت أن أرى كافة أنحاء ساحة استراحة الجنود .
كان الصراخ قد توقف عند ذلك لكنني كنت ما أزال أسمعه يتردد
داخل رأسي . كان في استطاعتي أن أتطلع فيما حولى وأينما نظرت
كان الموتى يرقدون على الأرض ، وكانت رائحة الدم والموت تملأ
الجو . وكانت غالبية النساء اللاتي كن يكن دائرة الحراب قد
اختفين عند ذلك ، ذهبن إلى مكان ما . لا أدري أين ذهبن لكنني
استطعت أن أميز رائحة الشواء من خلال رائحة الدم . لعل النساء
كن يطهين اللحم لطعام الإفطار . وجعلني التفكير في أن من الناس
من يستطيع أن يأكل حينذاك أشعر بالغبثيان فتقيأت . وجرني
العبيد إلى خارج الفسطاط حتى فرغت من القيء . كانت الدنيا
تزداد نورا عند ذلك فشاهدت جماعات من العبيد تحترق المعسكر ،
كانوا ينزعون عن الموتى ما يحملون . ونشروا خيامنا على الأرض
هنا وهناك . واستطعت أن أرى تلك المساحات البيضاء تنتشر

على الأرض في كل أنحاء المكان . أخذوا كل ما كان الموتى يرتدون ،
الدروع والملابس والأحذية وكوموها في الخيام المنشورة على
الأرض . وغسلوا السيوف والخرايا والدروع في مياه الجدول ،
وكان الجدول يجري قريبا من الفسقاط فاستحالت مياهه إلى لون
الصدأ من مجرد غسل الأسلحة الملوثة بالدماء والدروع في مياهه .
وأخذوا أوعية الشحم التي كنا نحملها معنا وراحوا يدهنونها بالشحم
بعد أن جففوها . وكانت إحدى الخيام منشورة على بعد خطوات
من الفسقاط ، على هذه الخيمة المنشورة رصصوا السيوف ، آلاف
من السيوف .

وسأله جراكوس :

— كم كان عدد العبيد ؟

— سبعمائة ، ثمانمائة - ربما ألف ، لست أدري ، كانوا يعملون
في جماعات من عشرات . وكانوا يعملون بهمة كبيرة . وأسرج
بعضهم عرباتنا التي كانت تحمل الأمتعة وحملوها بما انتزعوه عن
جثث الموتى وساقوها أمامهم . وبينما هم يعملون عاد بعض النسوة
يحملن سلالا من اللحم المشوي فكانت الجماعات تتوقف عن العمل
واحدة فواحدة لتأكل . وأكوا أنصبتنا من الخبز كذلك .

— وماذا فعلوا بالموتى ؟

— لا شيء ، تركوهم حيث كانوا يرتدون ، وكانوا يتجولون في

أنحاء المكان كما لو كان الموتى غير موجودين هناك على الإطلاق بعد أن فرغوا من نزع كل شيء عنهم . وكان الموتى في كل مكان . كانوا يغطون الأرض ، وكانت الأرض مشربة بالدماء . وكانت الشمس قد طلعت حينذاك فكان ذلك أسوأ ما شاهدت في حياتي . استطعت عند ذاك أن أرى جماعة من العبيد تقف على أحد جوانب الحقل ترقب ما يدور ، كانت الجماعة مكونة من ستة أحدهم أسود ، إفريقي ، كانوا من المجالدين .

— وكيف عرفت ؟

— لأنى استطعت أن أتبين عندما جاءوا إلى الفسطاط ، حيث كنت ، إنهم مجالدون . فقد كانت رءوسهم مخلوقة بالموسى وكانت آثار الجروح تنتشر في كل مكان من أجسادهم . وليس من العسير أن تتعرف على المجالد ، وكانت أذن واحد منهم مقطوعة ولآخر شعر أحمر . لكن قائد الجماعة كان تراقيا له أنف مكسور وعينان سوداوان تنظران إليك دون أن تتحركا أو تطرفا .

عند ذلك طرأ تغيير على أعضاء مجلس الشيوخ ، تغيير يكاد يكون غير محسوس لكنه موجود مع ذلك . فقد أخذوا يصغون بطريقة جديدة ، كانوا يصغون في كراهية وتوتر وعنف زائد . جراكوس يذكر تلك اللحظة جيدا فقد كانت هي اللحظة التي برز فيها سبارتا كوس إلى الوجود ، خرج إلى الوجود من لا مكان (م — ه سبارتا كوس)

لهز العالم بأسره . لغيره من الرجال جذور وماض وبداية ومكان وأرض وبلد — أما سبارتا كوس فلم يكن له شيء من ذلك . فقد ولد على شفتى جندي عاش بعد المعركة ودبر سبارتا كوس بقائه لهذا الغرض بالذات — أن يعود إلى مجلس الشيوخ ليصفه لهم ويعدد صفاته ، إنه ليس عملاقا وليس وحشا ، وليس رهيبا إنما مجرد عبد ، لكن الجندي كان قد شاهد شيئا يحسن أن تذكره بالتفصيل .

— وذكرني وجهه بالأغنام . كان يرتدي مئزرا وحزاما ثقيلان من النحاس اللامع وحذاء طويل العنق . لكنه لم يكن يرتدي دروعا أو خوذة . وكان يحمل في حزامه سكينًا كانت هي كل ما يحمل من سلاح . وكانت الدماء تتناثر فوق مئزره . كان وجهه من النوع الذي لا تنساه ، وحملي مظهره على الخوف منه بينما لم أشعر بالخوف من الآخرين ، لكنني خفت منه .

وكان من المحتمل أن يحدثهم الجندي عن مشاهدته لذلك الوجه في أحلامه وقيامه من نومه مغطى بالعرق البارد ، لمشاهدته ذلك الوجه المسطح الملوّح ذا الأنف المكسور والأعين السوداء ، لكن لم تكن هذه التفاصيل لمعلوماته والتي تقدم لمجلس الشيوخ فلم يكن المجلس ليهم بأحلامه .

— وكيف عرفت أنه تراقي ؟

— ميزته من لهجته . فقد كانت لغته اللاتينية رديئة ، وقد سمعت
التراقيين يتكلمون . وكان واحد من الآخرين تراقيا — وربما كان
الباقون من بلاد الغال . ونظروا إلى مجرد نظرة ، مجرد نظرة سريعة
جعلتني أشعر أنني ميت مع الآخرين . نظروا إلى نظرة سريعة ومروا
من أمامي إلى الجزء الآخر من الفسطاط . كانت جثث الموتى قد
أخرجت عند ذلك من الفسطاط وألقيت في الخارج مع بقية جثث
الجنود ، لكنهم كانوا قبل ذلك قد نزعوا كل شيء عن فارينديوس
جلا بروس وعروه وكوهوا كل دروعه وكل ما كان له على أريكته
وكانت شارة سفارته على الأريكة كذلك . وعاد العبيد وتجمعوا
حول الأريكة يتطلعون إلى الدروع ومقتنيات القائد . والتقطوا
السيف وخصوه ومروره فيما بينهم . كان له مقبض من العاج تغطيه
الصورة المحفورة على العاج . تطلعوا إليه ثم أقروا به على الأريكة
مرة ثانية . ثم فحصوا شارة السفارة . ثم استدار لي الرجل ذو الأنف
المكسور — واسمه سبارتا كوس — ورفع شارة السفارة في يده
وسألني قائلا . . وأيا الروماني أتعرف ما هذه ؟ فأجبتهم قائلا .

— إنها سلاح مجاس الشيوخ الموقر .

لكنهم لم يدركوا ما أعنيه . فاضطرت إلى أن أفسر لهم .
وجلس سبارتا كوس والغالي ذو الشعر الأحمر على الأريكة بينما
ظل الباقون وقوفا . ووضع سبارتا كوس ذقنه بين يديه ومرقبه

على ركبتيه وظل مشيتا عينيه على . أحسست ما يحسه المرء عندما
ينظر إليه ثعبان . وعندما فرغت من كلامي لم يقولوا شيئاً وظل
سبارتا كوس على تحديقته ؟ . واستطعت أن أشعر بالعرق يتدفق
فوق كل أنحاء جلدي . ظننت أنهم سيقتلوني . ثم عرفني باسمه . قال :
اسمى سبارتا كوس . اذكر اسمي أيها الروماني .

ثم أخذوا يحدقون ؟ من جديد .

ثم قال سبارتا كوس .

لماذا قتلتم العبيد الثلاثة بالأمس يا روماني ؟ لم يؤذكم العبيد .
لقد هبطوا السفح ليشاهدوا الجنود وهي تمر . وهل كل نساء روما
من العفة إلى حد أن يضطر فيلق كامل إلى اغتصاب أمة واحدة
مسكينته . لماذا فعلتم ذلك يا روماني ؟

حاولت أن أروي له ما حدث . قلت له إن الكتيبة الثانية هي
التي اغتصبتها وقتلت العبيد . وقلت له إنني كنت في الكتيبة الثالثة
وإنه لم يكن لي يد في الأمر وإني لم أغتصب المرأة . ولا أدري
كيف عرفوا بذلك الأمر لأنه لم يبدو أنه كان هناك إنسان غيرنا
عندما قتلوا العبيد الثلاثة . لكنهم كانوا يعرفون كل شيء . عملناه .
عرفوا متى وصلنا إلى كاپوا وعرفوا متى بارحناها . كان كل ذلك
واضحاً في عينيه السوداءوين كعيني الثعبان اللتين لا تطرفان أبداً .
كان كل ذلك واضحاً في صوته . ولم يكن يرفع صوته أبداً فقد

تحدث إلى كما يتحدث المرء إلى طفل لكنه لم يكن يخدعني بالحديث إلى بتلك الطريقة . كان قاتلا . كانت عيناه تنطقان بذلك . كانت عيونهم كلهم تنطق بذلك ، إنهم كلهم قتلة . أنا أعرف مجالدين من هذا النوع . فالمجالدون يصبحون قتلة . ولا يستطيع أحد غير المجالدين أن يقتل بتلك الطريقة التي قتلوا بها في تلك الليلة . أنا أعرف مجالدين هم . . .

فقاطعه جرا كوس . فقد كان الجندي واقفا تحت سحر حديثه الشخصي كرجل في غيبوبة . قال له جرا كوس في قليل من الحدة - لا يمنا ما تعرفه يا جندي . إنما يمنا ما دار بينك وبين العبيد . فبدأ الجندي يقول : حدث هذا . . .

- ثم توقف وعاد إلى يقظته وراح يتطلع إلى وجوه أعضاء مجلس شيوخ روما العظيمة وجها بوجه . ثم ارتعد وقال : - ثم انتظرت أن يعرفوني بما ينوونه بالنسبة لي . فقد جلس سبارتا كوس هناك وهو ممسك بشارة السفارة بين يديه وراح يمرر أصابعه عليها بطولها ثم دفعها إلى فجأة فلم أدرك أول الأمر ما يعنيه أو ما يريد . ثم قال :

« خذها يا جندي . خذها يا روماني ، خذها ،

فأخذتها . وقال :

« أنت الآن سفير مجلس الشيوخ الموقر ،

ولم يكن يبدو عليه الغضب . ولم يرفع صوته قط . إنما كان
يقرر مجرد حقيقة — أقصد أنها كانت حقيقة بالنسبة له . كان
ذلك ما ينبغيه ولم يكن في استطاعتي أن أعمل شيئاً وإلا لآثرت
الموت على أن أمس القضيبي المقدس . ما كنت لأمسه فأنا روماني ،
أنا مواطن —

فقال جراكوس :

— لن تعاقب على ذلك . أكمل

— قال سبارتا كوس مرة ثانية :

« أنت الآن سفير مجلس الشيوخ الموقر . وللمجلس الموقر

ذراع طويل وكل ما تبقى على طرفه الآن هو أنت ،

فأخذت القضيبي وأمسكت به وظل هو جالساً هناك وعيناه

مثبتتان على ثم سألتني قائلاً :

« هل أنت مواطن حر ياروماني ؟ »

فأجبتُه بأني مواطن ، فهز رأسه وابتسم ابتسامة واهنة ثم قال :

« أنت الآن سفير ، سأحملك رسالة . أحملها إلى مجلس الشيوخ

الموقر — أحملها إليهم كما أمليها عليك كلمة كلمة . »

ثم توقف الجندي عن الكلام وانتظر مجلس الشيوخ وانتظر

جراكوس كذلك . لم يرد أن يطلب منه رسالة عبد ، ومع ذلك

فلا بد للرسالة أن تقال . لقد خرج سبارتا كوس من لا مكان —

لكنه الآن يقف وسط قاعة مجلس الشيوخ . وراه جراكوس
عندذاك كما راه مرات عديدة فيما بعد حتى وإن كان لم يرسبارتا كوس
بلحمه ودمه حياً قط .

وفي النهاية أمر جراكوس الجندي أن يتكلم .

— لا أقدر —

— مجلس الشيوخ يأمرك أن تتكلم

— كانت هذه كلمات عبد . ليحف لسانى قبل -

فقال جراكوس :

— كفاك . قل لنا ما قاله لك هذا العبد لتحملة إلينا

فنطق الجندي بكلمات سبارتا كوس . كان هذا ما قاله له

سبارتا كوس بقدر ما يستطيع جراكوس أن يتذكر بعد كل هذه السنين .

وكون جراكوس لنفسه ، وهو يتذكر ، صورة لما كان لا بد أن

يكون عليه الفسطاط ، الفسطاط الكبير لقائد روماني بما فيه من

شرايط زاهية زرقاء وصفراء وهو مقام وسط ذلك الحقل المغطى

بجثث القتلى العارية ، والعبد سبارتا كوس يجلس على أريكة

القائد وأركان حربه من المجالدين يتجمعون من حوله ويقف

أمامه الجندي الروماني الجريح المذعور ، الوحيد الباقي على قيد

الحياة وقد أمسك به عبدان ، وهو يمسك بدوره القضيب الرقيق

الذي يمثل القوة ، شارة السفارة ، درع مجلس الشيوخ .
- قال سبارتا كوس

عد إلى مجلس الشيوخ واعطهم القضيب العاجي . لقد
اخترتك سفيرا . عد وارو لهم ما شاهدته هنا . قل لهم إنهم
أرسلوا كتابتهم ضدنا وإننا قد حططنا كتابتهم . قل لهم إننا عبيد -
ما يسمونهم الآلة الناطقة . الآلة ذات الصوت . ارو لهم ما نقوله
أصواتنا ، نحن نقول إن العالم قد ضاق بوجودهم ، ضاق بمجلس
شيوخكم العفن وبروماكم العفنة . العالم قد ضاق بالثروة والفخفة
التي اعتصرتموها من دمائنا وعظامنا . العالم قد سم أنشودة
السوط فهي الأنشودة الوحيدة التي يعرفها الرومان النبلاء لكننا
لا نرغب في سماع تلك الأنشودة بعد الآن . كان الرجال
سواء في البداية وعاشوا في سلام وتقاسموا فيما بينهم ما كانوا
يملكون ، أما اليوم فيوجد نوعان من الرجال : السيد والعبد .
لكن أعدادنا أكثر من أعدادكم ، أكثر بكثير . ونحن أقوى
منكم وأفضل منكم . كل ما هو طيب وخير في البشر موجود
فينا . فنحن ندلل نساءنا ونقف إلى جانبهن ونحارب معهن جنبا
إلى جنب . أما أنتم فتجعلون من نساءكم عاهرات ومن نساءنا
ماشية . نحن نبكي عندما تنزع أطفالنا من أحضاننا ونحني أطفالنا
بين الأغنام لنستطيع أن نحفظ بهم وقتنا أطول قليلا . لكنكم
تربون أطفالكم كما لو كنتم تربون ماشية . أنتم تنجبون الأطفال من
نساءنا وتبيعونهم في سوق العبيد لمن يدفع أعلى ثمن ، وتجعلون من

الرجال كلابا وتبعثون بهم إلى ساحات القتال ليمزقوا أنفسهم إربا
كَمَا نَبْتَهجون . وبينما نرقبنا نساؤكم الرومانيات النبيلات والواحد منا
يقتل الآخر ، يدلن الكلاب في حجورهن ويطعمنها اللقمة السائغة
الغالية . أي جماعة فاسدة أنتم وإلى أي فوضى قدرة قد أحلتم الحياة .
جعلتم من كل ما يحلم به البشر ومن كل ما تنتجه أيدي البشر ومن عرق
جباه البشر مادة للسخرية . يعيش مواطنوكم على الصدقة ويمضون
أيامهم في ميادين السياق وساحات القتال . قلبتم الحياة الإنسانية سخرية
وسلبتموها كل قيمتها . أنتم تقتلون حبا في القتل ومتعتكم الرقيقة
هي رؤية الدم يتدفق . تزجرون بالأطفال الصغار في مناجمكم
وترهقونهم بالعمل حتى يموتوا في أشهر قليلة . وشيدتم عظمكم
على سرقة العالم بأسره . حسن . لقد انتهى هذا . قل لمجلس
شيوخكم إن كل هذا قد انتهى . هذا هو صوت الآلة . قل لمجلس
شيوخكم أن يبعث بقواته لقتالنا وسندم هذه الجيوش كما دمرنا
هذا الجيش ، وسنسلح أنفسنا بأسلحة الجيوش التي ستبعثون بها
إلينا . سيسمع العالم بأسره صوت الآلة . وسنصبح بمبيد العالم
أن هبوا وانزعوا عنكم أغلالكم . سنقدم في كل إيطاليا . وأينما
ذهبنا سينضم إلينا العبيد . وفي يوم من الأيام سنهاجم مدينتكم
الخالدة ولن تبقى خالدة حينذاك . قل هذا لمجلس شيوخكم .
قل لهم إننا سنخطرهم بموعد قدومنا ، وعند ذلك سنحطم
جدران روما . ثم سنذهب إلى البيت الذي يجتمع فيه مجلس شيوخكم

وسننزعهم من مقاعدهم العالية صاحبة السلطان . وسننزع عنهم
ثيابهم كي يقفوا عراة وهم يحاكون كما حوكننا نحن على الدوام .
لكننا سنتحرى العدالة في محاكمتهم وسننفذ فيهم العدالة كاملة .
سيحاكون على كل جريمة ارتكبوها ، وسيؤدون عنها الحساب كاملا .
قل لهم هذا حتى يتاح لهم الوقت ليتأهبوا وليدرسوا أنفسهم ،
فستدعوهم لأداء الشهادة . ونحن نستمتع بذاكرة ليست سريعة
النسيان . وعندما تتحقق العدالة سنقيم مدنا أفضل ، مدنا نظيفة
جميلة بلا جدران - يعيش فيها البشر معا في سلام وسعادة . هذه
كل رسالتى إلى مجلس الشيوخ . احملها إليهم وقل لهم إنها من عبد
يدعى سبارتا كوس .

هكذا نقل الجندي الرسالة ، أو هكذا كانت بالتقريب فقد
حدث ذلك من زمن بعيد ، كما تذكر جراكوس ، وهكذا سمعها
أعضاء مجلس الشيوخ ووجوههم كالحجر . لكن ذلك حدث منذ
زمن بعيد ، حدث ذلك منذ زمن بعيد جدا . وقد نسى الجميع
القصة بالفعل ولم تدون كلمات سبارتا كوس ولم يعد لها وجود
إلا في ذاكرة عدد قليل من الرجال . إذ استبعدت هذه الكلمات
حتى من مضابط مجلس الشيوخ . وكان ذلك حقا . طبعاً كان ذلك
حقا - تماما كما كان حقا تحطيم تلك القنايل التي أقامها العبيد وسحقها
إلى أحجار صغيرة . كراسوس يفهم ذلك حتى على الرغم من أن
كراسوس كان أهبل إلى الحق . فالمرء لا بد أن يكون أحق بعض

الشيء ليصبح قائدا كبيرا . اللهم إلا إذا كان هذا المرء هو
سبارتا كوس لأن سبارتا كوس كان قائدا عظيما . فهل كان أحق
هو الآخر ؟ وهل هذه الكلمات كلمات شخص أحق ؟ إذن كيف
استطاع شخص أحق أن يقف في وجه قوة روما طيلة أربع
سنوات طويلة ويحطم الجيوش الرومانية الواحد بعد الآخر ويجعل
من إيطاليا مقبرة للفيالق ؟ كيف حدث ذلك إذن ؟ يقولون إنه
مات ، لكن غيرهم يقول إن الموتى يحيون . أهذه صورة حية له
- التي تتقدم نحو جراكوس - هائل الحجم ، عملاق ومع ذلك فهو
كثير الشبه به ، الأنف المكسور ، والعينان السوداوان ، والجدائل
المتناسكة فوق رأسه ؟ هل يمشى الموتى على أقدامهم ؟

قال أنطونيوس كايوس وهو يتسم للطريقة التي انحدرت بها
رأس السياسي الضخمة إلى الأمام - وظل مع ذلك مسكاً بقدم
الماء المعطر متوازناً فلم ترق منه قطرة واحدة وقال :
- انظروا إلى جراكوس المعجوز .

فقلت جوليا :

- لا تسخر منه .

فقال شيشرون :

- ومن يسخر من جراكوس ؟ لا أحد في رأيي يا عزيزتي
جوليا . سأ كافح طيلة حياتي لأصبح على مثل هذا الوفاق .
ففكرت هيلينا لنفسها قائلة :

- وستفشل على الدوام قبل الوصول إلى ذلك بمسافة كبيرة .

واستيقظ جراكوس وهو يطرف بعينيه وقال :

- أكنت نائماً ؟

وكان من خصائصه أن يستدير إلى جوليا ويقول لها :

- معذرة يا عزيزتي ، كانت أحلام بقضة .

- بأشياء جميلة ؟

- بأشياء قديمة . لا أظن أن الذاكرة نعمة للبشر بل هي

على الأغلب لعنة عليه . وعندى كثير من الذكريات .
فقال كراسوس :

— لست فى هذا بأكثر منى . كانا لنا ذكريات وكأها تنساوى
فى كتابها .

فسأله كلوديا قائلة :

— وليس فيها ما هو بهيج قط ؟

فهمهم جراكوس يقول

— ستكون ذكراك يا عزيزتى كضوء الشمس بالنسبة لى

حتى يوم مائى . اسمحى لرجل عجوز يقول ذلك .

فضحك أنطونيوس كايوس وقال :

— وستسمح لشاب بذلك أيضا . كان كراسوس يحدثنا

فى أثناء نومك .

فصاحت جوليا تقول

— أمن الضرورى ألا تتكلم عن شىء إلا سهارتا كوس ؟

ألا يوجد إلا السياسة والحرب ؟ أنا أمقت هذا الحديث .

فقاطعتها أنطونيوس كايوس قائلا :

— جوليا .

فوقفت عن الكلام وتراجعت فى عجلة ثم نظرت إليه . كان

يخاطبها كما يخاطب الإنسان طفلا مشاكسا . قال

— جوليا ، كراسوس ضيفنا ، ويسر المجموعة أن تستمع إليه وهو يحدثنا عن أشياء ليس في الإمكان معرفتها إلا عن طريقه . وقد يكون فيها ما يسرك أنت كذلك يا جوليا لو أنك أصغيت .

فتصلبت شفتاها واحمرت عيناها وتندتا بالدموع وأحنت رأسها . لكن كراسوس كان كريما في اعتذاره إذ قال :

— هو حديث يبعث في نفسى الملل كما يفعل بك تماما يا جوليا يا عزيزتى . سامحيني .

فقال أنطونيوس كايوس :

— أظن أن جوليا ترحب بالإصغاء ، ألسنت كذلك يا جوليا ؟
ألا ترحبين بالإصغاء يا جوليا ؟
فهمت تقول :

— أجل ، أرجو أن تكمل يا كراسوس .

— لا - لا ، على الإطلاق .

فقالت جوليا كما لو كانت تستذكر درسا محفوظا .

— كنت حقا وأساءت التصرف . أرجو أن تكمل .

تدخل جراكوس في الموقف الذي كان يتدهور ليصبح موقفا يبالغ السوء . فحول الحديث بعيدا عن جوليا إلى كراسوس إذ قال

— أنا واثق من أنى أستطيع أن أخمن نظرية القائد . كان
يقول لكم إن العبيد كسبوا المعارك التي خاضوها لأنهم كانوا
لا يقيمون اعتبارا للحياة الإنسانية فتدفقت جحافلهم علينا
وأربكتنا . هل أنا مصيب يا كراسوس ؟
فضحكت هيلينا وقالت :

— لا يمكن أن تكون أكثر خطأ .

وسمح جراكوس لنفسه أن يكون أضحوكة وتسامح حتى مع
شيشرون عندما قال الشاب

— كنت دائم الشك يا جراكوس في أن أى إنسان تصل
دعايته في جودتها إلى مستوى دعايتك ، من الضروري أن يصدقها .
فأقره جراكوس على رأيه قائلاً في تسامح :
— بعض منها فقط . روما عظيمة لأن روما موجودة .
سبارتا كوس محتقر لأن سبارتا كوس لم يعد أكثر من رموز
العقاب هذه . هذا هو العامل الذى يجب أن يعمل المرء حسابه .
ألا توافقنى يا كراسوس ؟

فأخى القائد رأسه موافقا . وقال شيشرون :

— ومع ذلك فقد كسب سبارتا كوس خمس معارك كبيرة .
ولست أعنى تلك المعارك التي ردد فيها الفيالق على أعقابها . ولا حتى
تلك المعارك التي حملها فيها على الفرار . إنما أشير إلى المرات الخمس
التي حطم فيها جيوش القناصل ومحاهها من الوجود واستولى على

أسلحتها . كان كراسوس يريد أن يقول إن سبارتا كوس كان قائداً
محظوظاً أو غير محظوظ - كما ترونه أتم - لجماعة معينة من الناس ،
أكثر منه أستاذاً ذكياً في فن إدارة المعارك . كان من المستحيل
هزيمة العبيد لأن المزرعة بالنسبة لهم كانت ثراء لا يقدرون عليه .

أليس هذا ما أردت أن تقول يا كراسوس ؟

فأقره القائد قائلاً :

— إلى حد ما .

وابتسم اجوليا وقال :

— سأوضح لكم رأي بقصة ستسرك أنت يا اجوليا أكثر منا .
فيها بعض من الحرب وبعض من السياسة وشيء عن ثارنيا التي
كانت امرأة سبارتا كوس كما تعلمين .

فأجابته جوليا في رقة قائلة

— أعرف ذلك .

ونظرت إلى جراكوس في شعور باد وشكر .

وقال جراكوس لنفسه :

— أنا أعرف ، أنا أعرف يا عزيزتي جوليا أن كلينا مشير للعطف

بعض الشيء ، ومضحك بعض الشيء كذلك . والفارق الأساسي
بيننا هو أنني رجل وأنت امرأة . فأنت كما امرأة لا تستطيعين ادعاء

العظمة . لكننا من ناحية الجوهر شيء واحد ففي حياتنا نفس
المأساة الفارغة . كلانا يجب الأشباح لأننا لم نتعلم يوماً كيف نجب
أو كيف نجعل المخلوقات الإنسانية تحبنا .

وقالت كاوديا ، ولم يكن أحد يتوقع قولها :

— كنت طول الوقت أظن أن قصتها من نسج خيال أحد الناس .

— لماذا يا عزيزتي ؟

فقالت كاوديا مباشرة :

— لأنه لا وجود لمثل هاته النساء .

— لا ؟ حسن . ربما . من العسير أن نقرر ما هو صدق وما
هو ليس كذلك . فقد قرأت عن معركة اشتركت فيها أنا بنفسى
ولم أجد فيما قرأت إلا قليل القليل من الحقيقة . هكذا تسير
الأمر، وأنا لا أقطع بصدق هذه القصة، ولكن عندي كل الأسباب
التي تدفعني إلى تصديقها . أجل أعتقد أنى أصدقها .

وكانت في صوته رنة غريبة . وأدركت هيلينا فجأة وهي تنطلع
إليه في حدة مدى وسامته . فقد كان في وجهه القوي الوسيم وهو
جالس هناك في الشرفة في نور شمس الصباح ما يذكرها بالماضى
الأسطوري للجمهورية الفتية . لكن الفكرة لم ترقها لسبب من
الأسباب . فنظرت جانباً إلى أخيها . كان كايوس قد ثبت عينيه
على القائد في نوع من التقديس المدله . ولم يلاحظ الآخرون ذلك
(م — ٦ سبارتا كومر)

فقد كان كراسوس يفرض على الحاضرين الانتباه إليه . وكان
صوته المنخفض الصادق يمسك بهم ويقيدهم إليه ، حتى يشيرون
فقد راح ينظر إليه في وعى جديد . ولاحظ جراكوس من جديد
ما كان قد لاحظته من قبل ، وهو الخاصية التي يستطيع بها كراسوس
أن يثير العواطف في الآخرين دون أن يحس هو أى انفعال عاطفي .
بدأ كراسوس يقول :

— مجرد كلمة عامة كقائمة للقصة . عندما توليت القيادة كانت
الحرب مشتعلة منذ سنوات كثيرة كما تعلمون . والاضطلاع بقضية
خاسرة أمر حساس على الدوام . وعندما تكون الحرب ضد
العبيد لا يعنى النصر فيها إلا مجدا ضئيلا لا يعنى وتعنى الهزيمة فيها
عارا لا يوصف . وشيخرون بحق كل الحق فقد حطم سبارتاكوس
خمسة جيوش تحطبا كاملا .
ثم أحنى رأسه لجراكوس وقال :

— وجهة نظرك كثيرة الإغراء . لكنك تقرنى على أنى كنت
مضطرا إلى النظر إلى الموقف كما كان .
— طبعاً .

— وجدت أنه لا توجد قبائل من العبيد . وإذا أردنا أن
نتحرى الصدق كاملا فلم يحدث في مرة واحدة أن لم نفقهم عددا . كان
هذا صحيحا في البداية وكان صحيحا في النهاية . ولو أن الظروف

أناحت لسبارتا كوس يوما أن يكون تحت قيادته الثلاثمائة ألف رجل الذين كان من المفروض أن يتولى قيادتهم ، لما كنا نجلس هنا اليوم في هذا الصباح البهيج في أجمل قصر ريفي في إيطاليا كلها ، ولما كان سبارتا كوس قد استولى على روما والعالم بأسره . قد يشك الآخرون في صحة ذلك . لكنني حاربت سبارتا كوس عددا من المرات يكفي لثلاث أشك فيها . أنا أعرف . الحقيقة الكاملة هي أن كتلة عبيد إيطاليا لم تنضم كاملة إلى سبارتا كوس قط . هل تظنون أنهم إذا كانوا كلهم من معدن سبارتا كوس ، إننا كنا نجلس هنا على حالنا هذا في مزرعة يفوقنا عدد العبيد فيها مائة مرة ؟ انضم إليه الكثير منهم طبعاً ، لكنه لم يتول يوماً قيادة أكثر من خمسة وأربعين ألف مقاتل . وكان هذا وهو في ذروة قوته فقط . ولم تكن لديه خيالة قط ، كما كان الحال مع هانيبال ، ومع ذلك فقد كاد يرغب روما على أن تجثو على ركبتيها بصورة لم يحققها هانيبال . روما التي وصلت إلى قمة كانت تكفي لسحق هانيبال في معركة واحدة . لا ، لم ينضم إلى سبارتا كوس إلا أحسن العبيد وأكثرهم وحشية وأكثرهم بأساً .

كان ذلك شيئاً اضطررت إلى أن أتبينه بنفسى . وكنت نجلاً من روما لما تبينته من حالة الفزع والوهم التي خلقها هؤلاء العبيد فيها . كنت أبحث عن الحقيقة . أردت أن أعرف على وجه الدقة ما أحاربه ، أى نوع من الرجال وأى نوع من الجيوش . أردت

أن أعرف السر في أن أحسن القوات في العالم التي حاربت كل
شيء من الألمان إلى الأسبان إلى اليهود تلقى بسلاحها وافر من
مجرد مرأى هؤلاء العبيد . كنت قد أقت معسكرى حينذاك في
بلاد الغال عبر الألب ، وكان معسكرا يفكر سبارتا كوس مرتين
قبل أن يهاجمه ، ثم شرعت في العمل . وفي قليل من الفضائل
لكن إحداها هي الدقة . وأعتقد أني قد تحدثت مع مائة شخص
وقرأت ألف وثيقة . من بين هؤلاء كان باتياتيوس متعهد المجالدين
وعدد كبير من الجنود والضباط الذين حاربوا ضد سبارتا كوس .
وقد روى لي واحد منهم هذه القصة وأنا أصدقها .

وعلق أنطونيوس كايوس قائلا :

— إذا كانت القصة في مثل طول المقدمة فسنتناول غداءنا هنا .

وكان العيد قد شرعوا بالفعل في إحضار البطيخ المصري
والعنب وتبيذ خفيف للصباح . وكانت الجلسة في الشرفة رطبة
بهيجة إلى درجة جعلت حتى من عقدوا العزم على مواصلة رحلتهم
في ذلك اليوم لبسوا في عجلة من أمرهم .

— هي أطول . لكن الناس تصفني إلى الرجل الغني .

فقال جراكوس في خشونة :

— أكل .

— أنا أنوي ذلك . فهذه القصة لجوليا . بعد إذنك يا جوليا .

فأحنت رأسها موافقة . وفكر جرا كوس لنفسه قائلاً :

- يشك المرء في أنه نافذ البصيرة فالإلام يهدف بالله ؟

وقال كراسوس وفي صورته رنة خبيثة .

— حدث ذلك في الوقت الذي حطم فيه سبارتا كوس جيشاً رومانيا للمرة الثانية . أما المرة الأولى ، وهي التي تحطمت فيها كتاب حراسة المدينة ، فأظن أن صديق جرا كوس يذكرها جيداً كما نذكرها نحن بالطبع . بعد ذلك بعث مجلس الشيوخ بيليوس لمقاتلته على رأس فيلق كامل ، ومن أحسن الفيالق فيما أظن . كان هو الفيالق الثالث ، أليس كذلك يا جرا كوس ؟

— الدقة فضيلتك وإيبت فضيلتي .

فقال كراسوس :

— أعتقد أنى مصيب ، وإذا لم أكن مخطئاً فقد صحب الفيلق بعض من خيالة المدينة - فأصبح مجموعهم حوالى سبعة آلاف رجل . وأرجو أن تؤمنى يا جوليا بأن حرفة الحرب ليس فيها شيء غامض بالذات . فكسب المال أو نسج قطعة من الكتان تحتاج إلى إعمال الذهن أكثر مما يحتاج إليه المرء ليصبح قائداً ممتازاً . ومعظم من صناعتهم الحرب ليسوا على قدر كبير من المهارة - لأسباب واضحة . أما سبارتا كوس فكان بارعا كل البراعة . كان يعرف بعض قواعد احرب البسيطة ، وكان يعرف مواطن الضعف والقوة في الأسلحة

الرومانية . وهذا أمر لم يعرفه إلا القليل غيره من بينهم هانبيال مع
قليل غيره . بينما لا يعرفه فيما أخشى معاصرنا الموقر بومي .
وسأله شيشرون :

— أمن الضروري أن نسمع هذه الأسرار العليا ؟
— ليست أسراراً علياً أو سرية بالذات . إنما أكررها من
أجل جوليا . لأن هذه القواعد تبدو شيئاً من المستحيل على الرجل
أن يتعلمه . القاعدة الأولى هي ألا تجزأ قوائك قط اللهم إلا إذا
كان ذلك ضرورياً للنجاة . والقاعدة الثانية هي أن تبدأ بالهجوم
إذا كنت ستقاتل ، أما إذا كنت لن تبدأ بالهجوم ، فتجنب المعركة .
والقاعدة الثالثة هي أن تختار زمان ومكان المعركة بنفسك ، وألا
تترك هذا الاختيار للعدو أبداً . والقاعدة الرابعة هي أن تتجنب
أن يحاط بك بأى ثمن . والقاعدة الأخيرة هي أن تهاجم العدو
وتخطمه في أضعف نقطة فيه .

فعلق شيشرون على ذلك بقوله :

— هذا النوع من المبادئ الأولية موجود في أى كتاب أولى
عن الحرب يا كراسوس ويعوزه العمق إذا جازى القول . فالأمر
كله على قدر كبير من البساطة .

— ربما . لكن أى شيء على هذا القدر من البساطة يعوزه
العمق - أو كد لك .

وقال جراسوس :

-- وكى ما نكمل ما بدأت ، ما هى هذه المواطن للضعف والقوة فى الأسلحة الرومانية ؟
-- شىء فى نفس بساطة القواعد ، وأنا على ثقة من أن شيشرون سيخالفنى الرأى مرة ثانية .

فقال شيشرون فى خفة :

-- أنا تلميذ راغب فى المعرفة عند قدمى قائد كبير .

فهز كراسوس رأسه وقال :

-- حقاً لا . شينان يؤمن كل الرجال بأن عندهم موهبة القيام بهما دون إعداد أودراسة ، هما تأليف كتاب وقيادة جيش . ولهم فى ذلك سند قوى ما دام مثل هذا العدد المذهل من الحمقى يعمل الشيشين .

ثم أضاف فى أسلوب مضحك :

-- وأنا أشير إلى نفسى طبعاً .

فقلت هيلينا :

-- هذه مهارة كبيرة منك .

فأخنى كراسوس رأسه لها . على أية حال ، كان رأى هيلينا فيه أنه يحفل بالنساء لكنه لا يهتم بهن اهتماماً حقيقياً . ومضى كراسوس يقول :

— يمكن تلخيص نواحي الضعف والقوة في جيشنا نحن في كلمة واحدة هي النظام . لجيشنا أكثر جيوش العالم نظاما ، وقد يكون هو الجيش الوحيد المنظم . فالفيلق الجيد يدرّب قواته خمس ساعات كل يوم سبعة أيام في الأسبوع . والتدريب يعدّ الجندي لمواجهة سلسلة من الأمور غير المنظورة في المعركة ، لكنه لا يستطيع أن يعدّه لمواجهة كل شيء . وهذا النظام آلى إلى حد ما . وعندما تطرأ الطوارئ الجديدة يكون ذلك امتحانا للنظام . ونحن نملك كذلك جيشا ممتازا في الهجوم ، كل ميزته هي الهجوم ، وأسلحته أسلحة هجوم . وهذا هو السبب في أن الفيلق يشيد معسكرا محصنا في أى وقت يتوقف فيه لقضاء الليل . وكعب أخيل ، أو نقطة الضعف في الفيلق هي الهجوم الليلي عليه . وأول قاعدة حربية للجيوش الرومانية هي اختيارنا بأنفسنا لأرض المعركة . لكن هذا ترف لم يسمح لنا به سبارتا كوس إلا فيما ندر . وقد خرق بيلبوس كل هذه الآراء البالغة البساطة عندما قاد الفيلق الثالث جنوبا . وهذا مفهوم لأنه لم يكن لسبارتا كوس سوى الاحتقار .

وانضمت ابنتا أنطونيبوس كايوس إلى المجموعة في الشرق حينذاك . جاءتا عدوان وقد توردتا من الضحك واللعب والانفعال واحتمتا بين ذراعى جوليا في الوقت الذي كان كراسوس ينهى فيه كلامه فسمعنا كتاباته الأخيرة .

فسأته الابنة الكبيرة قائلة :

— هل كنت تعرف سبارتا كوس ؟ هل رأيتة ؟

فابتسم كراسوس وقال :

— لم أره قط ، لكنى كنت أحترمه يا عزيزتى .

وراح جرا كوس يقشر تفاحة فى رصانة وهو يتأمل كراسوس وقد ضيق عينيه . لم يكن يحب كراسوس وتذكر أنه لم يقابل رجلا عسكريا قط أحسن نحوه بأية حرارة أو حب . وأمسك بقشرة التفاحة سليمة فى شريحة واحدة طويلة فصفقت الفتاتان الصغيرتان بأيديهما حيوراً وحاولتا أخذها ، لكن جرا كوس أصر على أن تمنى كل منهما شيئاً أولاً . ثم قال :

— ثم اطويا القشرة حول الأمانة فالتفاحة تحوى كل المعرفة .

فعلقت جوليا قائلة :

— ودودة فى بعض الأحيان . كانت هذه القصة عن قارينيا

يا كراسوس .

— سنقابلها وشيكا . إنما أصور ظروف القصة ليس إلا . كان سبارتا كوس ما زال معسكراً فى منطقة جبل فيزوف فى ذلك الوقت . وقسم بيلبوس ، بحماقته ، قواته إلى ثلاثة أقسام ، ضم كل قسم منها أكثر من ألفى رجل ، وبدءوا يضربون فى تلك المنطقة الوعرة بحثاً عن سبارتا كوس . فمحا سبارتا كوس جيش بيلبوس من الوجود فى ثلاثة التحامات منفصلة . وكان يعمل نفس الشيء

في كل مرة يحصرهم في مضيق ، ضيق بين جبلين حيث لا تستطيع
الفصائل أن تنتشر ويحطمها . على كل حال حدث في إحدى هذه
المرات أن تمكنت كتيبة كاملة من الخيالة وجزء كبير من كتيبة
مشاة من أن يشقا طريقهما خارجين من الحصار ، والمشاة تتعلق
بأذيال الجياد والجياد تجرى هاربة من الجحيم . وأنت إذا عرفت
كيف كان العبيد يقاتلون ، لعرفت أنهم ما كانوا ليسمحوا لمثل
هذا الشيء بصرفهم عن المعركة . فقد كانوا يركزون اهتمامهم على
ما بين أيديهم وهذا ما فعلوه . فتقهقرت المئات الثمانية أو التسعة
من المشاة والخيالة إلى الغابات وضلت طريقها حتى وصلت إلى
معسكر العبيد حيث النساء والأطفال . أقول معسكراً ، لكنه كان
أقرب إلى القرية الصغيرة . إذ كان يحيط به خندق وحائط من
القدارة فوق قمته سياج من الخشب . ولا بد أن عدداً كبيراً من
الجنود الفارين من الفيالق كان قد انضم إلى سبارتاكوس لأن
ذلك المعسكر كان مشيداً بنفس الطريقة التي تقيم بها معسكراتنا
إذ كانت الأكواخ في الداخل مقامة على شوارع مستقيمة منتظمة .
حسن . كانت أبواب المعسكر مفتوحة وعدد من الأطفال يلعبون
خارجها وبعض النساء يرقبهن . ويجب أن تدركوا أن الجنود عندما
تحل بهم الهزيمة ويفرون يفقدون معظم الاعتبارات الخلقية . وأنا
لا أصدر أحكاماً على من يقتلون العبيد سواء كانوا أطفالاً أو نساء
أو رجالاً . فلدينا من الأسباب ما يكفيننا لكرهية القدارة . وكان

أولئك الجنود يطفحون بالكراهية ، فانقضوا على المسكان ، وطعن
الفرسان الخيالة الأطفال بالحرايب كما يفعل الأرايب ، وقتلوا كذلك
في هجمتهم الأولى عدداً من النساء . لكن غيرهن من النساء هجمن
على الجنود ثم تدفقت النسوة اللاتي كن في القرية خارجات من
باب المعسكر مسلحات بالمدي والسيوف والحرايب . لست أدري
ماذا كان يدور بخلد الجنود ، أكثر من الكراهية والرغبة في
الانتقام . كان من الممكن ، فيما أعتقد ، أن يقتلوا بعض النسوة
ويغتصبوا الأخريات . وتذكرون أن شعوراً سيئاً للغاية نحو
العبيد كان يسود البلد كلها في ذلك الوقت . أما قبل عهد سبارتا كوس ،
فلو أن رجلاً قتل إحدى إيمائه ، ما كان يستطيع أن يخرج إلى
الطريق مرفوع الرأس . فقد كان ذلك يعتبر عملاً يحط من الكرامة
مهما كانت الأحوال . وكانت غرامة كبيرة تفرض على سيد الأمة
المقتولة لو أمكن إثبات أن القتل كان بلا سبب . لقد غيروا هذا
القانون منذ ثلاث سنوات ، أليس كذلك يا جراكوس ؟

فقال جراكوس دون بهجة :

— كذلك . لكن استكمل قصتك . كانت عن قاربينا .

— صحيح ؟

وبدا على كراسوس لحظة أنه قد نسي ذلك . وكانت جوليا
تنظر من فوق أكتافه إلى المروج . ثم قالت لطفلتيها :

— هيا اجريا الآن . . اجريا والعبا .

وأرادت كلوديا أن تعرف بقية القصة فسألته :

— أتعنى أن النسوة قاتلن الجنود .

فأخنى كراسوس رأسه موافقا .

— هذا هو بيت القصيد . إذ دارت معركة رهيبه هناك أمام

باب المعسكر . نعم ، لقد قاتلت النسوة الجنود . فجن الجنود ونسوا

أنهم إنما يقاتلون نساء . وأظن أن المعركة دامت حوالى ساعة .

وكانت تفقد النسوة ، كما جاء فى القصة ، تلك المتوحشة ذات الشعر

الأصفر التى كان المفروض أن تكون فارينيا . كنت تجدها فى كل

مكان ، وتمزقت ثيابها وقاتلت بالحربة وهى عارية . كانت كاسرة

كإحدى آلهات الانتقام .

فقاطعه جراكوس قائلا :

— أنا لا أصدق شيئا من هذا .

فأخنى كراسوس رأسه وهو يدرك أن قصته قد فُتلت فشلا

مؤسفا وقال :

— لا حاجة بك إلى تصديقها إذا لم ترد ، فأنا لم أروها

إلا أبوليا .

فسألته جوليا قائلة .

— ولماذا لي أنا ؟

وقالت هيلينا وهي تحقق إليه بامعان :

— أرجو أن تكمل القصة سواء كانت صادقة أو غير صادقة .
إن لها نهاية . أليست كذلك ؟

— نهاية عادية . فلكل المعارك نفس النهاية أساسا . فأنت إما
أن تكسبها وإما أن تخسرها . وقد خسرتنا هذه المعركة . إذ عاد
بعض العبيد ولم يفر من براثنهم وبرائن النساء إلا حفنة من الخيالة
[عادت لتقديم تقريرها عما حدث .

— لكن فارينيا لم تقتل ؟

— لو كانت تلك المرأة هي فارينيا فهي لم تقتل بكل تأكيد
لأنها ظهرت بعد ذلك مرات ومرات .
وسألته كلوديا .

— وهل ما زالت على قيد الحياة حتى الآن ؟

فأعاد كراسوس قولها :

— هل ما زالت على قيد الحياة حتى الآن ؟ لا أهمية لذلك .
أليس كذلك ؟

عند ذاك نهض جراكوس وألقى بعباءته إلى الخلف في إيماءة

مميزة ومشي في تناقل مبتعداً . وساد الصمت لحظات . ثم قال
شيشرون يسأل :

-- ما الذى يضايق الرجل العجوز ؟

-- الله وحده يعلم .

وأرادت هيلينا أن تعرف فقالت :

-- لماذا تقول إنه ليس من المهم هل قارينيا على قيد الحياة

حتى الآن ؟

فقال كراسوس مباشرة :

-- لأن الأمر كماه قد انتهى . أليس كذلك ؟ سبارتا كوس قد

مات ، وقارينيا أمة ، والسوق في روما متخمة بهم . قارينيا وعشرة

آلاف من مثيلاتها .

وامتلاً صوته بالغضب فجأة .

واعتذر أنطونيوس كايوس وقام يلحق بجراكوس فقد أزعجه

أن يتخاصم رجلان مثل جراكوس وكراسوس وهما من تربط

بينهما السياسة على لا شيء على الإطلاق . وهو لم يعرف عن

جراكوس قط مثل هذا السلوك من قبل . وتساءل ، أيمكن أن

يكون الخصام حول جوليا ؟ لا . ليس بالنسبة لجراكوس ، ليس

بالنسبة لجراكوس العجوز السمين .

ووجد جيرا كوس يجلس مكتئبا في بيت النباتات الزجاجي ،
فمشى إلى صديقه القديم ولكزه في رقة وهو يقول .
— لا عليك - أيها العجوز - لا عليك .

فقال جيرا كوس :

— في يوم من الأيام سيثبت أن العالم أصفر من أن يضم
كراسوس وجيرا كوس .

www.alkottob.com

التاريخ

الجزء السادس

ويتلخص من هذه الرحلة التي قام بها فريق من المجتمعين في
فيلا سالاريا إلى نوا، وبعض التفاصيل عن تلك المدينة الجميلة
وكيف شهد المسافرون صاب آخر المجالدين .

في ذلك اليوم نفسه ودع شيشرون وجرا كوس المرجودين
وسافرا إلى روما . أما كراسوس وجماعة كايوس من الشباب فقد
أمضوا يوما آخر في قبلا سالاريا بناء على نصح أنطونيوس .
وانفقوا على أن يرحلوا في صباح اليوم التالي مبكرين ، ويقطعوا
بذلك في يومهم شقة طيبة من الطريق . وكان كراسوس قد اقترح
بالفعل على كايوس أن يسافروا جماعة ، فابتهجت هيلينا وكاوريا
لفكرة السفر في رفقة القائد الشهير .

تركوا الضيعة بعد شروق الشمس بقليل ، فكونت المحفات
الأربع ، ومختلف الأتباع ، وحملة الأمتعة موكبا ضخما على الطريق
وعندها وصلوا إلى الطريق الأيوسي ، صحب كراسوس حرس
شرف مكون من عشرة من جنود الفيالق . فقد كان كراسوس
مدعوا إلى كايوس لحضور الاحتفالات التي تقام احتفالا بإخماد ثورة
العبيد نهائيا في المكان الذي نشبت فيه الثورة نفسها . وكانوا قد
انتخبوا مائة من المجالدين من بين من أسروهم بعد هزيمة سبارتا كوس
وموته ، ومنذ أسابيع والاحتفال بقتال المجالدين فيما بينهم قائم .
وكان قتال المجالدين فيما بينهم يجري على أساس التصفية التي لا يبق
بعدها إلا مجالد واحد . فكلما تقابل اثنان جمعوا بين الواحد الباقى
ومجد آخر ، فكانت رقصة الموت لا تكاد تعرف النهاية .

وقال كايوس :

— أعتقد أنكم كنتم ترغبون في مشاهدتها .

وكانت المحفلات الأربع تسير جنباً إلى جنب ليتمكنوا من تبادل الحديث في أثناء تقدمهم على الطريق . وكان جنود الفيالق يبعدون حركة المرور القادمة من الاتجاه المضاد إلى حافة الطريق . وكان الناس عند ما يرون حجم وثرأء الموكب يسلمون بأفضليته في حق المرور .

كان كايوس وكراسوس يجلسان جنباً إلى جنب ، وكلوديا إلى جانب كراسوس ، أما هيلينا فقد جلست إلى جوار أخيها . وكان كراسوس قد اعتبر نفسه مضيفاً لهم نظراً لسنه ولمشاعره معينة كان يحسها نحوهم . وكان عبيده مديرين خير تدريب ، وكان قد أعد العدة لتلبية احتياجات ورغبات رفاقه ، حتى والمحفات تنقدم على الطريق الراجع ، سواء كانت نبيذاً جديداً مثلاًجاً رائعاً من نبيذ اليهودية ، أو عنباً مصرياً رياناً ، أو ريشة من العطر لتنقية الجو لهم . وكان ، شأنه شأن كثير من كبار الأغنياء ، يكثر من التفكير تفكيراً مادياً تجاه أبناء طبقته الاجتماعية . ومن هنا قام بدور الضيف والرفيق والدليل لهم .

وقال رداً على سؤال كايوس :

— لا . وقد يدهشك هذا يا كايوس ، لكني أكاد أكون قد فقدت لذة مشاهدة قتال المجالدين الآن . أجل ، في بعض الأحيان إذا كان المجالدون المتقاتلون بارعين ومن نوع خاص .

لكنتى أخشى ألا تفلح هذه التصفيات بين المجالدين إلا فى بعث
الممل إلى نفسى .

لكنتى لو علمت أنك راغب فى مشاهدتها .

— لميت بذات بال .

فقال كلوديا :

— لكن التصفية تسفر عن واحد فى النهاية .

— ليس ضرورياً . فمن الممكن أن يصاب آخر اثنين بجراح

عميقة .

لكن من المحتمل إلى حد كبير ، إذا تبقى واحد من المجالدين
أن يصاب ، من باب الرمز ، أمام أبواب المدينة . والمدينة سبعة
أبواب كما تعلمون . وعندما نصبوا رموز العقاب ، بدأوا بسبعة
صلبان : واحد أمام كل باب . وسيحل من تبقى محل الجثة المصلوبة
أمام الباب الايوبى .

ثم سأل كلوديا قائلاً .

— هل سافرت إلى كابوا من قبل ؟

— لا . لم أذهب .

— إذن فى انتظارك مجال كبير للشاهدة . فهى مدينة كثيرة

الجمال ، بل إنى لأظن فى بعض الأحيان أنها أجمل مدينة فى العالم
بأسره . فعندما يكون اليوم مشرقاً ، ترين من فوق الأسوار الخايج

الرائع وقمة جبل فيزوف البيضاء على بعد . أنا لا أعرف لها
مثيلا . وأنا أملك بيتا ريفيا صغيرا هناك ، ويسعدني أيما سعادة
أن تنزلوا كلكم ضيوفا على .

فشرح له كايوس أن خاله الكبير فلاقيان يتوقع مجيئهم وأنهم
لا يستطيعون تغيير مشاريعهم الآن .

فقال لهم في كرم :

- على أية حال ، نستطيع أن نتقابل . ستكون الأيام القليلة
الأولى مئة . لكننا نستطيع ، بعد أن تنتهي احتفالات الترحيب
الرسمية ، وإلقاء الكلمات ، وبتمية الأشياء ، أن نمضي تسع ساعات
في الخليج في قارب شراعى - فهذا سيد أنواع الرياضة كما تعلمون .
وقد نقوم برحلة . وسنمضي بعد ظهر أحد الأيام بين مصانع
العطور قطعا . إذ لا يمكن الفصل بين كابوا وعطورها . وأنا أملك
مصيفا في مصنع هناك ، وعندى فكرة عن فن العطور .

ثم قال في كرم أصيل :

- وسيكون من دواعي بهجتى أن أقدم لكم أى عطر
ترغبون فيه .

فقال هيلينا :

- أنت كثير الطيبة .

- فلنقل إن الطيبة لا تكفى إلا القليل جدا ، وتعود على

بأحسن الجزاء ، على أية حال ، أنا أحب كابوا وكنت دائم الفخر بها ، فهي مدينة قديمة معنة في القدم . قد لا تعرفون أن هناك أسطورة تقول إن الاتراسكانيين أقاموا اثنتي عشرة مدينة في هذا الجزء من إيطاليا - وأسموها الجواهر الاثنتي عشرة في العقد الذهبي . وكان اسم واحدة منها فولتورنوم ، ومن المفروض أنها هي التي أصبحت اليوم كابوا الحديثة . هذه مجرد أسطورة طبعاً . وأعاد السعينيون الذين استولوا عليها من الاتراسكانيين منذ حوالي ثلاثمائة وخمسين سنة مضت بناء غالبيتها - وعندما استولينا عليها منهم ، قمنا أسواراً جديدة ، وشققنا الشوارع الجديدة في كل مكان . إنها مدينة تفوق روما جمالا إلى حد كبير . ومضوا في سفرهم على الطريق الأيوسي . وكانوا حينذاك لا يبدون إلا اهتماماً قليلاً ، أولاً يبدون اهتماماً قليلاً ، أولاً يبدون اهتماماً على الإطلاق برموز العقاب . وعند ما كانت الريح تهب حاملة إليهم رائحة اللحم المتعفن ، كانت ريشة من العطر تعطر الهواء ، إلا أنهم كانوا في معظم الوقت لا يتطلعون إلى الصليبان إلا لماماً . ولم يقع من الحوادث ماله أهمية عدا حركة المرور العادية على الطريق . وأمضوا الليلتين في فنادق الريف . و ليلة في إحدى المحطات المقامة عند نهاية كل ميل ، وكانت بالغة الفخامة . ووصلوا في النهاية إلى كابوا بعد مراحل من السفر مريرة .

كانت كايوا في حالة فرح واحتفال، مدينة في قمة شهرتها ومجدها وراثتها - بعد أن محت عن جبينها لطنخة حرب العبيد نهائيا . وكان اثنا عشر ألف علم يتطاير فوق أسوار المدينة البيضاء . وكانت الأبواب السبعة الشهيرة مفتوحة على مصراعها ، فقد عم السلام ولم يعد للخوف وجرد . وكانت أنباء قدومهم قد سبقتهم ، فاجتمع عشرات من أعيان المدينة للترحيب بهم ، وعزفت فرق موسيقى المدينة المكونة من مائة وعشر آلات موسيقية من الآلات النحاسية والصفارات والطبول ، عزفت التحية لهم ، ورافقتهم كتيبة حراسة المدينة الغارقة في الدروع المطلية بالفضة وهم يدخلون من الباب الأيوسى . كان ذلك الحدث عظيم الإثارة بالنسبة للفتاتين ، وحتى كايوس ، رغم تظاهره بعدم المبالاة ، أثاره الترحيب غير العادى الحافل بالمباهج الذى تقاسموه مع رفيقهم الشهيد . وما إن دخلوا إلى المدينة ، حتى افرقوا عن كراسوس وذهبوا إلى بيت أقربائهم ، إلا أن دعوة من القائد وصلت إليهم بعد ساعات قليلة يدعو فيها كايوس وأخته وصديقتهما وأسرتهم كذلك ليكنوا ضيوف كراسوس فى المأدبة الرسمية التى منتقام مساء اليوم نفسه . وتاه كايوس كهرياء ونفرا إذ أصبح محط عناية ورعاية القائد ، وظل كراسوس طيلة المأدبة الطويلة الباعثة على الملل يبدى لهم ألوانا من الرعاية والحفاوة . ولم يذق كايوس وكودييا وهيامينا إلا القليل من ألوان الطعام الخمسة

والخسبين التي قدمت تقديرا لمكانة القائد المرموقة ومجده . وكانت
كأبوا ما زالت تتمسك بالتقاليد الاتراسكاتية القديمة في طهي
الحشرات طهيا بارعا لذيدا . لكن كايوس لم يستطع أن يقنع نفسه
بالاستمتاع بالحشرات حتى وهي مفرية في العسل أو بعد حشوها
في فطائر رقيقة مع لحم الكركند المفري . وكان من بين مظاهر
الاحتفال في ذلك المساء رقصة جديدة وضعت خصيصا احتفالا
بكراسوس .

وكانت اللوحات تؤدي بإخلاص كبير في الرقصة البالغة
الروعة التي دامت ساعة . وعندما انتهت الرقصة بذبح
العبيد في النهاية ، تناثرت الزهور البيضاء هابطة كالثلج من سقف
القاعة الكبيرة .

ولاحظت هيلينا أن كراسوس أخذ يقلل من الشراب مع
تقدم المساء مع أن المئات العديدة من الأضياف في المسادة كانوا
قد بلغوا حالة بينة من السكر . فكان يكتفي بتذوق النبيذ ولم يذق
الشراب القوي المصنوع من البرقوق الذي اشتهرت كأبوا بصنعه
والذي كانوا يقطرونه كما يقطرون عطورهم ذات الشهرة العالمية .
وكان القائد مزيجا غريبا من خشونة الطبع والرغبات الحسية . وكانا
يكثران عند ذلك من تبادل النظرات ، وكانت الصفتان واضحتين
في عينيه . أما كايوس وكلوديا ، من الناحية الأخرى ، فكانا في
قمة السكر .

وانتهت المأدبة في وقت متأخر جدا ، لكن هيلينا كانت تحس ميلا غريبا عنيدا إلى مشاهدة مدرسة لنتولوس باتيانوس ، المكان الذي شهد البدايات الأولى لثورة العبيد . وسألت كراسوس هل يرائق على أن يأخذهم إليها ويكون دليلهم ومرشدهم . وكانت الليلة رائعة رطبة عطرة مليئة برائحة زهور الربيع التي كانت قد أنبعت في كل أنحاء المدينة . وكان قمر أصفر كبير قد أخذ لتره في الطلوع في السماء ، فلن يجدوا مشقة في تبين طريقهم في الظلام .

كانوا يقفون في الساحة العامة ، يحيط بالقائد جمهرة من الناس وكان عليهم كذلك أن يحلوا مسألة انزع الفتاتين من أسرة هيلينا في ديبلوماسية . لكن هيلينا حثت كايوس على أن يقوم بدور الرفيق الحارس . وكان كايوس في حالة من السكر شديدة إلى حد أنه وافق بكل استعداد . ووقف يترنح قليلا ويتطلع إلى كراسوس بمينين كأنهما تقديس . وتمكن القائد من التخلص من الرسميات . وبعد فترة قصيرة كانوا في محفاتهم في طريقهم إلى الباب الأيوسي . وحيا الحراس الواقفون بالباب القائد ، ومازحهم هو بعض الشيء . ووزع عليهم حفنة من النقود الفضية وسألهم كذلك عن الطريق . فسأله هيلينا قائلة :

- إذن فأنت لم تذهب إلى هناك من قبل ؟

- لا . . . لم أر المكان قط .

فعلقت هيلينا قائلة :

- يا للغرابية . أظن أني لو كنت في مكانك لرغبت في مشاهدة
الطريقة التي تداخل بها حياتك وحياة سبارتا كوس في هذه النقطة .
فقال كراسوس في هدوء .

- حياتي وموت سبارتا كوس .

وقال لهم قائد الحرس على باب المدينة :

- لم يتبق من المدرسة الكثير . كانت عملية استغلال ضخمة

قام بها المتعهد القديم . وكان من الواضح أنه في طريقه إلى أن يصبح
مليونيراً . لكن سوء الحظ اختفى أثره بعد الثورة . وعندما قتله
واحد من عبيده ، وقعت المدرسة في منازعات قضائية لم تنته حتى
اليوم ، وانتقلت غيرها من المدارس الكبيرة إلى المدينة ،
واستأجرت اثنتان منها منازل سكنية .

وتشاءت كلوديا ونام كايوس في محفته . وتابع قائد الحرس
حديثه مبتهجا .

- جاء في تاريخ الثورة الذي كتبه فلاكيوس مونايا وصف
لمدرسة باتياتوس على أنها في قلب المدينة . ونحن الآن نقود السياح
إليها . وصدقوني ، إن كلامي لا قيمة له إلى جانب كلمات مؤرخ .
ولكن العثوز على مدرسة باتياتوس أمر يسير جدا . اتبعوا هذا
الممر الصغير على طول الجدول ، وهذا القمر الذي يضيء الدنيا
ويجعلها نهارة ، فلن نخطئوا المجتهد ، والمنصة الخشبية الكبيرة

عالية واضحة .

ومر من باب المدينة في أثناء حديثهم جماعة من العبيد يحملون أرفاشا ومعاول ، ويحملون كذلك سلما وسلية من القش المجدول . وذهب العبيد إلى حيث يقوم الصليب الكبير أول رموز العقاب وأكثرها رمزية ، أول الصليبان التي بلغ عددها ستة آلاف ، والتي قامت على الطريق إلى روما . وعندما أسندوا السلم إلى الصليب تطاير سرب من الغربان غاضباً مبتعداً .

وسألت كاوديا فجأة

— ماذا يفعلون ؟

فأجابها قائد حرس الباب في لهجة عرضية .

ينزلون كلبا كي ترفع كلبا آخر في مكانه . ففي الصباح سينال العبد الباقي من القتال بلا نهاية ، نصيبه من التشريف تبعاً لحقوقه . فوق هذا الصليب سيموت آخر عبد كان مع سبارتا كوس .

فارتعدت كاوديا وقالت لكراسوس .

— لا أظن أنني راغبة في الذهاب معكم .

— لك أن تعودي إلى البيت إذا أردت .

ثم سأل قائد الحرس قائلاً .

— هلا بعثت معا باثنين من رجالك ؟

لكن كايوس ذهب معهما وهو نائم مستريح يشخر . وأرادت هيلينا أن تسير على قدميها ، فأخنى كراسوس رأسه موافقاً وترك محفته ليسير إلى جوارها . وسبقتهما المحفات وتبعها الرجل المالى الكبير القائم والمرأة الشابة يسيران معا فى ضوء القمر . وعندما مرا بالصليب ، كان العبيد ينزلون البقايا العفنة التى لوحتها الشمس ونهشها الطيور للرجل الذى مات على الصليب ، وكانت جماعة أخرى من العبيد تحفر حول قاعدة الصليب وتدق أوتاراً لتساعد على استقامة الصليب وتقويته .

وسأل كراسوس هيلينا قائلاً :

— ألا شئ يزعجك حقاً ؟ أليس كذلك ؟

— ولماذا يزعجنى شئ مثل هذا ؟

فهز كراسوس كتفيه وقال :

— لم أقصد بقولى هذا أن أنتقدك كما تعلمين . إنما أظن أنه أمر

مثير الإعجاب إلى حد كبير .

— ألا تكون المرأة امرأة ؟

فأجابها كراسوس وهو لا يريد أن يلتزم برأى .

— أنا أقبل العالم الذى نعيش فيه ، فأنا لا أعرف عالماً غيره

أتعرفين أنت ؟

نهزت هيلينا رأسها دون أن تجيب وواصلت السير معاً لم تكن

المسافة إلى المدرسة كبيرة ، وكانت المنطقة ، الجميلة في ضوء النهار ،
قد استحالت تحت ضوء القمر إلى منطقة شاعرية كأرض الأساطير
الخرافية ، واستطاعا في تلك اللحظة أن يشامدا على مبعده أمامهما
جدار المجتلد . فأمر كراسوس حملة المحففات بجمع المحففات معا ،
والبقاء إلى جانبها حتى يعود . وسار هو وهيلينا .

كان المكان صغيرا حقيراً في خواتمه . وكان الكثير من حديد
السور المحيط بأرض التمرين قد سرق . وكان البلي قد دب بالفعل في
الألواح الخشبية ، وانهار نصف حائط المجتلد . وقاد كراسوس
هيلينا فوق الرمال ، ووقفا هناك يتطلعان إلى المنصة الكبيرة .
وبدا المجتلد صغيراً رثا للغاية ، لكن الرمال كانت كالملجج في
ضوء القمر .

وقالت هيلينا :

— سمعت أخى يتكلم عن هذا المكان . لكنه أظن في
امتداحه بينا يبدو الآن على هذا القدر من الضآلة .

وحاول كراسوس أن يربط في ذهنه بين ميادين الموت ،
والمعارك الدموية ، والحملات الساحقة التي لانهاية لها ، وبين
هذه المدرسة الصغيرة الرثة ، لكنه لم يستطع . إذ لم يعن ذلك
شيئاً بالنسبة له ولم يحس هو رغبة في ذلك .

وقالت هيلينا :

— أريد أن أصعد إلى المنصة .

— كما تشائين . لكن بحذر . فقد يكون الخشب متآكلاً .

وشقا طريقهما صاعدين إلى المقصورة التي كانت فخر باتيانوس
ومبعث بهجته في يوم من الأيام ، وكانت المظلة المخططة تتدلى في
أسمال خلقة ، وانطلقت الجرذان هاربة من بقايا الحشيات القديمة .
وجلست هيلينا فوق إحدى الأرائك ، وجلس كراسوس إلى
جوارها ثم قالت هيلينا :

— ألا تشعر بأى شيء نحوي ؟

وأجابها كراسوس قائلاً :

— أشعر بأنك سيدة شابة كثيرة الجمال والذكاء .

فقالت هي في هدوء :

— أما أنا فأشعر أيها القائد الكبير بأنك خنزير .

فانثني نحوها ، فبصقت في جمع وجهه واستطاعت أن ترى رغم ضعف
الضوء ، كيف أضاء الغضب عينيه . دنا هو القائد ، وهذا هو
الانفعال الذي لا يظهر أبداً في حديثه . وأهوى عليها بيده ، وقذفت
بها الضربة من فوق الأريكة ، فاصطدمت بالسور البالي الذي انشق
تحت ثقل جسمها . ووقدت هناك ونصتها مدلى فوق حانة الشرفة

على ارتفاع عشرين قدماً عن أرض المجتهد لكنها تماسكت وشدت
نفسها إلى الأمام .

وظل الفائز ساكناً في مكانه . ثم انقضت عليه كقطة متوحشة ،
تخدش وتحمش ، لكنه أمسك برسغها وأبعدها عنه وهو يتنسم لها
في هدوء ويقول :

— الشيء الحقيقي يختلف عن هذا يا عزيزتي ، أنا أعرف .
وانتهت ثورة الغضب والعنف وطفقت تبكي . راحت تبكي كفتاة
صغيرة أفسدها التدليل .

وأزالت الكحل الأسود الذي سال نازلاً على خدودها أثناء
البكاء . ثم عادت إلى المحفات ، وزحفت إلى محفتها في صمت .
وسار كراسوس على قدميه .

وانطلق حملة المحفات عاتدين على الطريق الصغير المؤدى إلى
كابوا . وكان كايوس مازال نائماً . كان الليل قد تجاوز نهايته وبدأ
القمر يفقد نأاقه اللامع . وبدأ نور جديد يغمر الأرض .
وعما قليل يمزج السحاب الرمادي الشامل ضوء القمر بضوء
النهار .

وشعر كراسوس ، لسبب ما ، بهزة متجددة من الحياة والقوة .

وغمره شعور لم يجربه إلا نادراً ، شعور بالحياة والحيوية قوى إلى حد كاد يدفعه إلى تصديق الأساطير القديمة التي تزعم أن هناك صفرة مختارة من البشر تضع الآلهة بذورها في نساء البشر . وفكر لنفسه قائلاً .. أليس من الممكن أن يكون هو واحداً من هؤلاء ! لنضع في اعتبارنا فقط كيف حابه الحياة . لماذا لا يمكن إذن أن يكون هو واحداً من هؤلاء ؟

وقادته خطواته الواسعة إلى جزار محفة هيلينا ، فنظرت إليه في استغراب وقالت :
— ماذا كنت تعنى منذ فترة عندما قلت لي إن الشيء الحقيقي يختلف ؟ ألسنت إنسانة حقيقية ؟ لماذا قلت مثل هذا الشيء الرهيب ؟

— أكان رهيباً إلى هذا الحد ؟

— أنت تعلم كم كان رهيباً . ما هو الشيء الحقيقي ؟

— المرأة

— أية امرأة ؟

فتنصن جبينه وهز رأسه . وجاهد في بسالة ليحتفظ بشعوره بالعظمة ، فإلتصاع الاحتفاظ بقدر كبير منه وترك محفتها عند

الباب الأيوسى ، وذهب إلى قائد حرس الباب وقال له فى
شبه جفاء :

— ابرث معها فصيلة من الجنود لتوصيلها حتى بيتها فى سلام .

فأطاع القائد ، ورحلت هيلينا فى رعايتهم ، دون حتى تحية
المساء . ووقف كراسوس يفكر ، فى الظل القاتم للباب . وراح
قائد حرس الباب والقوات المنوط بها حراسته برفيقه فى حب
استطلاع ، ثم سأل كراسوس .

— ما الوقت الآن ؟

— الساعة الأخيرة على وشك النهاية . ألسنت متعباً يا سيدى ؟
فقال كراسوس .

— لا لست متعباً ، لست متعباً على الإطلاق أيها القائد .

ورق صوته بعض الشيء . ثم قال :

— لقد مضى وقت طويل منذ أن وقفت مثل وقفة الحراسة
هذه .

فأقره قائد الحرس قائلاً :

— الليل طويلاً جداً . بعد نصف ساعة من الآن ، سيصبح

هذا المكان مختلفاً تمام الاختلاف . سيدخل تجار الخضروات ،
وباعة اللبن يجرون أبقارهم ، والجمالون وصيادو السمك ، ومن
على شاكلتهم بلا انقطاع . هذا باب كثير الزحام . وفي هذا الصباح
يصعد المجالد هناك .

وأشار برأسه إلى الصليب الذي كان قد أصبح عند ذلك
لا يكاد يبين ، رمادى اللون ، ونصف ظاهر في عتمة الصباح .
وسأله كراسوس .

— هل يزدحم خاق كثير ؟

— حسن ، ياسيدي - لن يشتد الزحام في البداية ، ولكنه
سيزداد مع تقدم النهار . ويجب أن أعترف أن لمشاهدة رجل
مصلوب سحراً خاصاً . وعند ما يحل ظهر اليوم ، سيزدحم الباب
والأسوار المحيطة بنا هنا ازدحاماً شديداً . قد تظن أن في مشاهدة
الصلب مرة واحدة الكفاية ، لكن ما يحدث غير هذا .

— ومن الرجل ؟

— هذا مالا أعرفه . مجرد مجالد بقدر ما أعرف . مجالد قوى
جداً فيما أعتقد . وأكد أشعر بالأسف على الشيطان التعس .

فقال له كراسوس .

— وفر أسفك أيها القائد .

(م - ٨ سبارناكوس)

— لم أقصد ذلك ياسيدي . إنما قصدت فقط أن المرء يحس شيئاً على الدوام نحو المتبقى من التصفية .

— لو أنك تتذوق الاحتمالات الحسابية ، لعرفت أن عملية تصفيتهم بدأت منذ زمن بعيد ، ومن الضروري أن يكون لها رجل آخر .
— أظن ذلك .

وانتهت الساعة الأخيرة . وبدأت الساعة الأولى مع نوز الصباح وكان ضوء القمر قد حال ، وأصبحت السماء كاللبن العسكر ، وهبط ضباب الصباح كالارض البور في كل مكان ، فيما عدا حيث امتد الخط الداكن للطريق العظيم بلا نهاية نحو الشمال . وينصب الصليب عارياً كثيباً تجاه السماء التي بدأ النور يغمرها . وفي الشرق ، بعيداً ، كان وهج قرمزي شاحب يبشر بالشمس المشرقة . وسر كراسوس أنه قرر ألا ينام ، ورحبت حالته النفسية بما في بداية الشروق من حلاوة مرة معذبة بالأمال الكاذبة ، فالفجر على الدوام مزيج من الأسف والمجد .

وجاء حينذاك صبي صغير في حوالى الحادية عشرة من عمره يسير وهو يحمل إبريقاً في يده . وحياء قائم حرس الباب وأخذ الإبريق منه .

وقال يشرح لكراسوس :

— هذا ابني . إنه يحضر لي النبيذ الساخن كل صباح . هلا
حينته ياسيدي ؟ سيعني ذلك شيئاً كبيراً بالنسبة له . وسيدكره فيما
بعد . كنيته لكتوس أما اسمه الحقيقي فهو ماريوس . أنا أعرف
أن من الجرأة أن أطلب ذلك منك ياسيدي ، لكن ذلك سيعني
شيئاً كبيراً له ولي .

فقال كراسوس .

— مرحى ماريوس لكتوس .

فقال له الصبي الصغير ،

— أنا أعرفك . أنت القائد . رأيتك بالأمس . أين درع
صدرك الذهبي ؟

— إنه من النحاس وليس من الذهب ، وخلعته لأنه كان يضايقني

— عندما يصبح لي درع فلن أخلعه أبداً .

ففكر كراسوس لنفسه قائلاً .

— هكذا تعيش روما ، ويعيش مجد روما وتقاليد روما أبداً .

وكان المشهد قد مسه مساً قوياً — بطريقة مما . وقدم له قائد

الحرس الإبريق .

— أتشرب ياسيدي ؟

فهز كراسوس رأسه ، وعند ذلك دوى قرع الطبول على

مبعدة ، فأعطى قائد الحرس الإبريق للصبى ليحمله ، وصاح يصدر
أوامره إلى فصيلة الجنود المنوطة بالباب . واصطف الجنود على
طول كل من المصراعين للباب المفتوح ، ودروعهم ترتكز على
الأرض إلى جانهم ، وحرابهم الثقيلة مشرعة عالية في الهواء . كان
من العسير على الجنود أن يتحركوا ، فأزعج ذلك كراسوس ، لأنه
شك في أنه لو لم يكن موجودا هناك ، لما أغرقوا في الاستعراضات
العسكرية : وزاد قرع الطبول ، وما لبثت الصفوف الأمامية من
فرقة موسيقية عسكرية ، أن ظهرت في الطريق العريض الذي يصل
بين الباب والساحة العامة . وكانت الشمس الطالعة ، قد لامست
حينذاك قمم المباني العالية . وبدأ في نفس الوقت تقريبا قليل من
الناس يظهرن في الشوارع متجهين إلى الباب وإلى صوت
الموسيقى العسكرية .

تقدمت ستة طبول ، وأربع صفارات ، ثم ستة من الجنود ،
ثم المجالد عاريا وذراعا مقيدتان بدقة خلف ظهره . ثم اثنا
عشر جنديا آخرون . كانت فصيلة كبيرة بالنسبة لرجل واحد ،
ولا يبدو على هذا الرجل أنه شديد الخطر أو شديد القوة . وعندما
ازداد اقترابا ، استرجع كراسوس رأيه ، خطر بلاشك — مثل
هؤلاء الرجال خطرون . وأنت ترى ذلك في وجهه ، إذ لا تجد في
وجهه شيئا من حرارة العاطفة أو الصراحة التي يراها المرء في وجه
الروماني . فوجهه كالصقر ، أنف معقوف بارز ، والجلد مشدود

بقوة على عظام خد عالية ، شفاه رقيقة ، وعينان خضراوان
فيهما كراهية كعين القط . ووجهه مليء بالكراهية . لكنها ليست
كراهية معبرة ، ككراهية الحيوان ، وكان الوجه كالتفاح . من
ناحية الحجم ، لم يكن ضخما ، لكن عضلات جسده كالجلد والسوط
المجدول . ولم يكن بجسده إلا جرحان حديثان : واحد مستعرض
في أعلى صدره ، والثاني في خاصرته ، لكنهما ليسا عميقين ، والدم
قد تجمد فوقهما . إلا أن تحت الجرحين وفوق كل جسده كانت آثار
الجروح تبدو كالفماش المزركش حقيقة . وكان ينقص إحدى يديه
أصبع ، بينما قطعت إحدى أذنيه كلها حتى الجمجمة .

وعندما شاهد الضابط قائد الفصيلة كراسوس ، رفع ذراعه
بأمر رجاله بالوقوف . ثم خطا مقتربا وجبا القائد . وكان من الواضح
أن الضابط مليء بمعنى تلك اللحظة . وقال :

— لم أحلم قط ، بأنى سأنال الشرف والحظوة برويتك هنا
ياسيدي .

فأخنى كراسوس رأسه وقال :

— إنه حادث سعيد .

ولم يكن هو الآخر بمستطيع أن يهرب من الشعور بالاتصال
المطابق للموقف بينه وبين ذلك الرجل ، آخر من تبقى من حرب
العبيد .

— أتضعه على الصليب الآن ؟

— هذه هي التعليمات التي صدرت إلى .

من هو ؟ أعني المجالد . من الواضح أنه مجالد قديم العهد بالمجتلد .
فأثر السيف في كل مكان على جسده ، لكن ، أتعرف من هو ؟

— معلوماً عنه قليلة . فقد كان ضابطاً ، ويقود كتيبة أو

أكثر من ذلك ربما . ويبدو أنه يهودى كذلك . فقد كان لدى باتياتوس
عدد من اليهود ، وهم يفوقون التراقيين في القتال بالسكين المقوس في
كثير من الأحيان . بل إن باتياتوس ، في حقيقة الأمر ، قدم شهادة
بخصوص يهودى يدعى داود ، كان واحداً من القادة الأصليين
للفتنة مع مبارتا كوس . قد يكون هذا هو اليهودى داود ، وقد
لا يكون . فهو لم ينطق بحرف واحد منذ أن أحضروه إلى هنا ليشارك
في التصفية . وقد قاتل ببراعة فائقة — يا إلهى ، لم أر في حياتى مثل
هذا القتال بالسكين : اشترك في قتال مزدوج خمس مرات ، وهذا
هو سلباً غير مصاب إلا بجرحين في جسده . شاهدت جلاده ثلاث
مرات بنفسى ، ولم أر في حياتى أى قتال بالسكين أفضل من ذلك .
وعرف في النهاية أنه سيصلب ، ومع ذلك فقد قاتل كما لو كان نصره
سيختم بالحرية . أنا لا أستطيع أن أفهم هذا .

— لا — حسن ، الحياة عملية غريبة أيها الشاب .

— أجل ياسيدى ، أنا أوافقك على ذلك .

وقال كراسوس في تفكيره :

- لو كان هذا هو اليهودى داود ، فهناك عدالة ساخرة في
نهاية الأمر . أستطيع أن أتحدث إليه ؟

- طبعاً ، طبعاً . ومع ذلك ، فلا أظن أنك ستحصل منه على
ما يرضيك . فهو وحش ، عنيد ، صامت .

- لا تجرب .

وذهب إلى حيث يقف المجالد ، وقد أحاط به عند ذلك جمهور
متزايد من الناس ، اضطر الجنود إلى ردهم إلى الوراء وأعلن
الضابط في زهو وخيلاء .

- أيها المجالد ، لقد تالك شرف لم ينله سواك . هذا هو القائد
ماركوس ليكينيوس كراسوس يتنازل بالحديث إليك .

وعندما أعلن اسم القائد ، تعالت هتافات الجماهير ، ولكن
لا بد أن العبد كان أصم ، إذ لم يبد للاسم أو الهتافات أى رد
فعل من جانبه . وظل يحدق إلى الأمام دون أن يتحرك والتمت
عيناه كقطعتين من الحجر الأخضر ، ولكن لم يبد على وجهه أى
دليل آخر أو حركة .

وقال كراسوس

- أنت تعرفنى أيها المجالد . تطلع إلى .

ومع ذلك لم يتحرك المجالد العارى ، وهنا تقدم الضابط قائد
الفصيلة وصفعه على وجهه بيده المفتوحة . وصاح :

- من يخاطبك أيها الخنزير ؟

وصفعه مرة ثانية ، ولم يبد المقاتل أى محاولة لتفادى اللطمة ،
فأدرك كراسوس أن ذلك إذا استمر ، فإن ينتزع منه شيئاً له
قيمة . فقال كراسوس

- فى هذا الكفاية أيها الضابط . دعه وشأنه ، وانفض
بما كلفت بعمله .

- أنا شديد الأسف . لكنه لم يتكلم . لعله لا يستطيع
الكلام . فلم يره أحد يتكلم حتى مع رفاقه .
فقال كراسوس

- لا أهمية لذلك .

وراح يراقبهم وهم يتقدمون خارجين من الباب إلى الصليب .
وكان تيار مستمر من الناس قد أخذ يتدفق عند ذاك خارجاً من
الباب ، وما يلبث أن ينتشر على الطريق حيث تتاح لهم رؤية سير
العملية من عل دون أن يعترضهم شئ . واخترق كراسوس
الجمهير حتى قاعدة الصليب ، يدفعه حب الاستطلاع على الرغم
منه ، لمعرفة رد الفعل بالنسبة للعبيد . فقد أصبحت مقدرة الرجل

الحجرية على حبس الكلام لونا من التحدى ، وبدأ كراسوس ،
الذى لم ير من قبل رجلا .. مهما كانت صلابته .. يصلب في صمت ،
يفسك في أى نوع من رد الفعل سيثيره هذا الصلب في الرجل .

وكان الجنود يحربون قدامى في عملية الصلب على صليب قائم .
ففضوا في عملهم في سرعة وخبرة : مرروا حبلا تحت ذراعى العبد
الذى كان مازال مكتوفا ومقيدا . وظلوا يمررون الحبل تحت ذراعيه
حتى تساوى الطولان . وكان السلم الذى تركه العبيد هناك فى الليلة
السابقة مسنودا إلى الصليب . وألقوا بطرفى الحبل فوق ذراعى
الصليب ، وأمسك اثنان من الجنود بنهاية الطرفين . وعند ذلك ،
وفى مهارة وسرعة ، شد المجالد إلى أعلى حتى وصل إلى العمود
المستعرض من الصليب تقريبا . ثم صعد جندي آخر على السلم ،
وسهل رفع المجالد إلى أعلى ، بينما ظل الآخران تحته يشدان الحبال .
أصبح المجالد عند ذلك معلقا وكشفاه تحت النقطة التى تلتقى فيها
الشريحتان الخشبيتان بقليل . وقفز الجندي الواقف على السلم
إلى العمود المستعرض من الصليب ، وصعد جندي آخر على
السلم يحمل مطرقة وعددا من المسامير الحديدية الطويلة ، وامتطى
الذراع الآخر من العمود المستعرض .

وخلال ذلك راح كراسوس يرقب المجالد فى اهتمام .
وعلى الرغم من أن جسده العارى تقلص عندما رفعوه إلى أعلى

فاحتك بخشب الصليب الحشن ، فقد ظل وجهه بلا تأثر ، مثلما
ظل بلا تأثر مع ضغط الحبل المؤلم على لحمه ، وظل معلقا جامدا ،
بلا حراك ، بينما لف الجندي الأول الحبل حول صدره وتحت
ذراعيه ، وعقد الحبل حول العامود المستعرض . ثم سحبوا
الحبل الأول من حول جسده وألقوا به إلى الأرض . وقطعوا
الحبل الذي كان يقيد يديه ، وسحب كل جندي ذراعا من ذراعيه
وعقد الحبل حول العامود المستعرض . ثم سحبوا الحبل الأول
من حول جسده وألقوا به إلى الأرض : وقطعوا الحبل الذي كان
يقيد به ، وسحب كل جندي ذراعا من ذراعيه وقيدها بلفة من
الحبل حول الرسغ إلى العامود المستعرض . ولم يبد الألم على
المجالد فعلا ، إلا بعد أن أرغمه الجندي الثاني على فتح راحته ،
ووضع طرف المسمار الحار عليها ، وغرس المسمار في الخشب
بطرقة واحدة قوية . حتى حينذاك لم يتكلم ولم يصرخ ، ليكن
وجهه التوى وراح جسده ينثني في تشنجات عصبية . وغرست
ثلاث طرقات أخرى المسمار خمس بوصات من الخشب ، وثبتت
طرفة أخيرة رأس المسمار كي لا تنزلق اليد منه . ثم تسكررت نفس
العملية مع اليد الأخرى ، وتلوى جسد المجالد في ألم رهيب البرة
الثانية ، والتوى وجهه مرة ثانية عندما اخترق المسمار عضلات
وأعصاب يده . ومع ذلك لم يصرخ ، حتى على الرغم من الدموع

التي تساقطت من عينيه ، والمعاب الذي تقاطر من فيه المفتوح .
عند ذاك قطعوا الحبل الدائر حول صدره كي يتعلق جسده
كله من يديه اللهم إلا من حبل يدور حول كل من رسغيه ليقلل
الثقل على المسمارين . وهبط الجنود السلم ، وأخذوه بعيداً، وهللت
الجاهير — التي زادت عن المئات من الناس عند ذاك — للبراعة
التي صابت رجلاً في دقائق قليلة ليس إلا .

ثم أغشى على المجالد .

وقال الضابط يشرح لسكراسوس .

— كلهم يغشى عليهم عادة . الصدمة التي يحدثها دخول المسامير
هي السبب في ذلك . لكنهم يسترجعون وعيهم دائماً ، وقد تمر
أحياناً عشرون أو ثلاثون ساعة قبل أن يغشى عليهم من جديد .
صلبتنا يوماً عبداً غالباً ظل غلى وعيه أربعة أيام . بح صوته فلم
يعد يستطيع الصراخ بعد ذلك ، لكنه ظل واعياً .

ومع ذلك فقد فقد وعيه عندما دقوا المسامير في يديه . يا إلهي !

أنا عطشان .

ونزع الغطاء عن قارورة الماء وشرب طويلاً ثم قدمها لسكراسوس

قائلاً :

— ماء الورد ؟

فقال كراسوس :

— شكراً لك .

فقد أحس فجأة أن حلقه جاف وأنه متعب ، فشرب كل ما تبقى في القارورة . وكانت الجماهير ما زالت في ازدياد . وسأل كراسوس وهريشير إليها برأسه .

— هل يظنون هنا طيلة اليوم ؟

— تبقى غالبيتهم حتى يستعيد وعيه فقط . لأنهم يرغبون في مشاهدة ما يفعله عند ذلك . فهم يفعلون أشياء مضحكة . كثير منهم يصبح منادياً أمه . أنت لا تفكر في العيب بهذه الصرورة أبداً أليس كذلك ؟

فهز كراسوس كتفيه ومضى الضابط يقول :

— سأضطر إلى أن أخلى ذلك الطريق ، فهم يعوقون المرور . قد تظن أن عندهم من الإدراك ما يجعلهم يتركون جانباً من الطريق مفتوحاً . لكن لا . أبداً . كلهم سواء . الجمهور لا إدراك عنده على الإطلاق .

وأمر اثنين من الجنود بأن يفسحا من الطريق ما يكفي لحركة المرور .

وقال لكراسوس :

— أنا أتساءل . أتساءل هل أستطيع إزعاجك بشأن أمر ما ياسيدي . قد لا يكون ذلك من شئوني ، لكن حب استطلاعى شديد لمعرفة السبب فى قولك منذ قليل إنه إذ كان هذا هو اليهودى داود ، فى ذلك عدالة ساخرة أو شيئاً من هذا القبيل .
فسأله كراسوس قائلاً .

— هل قلت ذلك ؟ لا أدرى ماذا قصدت ، أو ما كنت أنوى قوله .

لقد انتهى الأمر . ويجب أن يبقى كثير من الماضى مطويًا فى هدوء ، وليس فى حرب العبيد إلا بمجد ضئيل : أما الانتصارات ، والتقدير العظيمة فهى للآخرين ، أما بالنسبة له ، فليس له إلا المرضاة الصادرة عن المذبح الحقيقى المتمثل فى عملية الصلب . كم هو متعب من القتل والموت والتعذيب . لكن أين يذهب المرء ليهرب من ذلك ؟ إنهم يخلقون يوماً بعد يوم مجتمعاً تنهض الحياة فيه على الموت . لم يحدث من قبل فى كل تاريخ العالم أن سموا بالذبح إلى مثل هذا المستوى من الدقة والكمية — وأن ينتهى ؟ ومتى ينتهى ؟ وتذكر فى تلك اللحظة حادثاً وقع بعد أن تولى قيادة قوات روما المهزومة المحطمة معنواً بالفترة قصيرة . كان قد أعطى قيادة ثلاثة فيالق لصديقه ورفيق طفولته بيليكو مامبوس ، وهو رجل اشترك بالفعل فى حملتين هامتين ، ووجه مامبوس إلى أن يناوش سبارتاكوس

ويعرف هل كان في وسعه أن يقطع جزءاً من قواته . لكن مامبوس ، بدلاً من ذلك ، وقع في كمين ، وعندما وجدت الفيالق الثلاثة نفسها في مواجهة العبيد فجأة ، فرت ، في زعر مخجل أعمى ، لم يصب مثله جيشاً رومانيا من قبل . وتذكر الصفات التي نعتها بها ، والالتهامات بالجبن التي قذفه بها . لكن المرء لا يستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك مع رجل مثل مامبوس . أما بالنسبة للفيالق فقد اختلف الأمر ، فقد صف خمسة آلاف رجل من جنود الفيالق السابع ، وانتزع رجلاً من كل عشرة رجال من الصفوف وأعدمهم بتهمة الجبن . وقال له مامبوس فيما بعد :

— كان من الواجب أن تقتلني .

فكر عندئذ في ذلك بكل وضوح وبكل دقة — فقد كان مامبوس والقنصل السابق ماركوس سرفيوس هما اللذان يرمزان بالنسبة له لكرهيته العميقة للعبيد ، لا يستطيع المرء أن يفصل الصدق فيها عن الكذب . فقد كان ماركوس سرفيوس مسترلاً إلى حد ما عن موت رفيق سبارتاكوس الحبيب ، وهو غالى يدعى كريكسوس ، الذي عزلت قواته وحوصر وقتى هو وجيشه . لذلك قيل ، عندما وقع سرفيوس ومامبوس في أسر سبارتاكوس بعد ذلك بفترة طويلة وحوكما أمام محكمة العبيد ، قيل إن يهودياً يدعى داود جادل حول طريقة إعدامهما أو لعل اليهودى المدعو داود قد جادل ضد طريقة إعدامهما . كراسوس ليس متأكداً . فقد ماتا كائنين من المجالدين : نزعوا عنهما أيابهما ، هذين القائدين

للجيوش الرومانية المتوسطة العمر ، وأعطوا كلا منهما سكيناً
ودفعوا بهما إلى مجتهد أعد خصيصاً ليقاتل كل منهما الآخر حتى
الموت . وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي أقدم فيها سبارتاكوس
على مثل هذا العمل ، لكن كراسوس لم ينس ولم يغفر له ذلك قط .
لكن هذه القصة لم تكن بالشيء الذي يستطيع أن يرويه
للضابط ، وهو واقف هناك في ظل الصليب .

وقال كراسوس :

— لا أدري ماذا كنت أقصد . لم يكن ذلك بالأمر الهام :

وكان متعباً فقرر أن يعود إلى بيته الربيعي وبينام .

كان لب الموضوع ، هو أن كراسوس لم يكن ليعبأ كثيراً بمسألة هل صلب آخر المجالدين يمثل العدالة في ضوء هذه الحقائق المعينة بالذات أم لا . فقد ضعف إحساسه بالعدالة ، وتضاءل إحساسه بالانتقام ، ولم يعد في الموت جديد من أى نوع . فقد ملأته إبان طفولته ، شأن أطقال كثير من الأسرات الممتازة في الجمهورية ، أساطير البطولة في الماضي . وآمن إيماناً كاملاً شاملاً بأن روما فوق البشر و فوق الأحداث . وأن الدولة والقانون يخدمان كل الناس وأن القانون عادل . وهو لا يستطيع أن يحدد بالضبط عند أية نقطة فقد إيمانه بذلك - ومع هذا فهو لم يفقد إيمانه كله قط . فهو ما زال يحتفظ في جهة ما داخل نفسه بقليل من الوهم ، ومع ذلك فهو الذى استطاع يوماً أن يحدد ما هي العدالة بمثل هذا الوضوح ، لم يعد يتوى على ذلك اليوم . وهو قد شاهد منذ عشرة أعوام مضت أباه وأخاه يعدمان على أيدي زعماء الحزب المعارض ، ولم تنتقم لها العدالة قط . ومن هنا زادت الحدة في نفسه حول ما هو عدل وما هو ليس عدلاً بدلاً من أن تقل ، ولم يستطع أن يصل إلى تفسير للأمر يقبله العقل ، إلا على أساس القوة والثروة فقط . فقد أصبحت العدالة تعنى في كل منطق عدم المساس بالثروة والسلطان واختفت تدريجياً أهمية القواعد الأخلاقية التى تناول ذلك . لذلك

لم يشعر؛ وهو يرى بنفسه المجالد الأخير يصلب ، بإحساس العظمة
لتحقيق رغبات الآلهة . والواقع أنه لم يحس شيئاً على الإطلاق .
والحقيقة البسيطة أنه لم يتأثر .

ومع ذلك فقد كانت الأسئلة التي تتناول العدالة والظلم تدور في
ذهن المجالد — وكانت الأسئلة مختلطة متداخلة في الغيبوبة التي
نتجت عن الألم والصدمة والإرهاق . كانت متداخلة في خيوط
ذاكرته التي لا حضر لها . وكان من الممكن ألا يستطيع فك هذه
الخيوط . وكان من الممكن أن يستخلصها من موجات العذاب
النافذة المعمية . وفي جهة مامن ذهنه ، كانت ذكرى الحادث الذي
أشار إليه كراسوس محفوظة في وضوح ودقة .

كانت المسألة مسألة عدالة بالنسبة للمجالد كما كانت بالنسبة
لكراسوس . فقد قيل فيما بعد ، عندما دون تاريخ ما فعله العبيد ،
أولئك الذين كرهوا العبيد في مرارة كبيرة ، وأولئك الذين لم
يعرفوا بما فعله العبيد إلا أقل القليل ، قيل إنهم كانوا يأخذون
الأسرى الرومانيين الذين في حوزتهم ويجعلون الواحد منهم يقتل
الآخر .

وعلى هذا أصبح من المسلم به — كما اعتاد السادة أن يعتبروا كل
شيء ، أمراً مسلماً به — أن السلطان عندما ينتقل إلى المضطهدين ،
فإن هؤلاء يستعملون السلطان بنفس الطريقة التي كان مضطهدوهم
يستعملونه بها .

وكان ذلك محفوظاً في ذاكرة الرجل المدلى من الصليب .

لم يحدث قط أن أقيم احتفال للذبح على طريقة المجالدين ، عدا هذه المرة الواحدة، عندما أشار سبارتا كوس إلى النبيلين الرومانيين في عاطفة مكبوتة من الغضب والكرهية وقال :

— كما فعلنا ، ستفعلان . اذهبا إلى الرمال عاريين ومعكما سكينان ، كي تتعلما كيف كنا نموت لتثقيف روما ولبهجة مواطنيها .

وكان اليهودي جالساً هناك في تلك اللحظة ، يصغى في صمت ، وعندما أخذوا الرومانيين ، استدار له سبارتا كوس ومع ذلك لم يقل اليهودي شيئاً . كانت رابطة كبيرة ، صلة عميقة قد نمت فيما بينهما ، فقد تضاهل مع مر السنين وخلال المعارك الكثيرة ، عدد الجماعة القليلة من المجالدين الذين فروا من كاپوا . فقد دفعت الجماعة ضريبة خاصة من أرواح بنينا ، ومن هنا ازدادت الحفنة التي بقيت كقادة لجيش العبيد الضخم التحاماً والتصاقاً .

تطلع سبارتا كوس عند ذلك إلى اليهودي وسأله .

— هل أنا على صواب ؟ أم أنا على خطأ ؟

— ماهو صواب بالنسبة لهم ، ليس صواباً بالنسبة لنا أبداً .

— ليتقاتلا .

— ليتقاتلا إذا أردت أنت ذلك . وليقتل كل منهما الآخر .

لكن ذلك سيؤذي بنا بنسبة أكبر . سيصبح ذلك دودة تأكل حشايانا .

فأنت وأنا مجالدان . منذ زمن بعيد قلت إننا ستمحو حتى ذكرى

قتال الأرواحي، على وجه الأرض .

فإنه . لكن هذين الاثنين يجب أن يتقاتلا .

هذا المسمى هناك ، جزء صغير من ذاكرة رجل

المسامير في حاله ، رأسوس قد تقطع إلى عينيه ، وكراهه

قد راقبه وهو الصلب . دائرة كبيرة قد اكتملت . وعاد كرأسوس

إلى بيته لينام ، لأنه لم يتم طيلة الليل ، وأصابه التعب كما هو متوقع

بينما ظل خالد يتدلى وقد الوعى من المسامير .

مر قرابة الساعة قبل أن تعود اليقظة إلى المجالد . فالألم
كالتريق ، واليقظة تسافر على طريق الألم . ولو أن كل حواسه
ومشاعره شددت كجلد الطبل ، فهناك من يقرع الطبل في تلك
المحظة ، والموسيقى لا تحتل ، وهو لم يستيقظ إلا على معرفة الألم .
ولم يكن يعرف أى شىء آخر في عالم الألم . فقد كان الألم هو العالم
بأسره . وهو الأخير من ستة آلاف من رفاقه كانت الآلامهم
كآلامه ، لكن ألمه هو كان من الضخامة إلى حد لا يمكن تقسيمه
أو المشاركة فيه . وفتح عينيه ، ولكن الألم كان كغشاوة حمراء تفصل
بينه وبين العالم . كان كدودة صغيرة ، كدودة تتطور إلى فراشة ،
فتصبح يرقة في شرنقة ، والشرنقة منسوجة من الألم .

لم يعد إليه وعيه دفعة واحدة بل في موجات . . كانت المركبة
التي يعرفها خير معرفة هي العربة الحربية ، وكان هو يركب في مركبة
حربية تصدم بالأرض فتتقارز وترنح في طريق عودته إلى الوعي .
كان صيباً صغيراً في بلد جبلي ، وكان القوم الكبار ، السادة
القادمون من بعيد ، المتحضرون النظفاء يركبون في مركبات حربية .
وكان هو يجرى على طول الممر الجبلي الصخري يضرع من أجل أن
يركبوه . وكان يصبح قائلاً .

— ياسيدى — سيدى دعنى أركب .

ولم يكن واحد منهم يتكلم لفتنه . لكنهم كانوا يسمحون له
ولأصدقائه في بعض الأحيان بالجلوس فوق ذيل المركبة . وكان
القوم الكبار كرماء . إذ كانوا يعطونه وأصدقائه الحلوى في بعض
الأحيان . وكانوا يضحكون من الطريقة التي يتعلق بها الصغار ذوو
الشعور السوداء الذين لوحتهم الشمس في ذيل المركبة . لكنهم غالبا
ما كانوا يهزون بسياطهم على الجياد لتسير ، فيتطاير الصغار نتيجة
للقفزة والحركة المفاجئة . حسن . لم يكن من المستطاع التكهن
بهوية القوم الكبار القادمين من العالم الغربي ، فتقبل الطيب منهم
مع الخبيث . لكنك عندما تقع من المركبة الحربية ، فالوقوع مؤلم .
ثم يدرك أنه لم يعد طفلا في تلال الجليل ، بل رجلا مدلى من
صليب . ويدرك ذلك في مناطق ، لأنه لم يكن في هذه اللحظة ،
يملك كيانه كاملا فيدرك ذلك في ذراعيه ، حيث استحالت الأعصاب
إلى أسلاك ابيضت لفرط حرارتها ، والدم الساخن يتدفق على
طول ذراعيه هابطا إلى السنام الملتوى لكتفيه ، ويدركه في بطنه
حيث استحالت معدته وأحشاؤه إلى عقد غاضبة من الألم والتوتر .
وكانت جماهير الناس التي ترقبه أمواجه متماوجة حقيقية وغير
حقيقية . فبصره ليس على طبيعته عند هذه النقطة . فهو لا يستطيع
أن يحقق البصر كما يجب ، ويرى الناس يطوون وينثرون كما يحدث
للصورة تحت زجاج محدب . ورأى الناس بدورهم أن المجالد يعود
إلى وعيه ، فراحوا يرقبونه في شوق : لو أن ذلك كان مجرد صلب

آخر ، لما كان في المناسبة أى جديد . فالصلب كان شائعا جدا في روما . فعندما غزت روما قرطاجنة قبل ذلك الوقت بأربعة أجيال أخذت عنها أحسن ما استوت عليه : نظام المزارع ، والصلب ، الذى كان غنيمة لها قيمتها بين الغنائم . فقد استهوى روما شكل الصليب والرجل يتدلى منه . واليوم نسى العالم أن الصلب كان قرطاجنيا في الأصل ، لأنه أصبح رمزا للحضارة في كل أنحاء العالم ، وحيثما تمتد الطرق الرومانية يذهب الصليب ونظام المزارع ، وقتال الأزواج ، والاحتقار الهائل للحياة الإنسانية المستعبدة ، والاندفاع الكبير إلى اعتصار الذهب من دم وعرق البشر .

ولكن ، حتى أحسن الأشياء يفقد رونقه مع الزمن ، ويصبح أطيب الأبنذة مملا عندما ينهل منه المرء الكثير . وتضع عاطفة الرجل الواحد في عواطف الآلاف . ولم يكن أى صلب آخر ليخرج الجماهير من بيوتها . لكن ذلك كان موت بطل مجالد عظيم ، ضابط من ضباط سبارتا كوس ، مجالد خالد ، مجالد رائع فاز وعاش بعد القتال بلا نهاية . وفي الدور الذى يقوم به المجالد تناقض مشير لحب الاستطلاع على الدوام ، فهو العبد الذى يعدونه للوت ، أوهو الدمية المقاتلة . أكثر العبيد حقارة بين المحتقرين . ومع ذلك فهو ، في وقت واحد ، الباقى الوحيد فى الميدان الدموى للمعركة . لهذا خرجت الجماهير لترى المجالد وهو يموت . وترى كيف سيحيى السر الكبير الذى يشترك فيه كل البشر . وترى كيف

سيملك بعد أن دقت المسامير في يديه . وكان هو شخصا غريبا
انطوى على نفسه في صمت . فجاءوا ليروا هل الصمت سيتحطم .
وعندما لم يفلح دق المسامير في تحطيم ذلك الصمت . فقد تلكثروا
ليروا هل يتحطم الصمت عندما يفتح عينيه على العالم من جديد .
وقد تحطم الصمت . فعندما رأى الجماهير في النهاية ، وعندما
كفت الصور المرتبة عن التراقص أمام عينيه . صرخ صرخة ألم
وعذاب رهيب .

والظاهر أن أحدا لم يفهم كلماته . ودارت المحاولات حول ما
قاله في الانفجارية الصوتية المعذبة . إذ كان البعض قد راهن على
مسألته هل يتكلم أم يظل صامتا . ودفع البعض قيمة الرهانات ،
ورفض البعض الآخر أن يدافع وسط مشاجرات غاضبة حول
مسألته، هل نطق بكلمات ، أو كانت الصرخة مجرد صرخة ألم ، أو هل
تكلم بلغة أجنبية . وقال البعض إنه كان يستجير بالآلهة . وقال
آخرون إنه كان ينشج مناديا أمه .

والحقيقة أن صرخته لم تكن شيئا من الاثنين لأنه في الحقيقة
صرخ يقول :

— سبارتا كوس ، سبارتا كوس ، لماذا فشلنا ؟

لو كان من المستطاع ، بطريقة معجزة ، فتح عقول وأذهان الآلاف الستة من الرجال الذين أسروا بعد نشل قضية سبارتا كوس وسقوطها إلى تراب التاريخ ، وتعريفها ورسم خريطة لها ليستطيع المرء أن يتتبع ، عائدًا من لحظة الصلب ، خيوط الماضي المتشابكة المطوية التي انتهت بهم إلى الصليب — لو كان في الإمكان رسم ستة آلاف خريطة لستة آلاف حياة بشرية ، ربما أمكن أن نرى أن ماضى الكثيرين منهم لا يختلف في كثير . ومن هنا فمن المحتمل ألا تختلف الآلهة في النهاية في كثير لأنها آلام مشتركة ممزجة . ولو أن في السماوات آلهة أوربا وكانت دموعهم أمطارا ، إذن لأمرت الدنيا أياما وأياما ، لكن الشمس ، بدلا من ذلك ، قضت على بؤسهم ، ونهشت الطيور لجهم الدامي ، ومات الرجال .

وكان ذلك الرجل آخر واحد يموت ، وكان خلاصة الآخرين . كان ذهنه يمتليء بمجمل الحياة الإنسانية ، إلا أن الإنسان في مثل هذا الألم لا يفكر ، وتغدو الذكريات كالأحلام المفزعة . ولا يمكن ترتيب ذكرياته كما تعود إليه لأنها تصبح عديمة المعنى إذا فصلناها عن انعكاسات الألم . ولكن في الإمكان تصنيف قصة من ذكرياته ، ومن الممكن إعادة ترتيب الذكريات لتأخذ شكلا . وفي هذه الحالة ، لن يختلف الشكل كثيرا عن أشكال حياة الآخرين .

في حياته أربع فترات . الأولى فترة عدم المعرفة ، والثانية هي فترة المعرفة ، وهذه امتلأت بالكراهية ، وأصبح خلالها مخلوقا كاله كراهية . أما الثالثة فكانت فترة الأمل وزالت خلالها كراهيته وعرف فيها الحب العظيم والشعور بالزمانة لإخوانه من البشر . أما الفترة الرابعة فكانت فترة اليأس .

كان في فترة عدم المعرفة صبيا صغيرا . وفي تلك الفترة كانت السعادة ، وتألقت ضوء الشمس السائد يحيط به من كل جانب . وعندما بحث ذهنه المعبذب وهو معالق على الصايب ، عن الرطوبة والمهرب من الألم ، وجد تلك الرطوبة المباركة في تذاكر طفولته . فقد كانت الجبال الخضراء إبان طفولته رطبة جميلة ، وكانت مياه القنوات الجبلية تنحدر متألقة ، وقطعان الماعز السوداء ترعى على سفوح التلال . والتلال قد سويت إلى مدرجات غذيت بها أيد محبة . فكان الشعير ينمو كاللآلي ، والاعتاب تنمو كالياقوت والزرجد . وكان يلعب على سفوح التلال ، ويحوض في الجداول ، ويدوم في بحيرة الجليل الجميلة الواسعة . وكان يحرق كأنه حيوان صغير ، حرا ، برياً ، صحيحاً ، وكان إخوته وأخواته وأصدقائه يكونون مجتمعاً هو فيه حر مطمئن سعيد .

كان يعرف الله حتى في تلك الفترة ، وكانت لله عنده صورة واضحة أكيدة مفصلة بالنسبة لتصوره كطفل . فهو ينحدر من قوم سكنوا الجبال ، لهذا وضعوا الله فوق قمة لا يستطيع أن يحيا فيها .

فوق أعلى الجبال ، حيث لم يصعد إنسان من قبل ، كان الله . كان الله موجودا هناك وحده ، فالله واحد لا شريك له . [وكانت صورة الله في مخيلتهم رجلا عجوزا لا يكبر ولا يتقدم في السن ، تكسو لحيته صدره وتموج أرديته البيضاء التي تملأ السماء فجأة] . وكان إلها عادلا ، وإلها رحيمًا عادة ، لكنه كان على الدوام إلها منتقما . وكان الصبي الصغير يعرف ذلك . ولم يكن الصبي الصغير ليغيب ليلا أو نهارا عن عيني الله ، فالله يرى كل ما يعمل ، والله يعرف كل ما يدور بخلفه .

وكان ينحدر من قوم أتقياء ، قوم شديدي الورع . وكانت خشية الله تميز جنة بحياتهم ، داخلية في سداها ولحمتها ، كما ينسج الخيط داخل خارجا في العبادة . فكانوا عندما يرون قطعانهم يرتدون عباءات طويلة مخططة ، ترمز كل رساعة (شرابة) في هذه العباءات إلى جزء ما من خشيتهم من ربهم . وكانوا يصلون لله صباح مساء . فكانوا يصلون عندما يجلسون لتناول خبزهم ، وكانوا عندما يتناولون قدحا من النبيذ يحمدون الله ويشكرون فضله ، حتى عندما كانت تحمل بهم المصيبة ، كانوا يحمدون الله كيلا يظن أنهم مستاءون لما أصابهم وأن الكبر قد نالهم .

لذلك لم يكن من المستغرب أن يمتليء الصبي ، الطفل الذي أصبح اليوم رجلا يتدلى من الصليب ، بمعرفة ووجود الله . كان الطفل يخاف الله ، وكان ربه ربا يخافه الإنسان ، لكن الخوف

كان نغما خفيفا بالنسبة لضوء الشمس السائد ، ولرطوبة الجبال
والقنوات الجبلية . فكان الطفل يجرى ويضحك وينشد الأغاني ،
ويرعى الماعز والأغنام ، ويرقب الصبيان من يكبرونه وهم يتبارون
في رمي السكين الجليلي الحاد كاللوسى ، السكين الذي كانوا يحملونه
في أحزمتهم في كبرياء . وكان له سكينه الخاص الذي نحتته من
الخشب ، والذي كان كثيرا ما يشترك به في مبارزات تقليدية
ساخرة مع إخوته وأصدقائه .

وكان إذا ما أجاد المبارزة ، أشار الصبية الكبار برؤوسهم
إليه في حسد ، وقالوا .

— كالتراقي ، أيها الصغير ، أيها القرد ، أيها المسخ .

وكان التراقي بالنسبة لهم هو كل ما هو شر ، وهو كل من هو
بارع في القتال كذلك . فمذ زمن بعيد ، بعيد جدا ، جاء الجنود
المرتزقة إلى البلاد . ومرت سنوات عديدة من القتال قبل أن
يطردوا الجنود المرتزقة ويقتلوهم . وكان اسم أولئك الجنود ،
المرتزقة التراقيين ، لكن الصبي الصغير لم ير واحدا منهم قط .

وكان يتطلع إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن يثبت سكينه في
حزامه إلى جانبه ، وعندذاك يرون هل كان في مثل وحشية التراقي .
ومع ذلك فلم يكن كثير الوحشية ، إنما كان صبيا صغيرا رقيقا
وسعيدا إلى حد كبير .

كانت تلك هي فترة عدم المعرفة .

أما في الفترة الثانية من حياته ، في فترة المعرفة ، لم يعد طفلاً ، وغام ضوء الشمس السائد وأفسح مكانه لريح تبعث الرعدة في البدن . فقد سحب حول نفسه ، مع الزمن ، عباءة من الكراهية ليحتمى بها ولتحميه . تلك هي الفترة التي كانت تنفذ خلال ذهنه في وعضات حادة من العذاب الأحمر وهو مدلى فوق الصليب . وكانت أفكاره عن تلك الفترة وحشية معوجة رهيبية ، وكانت الذكريات مبعثرة متداخلة كأجزاء اللغز التي تطلب بجمعها معا . شاهد تلك الفترة الثانية من حياته في كتل الجماهير المتماوجة التي كانت ترقبه . شاهدها في وجوههم ، وسمعها في الأصوات الصادرة عنهم . وبينما ظل غضبه نائراً لا يهدأ ، رجع بذكريته ، المرة بعد المرة ، إلى تلك الفترة الثانية من حياته ، فترة المعرفة .

أصبح في تلك الفترة يعي الأشياء ، وامتحت طفولته نتيجة لذلك الوعي . أصبح يعرف أباه ، رجلاً أسمر الوجه ، قسّاه العمل ، يعمل من مطلع الصباح حتى مهبط الليل — ومع ذلك فلم يذته ذلك الكدح قط . وعرف الأسي . وماتت أمه وبكسوها جميعاً . وعرف الضرائب ، ذلك لأنه على الرغم من كثرة ما كدّ أبوه ، لم يجد يوماً ما يكفي ملء بطونهم . مع أن الأرض كانت تعطى كأحسن ما تعطى أي أرض أخرى . وعرف الهوة الشاسعة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء .

وظلت الأصوات على ما هي عليه ، كما كانت من قبل ، إلا أن الفارق ، أنه عند ذلك كان يسمع الأصوات ويفهمها ، بينما كان يسمعه من قبل ولا يفهم معانيها . فعندما كان الرجال يتكلمون في ذلك الحين ، كانوا يسمعون له بأن يقف على مقربة . وأن يصغى ، وكانوا من قبل يحثونه على الخروج من المنزل لينصرف إلى لعبه .

كما أنهم أعطوه سكيناً ، لكن السكين لم يجلب معه السرور . فقد ذهب في أحد الأيام مع أبيه عبر التلال مسافة خمسة أميال كاملة ، إلى حيث كان رجل يشتغل في الحديد ، ومكثنا هناك ثلاث ساعات طويلة إلى جانب الكور ، بينما كان الحداد يطرق سكيناً له . وظل أبوه والحداد يتحدثان طول الوقت عن المصائب التي حاقت بالأرض ، وكيف يعتصرون الرجل الصغير . وبدأ كأن أباه وصانع الحديد يتباريان ، كل يظهر للآخر أنهم يعتصرونه أكثر منه .

قال الحداد :

— خذ هذا السكين مثلاً ، سأبيعه لك بأربعة دنائير . من هذا الثمن سأخذ جاني المعبد الربع عندما يأتي لتحصيل واجباته . وسأخذ محصل الضرائب الربع . يبقى لي بعد هذا ديناران . ولو أردت أن أصنع سكيناً آخر لوجب أن أدفع دينارين ثمناً للحديد . إذن أين ثمن عملي ؟ وأين ثمن القرن الذي يجب أن أشتريه بالقبض ؟

وأين ثمن الطعام الذي أطعم به أسرتي؟ أما إذا تقاضيت خمسة
دنانير ثمننا للسكين ، فسترتفع أثمان كل شيء تبعاً لذلك ، ومن الذي
سيقدم على الشراء مني إذا كان في استطاعته أن يشتري سكيناً من
حداد آخر وبثمن أقل؟ الله أرحم بك فأنت على الأقل تأخذ
طعامك من الأرض وتستطيع أن تملأ معدتك على الدوام .

ومع ذلك فقد كان لوالد الصبي رأى آخر . إذ قال :

— أنت تملك على الأقل قليلاً من النقود في يديك في بعض
الأحيان أما حالي أنا فهي كما يلي : أنا أحصد الشعير وأدرسه
وأملأ السلال ويلتسع الشعير كاللآلى . ونشكر الإله الكبير ، رب
الأرباب ، لأن شعيرنا يمثل هذا الجمال ومليء بكل هذا الغذاء .
ومنذا الذي يتعرض للمتاعب ومخزن غلاله يفيض بسلال الشعير
المتلأى؟ ولكن في تلك اللحظة يصل جاني المهدب ويأخذ ربع
الشعير للمهدب . ثم يأتي محصل الضرائب ويأخذ ربما آخر للضرائب .
وأضرع إليه وأوضح له أن ما تبقى من الشعير لا يكفي إلا لتغذية بهائمى
خلال الشتاء . فيقول لى . كل بهائمك إذن . وهذا هو الشيء الرهيب
الذى يضطر إلى عمله . وبذلك عندما يحين الوقت ، لانجد لحماً أوجباً ،
ويبكي الأطفال طلباً للطعام ، فنشد أقواسنا ونفكر في الأرانب
والغزلان القليلة الباقية على سفح الجبل . لكن لحماً نجس بالنسبة

للإلهودي إلا إذا بوركت ، وإلا إذا أحلت شرعا . على هذا بعثنا
بمخاضنا في الشتاء الماضي إلى أورشليم ليستعطف رجال المعبد .
وحاخامنا رجل طيب ، يجوع كما نجوع . لكن أياما خمسة مرت
وهو ينتظر في فناء المعبد ، قبل أن يرضى الكهنة بمقابلته . ثم أصغوا
إلى ضراعتهم في احتقار . ولم يعطوه حتى كسرة خبز ليسد جوعه
الشديد . وقالوا أما لعواء أهل الجليل هذا من نهاية ؟ فلاحوكم
كسالى ، يريدون الرقاد في الشمس ويأكلون المن . ليعملوا بجد
أكثر وليزرعوا مزيدا من الشعير . كان ذلك ما نصحوا به . لكن
أين يجد الفلاح مزيدا من الأرض ليزرع فيها مزيدا من الشعير ؟
وحتى إذا وجدنا المزيد من الأرض وزرعنا المزيد من الشعير ،
أتدري ما سيحدث ؟
فقال الحداد :

أعرف ما سيحدث . لن تحصلوا على أى زيادة في النهاية ،
فالأمر تسير بهذه الطريقة . يزداد الفقير فقرا ، ويزداد الغنى ثراء .
حدث ذلك عندما ذهب الصبي ليحصل على سكينه ، وما كان
الأمر ليختلف عن ذلك في قرينته . ففي القرية ، يحضر الجيران
عندما ينزل الليل إلى بيت أبيه الصغير ، البيت الذى كانوا يعيشون
فيه كلهم مزدحمين في غرفة واحدة . وهناك يجلسون ويتحدثون
حديثا لا نهاية له عن مدى صعوبة الحياة بالنسبة للفرد ، وكيف
أنهم يعتصرونهم ويعتصرونهم — وإلى متى سيدوم ذلك الحال ؟
وهل تستطيع أن تعتصر الدم من حجر .

كانت تلك أفكار الرجل المعلق على الصليب . وكانت تلك أجزاء مؤمنة من الذكرى مرتبطة بآلامه . لكنه كان يرغب في الحياة حتى وهو يتألم ، وحتى والألم يرتفع في موجات فوق الاحتمال ثم يهبط إلى موجات من الألم محتملة . هو مع ذلك يرغب في الحياة ، حتى بعد أن كتب عليه الموت وعلقوه فوق الصليب . أية قوة هي الحياة ، وأي دافع هي الحياة ، وأية أشياء يقدم عليها الناس عندما تصبح هذه الأشياء ضرورية لحقيقة البقاء البسيطة .

ولكن لماذا يحدث ذلك ؟ لم يكن يدري . فهو لم يضرع إلى الله وهو في آلامه ، لأن الله لا يمثل الرد على أسئلته أو التفسير لها . وهو لم يعد يؤمن بالله واحد أو بآلهة كثيرة ، فقد ينس من الله في تلك الفترة الثانية من حياته ، لأن الله فيما يرى لم يكن يجيب إلا دعوات الأغنياء .

لذلك لم يضرع إلى الله . فالأغنياء لا يعلقون فوق الصليبان ، وهو قد أضحى حياته كلها فوق صليب ، زمناً لا نهائياً والمسامير تخترق يديه . أم لعل ذلك كان إنساناً آخر ؟ أم لعل ذلك الشخص كان أباه ؟ كان ذهنه لا يعمل جيداً عند ذلك ، فقد اختلطت الدوافع الجميلة الدقيقة المنظمة في ذهنه ، وعندما تذكر كيف صلبوا أباه ، خلط بين نفسه وبين أبيه . وراح يفتش في حنايا ذهنه الكليل المعذب ، ليتذكر كيف حدث ذلك . وتذكر وقت أن جاء الكهنة من المعبد ، فطردوهم هم الآخريين بأيدي خاوية .

وسادت لحظة تصيرة من المجد بعد ذلك. وأضاء ذهنه بذكرى
بطلهم العظيم يهوذا المكابي ، وعندها بعث الكهنة بأول جيش
لمقاتلتهم ، انتهى فلاحوا التلال أقواسهم وهدموا وحطموا
الجيش . واشترك هو في المعركة ، مراهق في الرابعة عشرة من
عمره ليس إلا ، ومع ذلك فقد استعمل سكينه وقاتل مع أبيه
جنباً إلى جنب وذاق طعم النصر .

لكن طعم النصر لم يدم طويلاً . فقد جاءت طواير ضخمة
من الجنود المرتزقة المسلحين ضد ثوار الجليل ، وكانت خزانة المعبد
بئراً من الذهب لا قاع له ، قادراً على شراء المزيد والمزيد من
الجنود المرتزقة . ولم يستطع الفلاحون بمديهم وأجسادهم العارية
مقاومة جيش كبير ، فتحطم الفلاحون وأسر منهم ألفان .
واختاروا من بين الأسرى تسعمائة رجل ليصلبهم . كان ذلك هو
الأسلوب المنتحضر ، أسلوب الغرب . وعندما انتظمت الصليبان
كالخرز على سفوح التلال ، جاء كهنة المعبد ليرقبوها . وجاء معهم
مستشاروهم من الرومان . ووقف الصبي داود وشاهدهم يعلقون
أباه بالمسامير في صليب ، ويتركونه معلقاً من يديه هناك حتى نهشت
الطيور لحمه .

وها هو نفسه اليوم معلق على الصليب . كما بدأت القصة
تنتهي ، ولشدنا هو متعب ، ولكم هو مليء بالأسى والألم . ومع
(م - ١٠ سبارناكوس)

مرور الوقت وهو معلق على الصليب — الوقت الذي لا صلة له
بالوقت كما يعرفه البشر ، لأن الرجل وهو على الصليب لا يصبح
رجلا — سأل نفسه أمثلة لا نهاية لها عن معنى الحياة التي تبدأ
من العدم وتنتهي إلى العدم ، وبدأ يفقد تشبته غير المعقول
بالحياة ، وهو التثبيت الذي كان يمدّه بالتموّع منذ زمن بعيد . والسرّة
الأولى في حياته ، أحس بالرغبة في الموت .

(ماذا كان سبارتا كوس قد قال له ؛ أيها المجالد أحب الحياة ،
ففي الحياة الإجابة عن كل سؤال . لكن سبارتا كوس قد مات ،
وهو حي)

أحس بالتعب عند ذلك ، فقد تصارع التعب مع الألم ، ومن
هنا أصبحت ذكرياته الممزقة تدور حول التعب . بعد أن فشلت
الثورة ، غلوه هو وسبعمائة صبي غيره من أعناقهم في السلاسل ،
وساقوهم شمالا . ويا لطول مامشوا . عبر السهل والصحراء والجبل
حتى غدت تلال الجليل حلها من أحلام الجنة . وتغير ساداتهم ،
لكن السوط ظل هو هو على الدوام . ووصلوا في النهاية إلى أرض
ترتفع فيها الجبال أعلى من أية جبال في الجليل وتغطي قممها بغلالة
من الثلج صيفا وشتاء .

وهناك أدخلوه إلى باطن الأرض لينقب عن النحاس . وظل
يكدح طيلة عامين كاملين في مناجم النحاس . ومات أخواه اللذان

كانا في صحبته ، أما هو فقد ظل على قيد الحياة . فقد كان جسده من الصلب والعضلات المنجدولة . ومرض الآخرون وتساقطت أسنانهم ، أو مرضوا وأخذوا يتقربون حتى ماتوا . أما هو فقد عاش ، وظل يكدح طيلة عامين كاملين في المناجم .

ثم هرب ، هرب إلى الجبال الموحشة والطوق الحديدي الذي يرتديه العبيد ما زال حول عنقه . وهناك التقطه رجال القبائل الجبلية البدائيون البسطاء ، وآووه ، وأزالوا الطوق الحديدي من حول عنقه ، وسمحوا له بالحياة معهم . وعاش معهم طيلة الشتاء . كانوا قوما طبي القلوب ، فقراء ، يعيشون على الصيد والقنص ، ولا يكادوا يزرعون شيئا . وتعلم لغتهم ، ورغبوا في أن يبقى معهم ويتزوج من واحدة من نسايتهم ، لكن قلبه كان يحن للجليل ، وعندما جاء الربيع ، بدأ الرحلة جنوبا ، لكنه وقع في أسر عصابة من التجار الفرس ، باعوه بدورهم إلى قافلة من العبيد متجهة غربا فباعوه في المزاد في مدينة صور على بعد مرمى البصر من وطنه تقريبا . لكم أطل الحزن قلبه حينذاك اولكم بكى بدموع مريرة لأن يكون على مثل هذا القرب من بلده وأقربائه وأهله الذين سيحبونه ويدلونهم - وأن يكون رغم ذلك بعيدا كل هذا البعد عن الحرية . اشتراه تاجر فينيقي ، وقيده بالسلاسل إلى مجداف في سفينة . تنقل التجارة إلى هوانى صقلية ، وأمضى عاما كاملا يجلس في الظلام والقنطرة ، يجر مجدافه في الماء .

ثم استولى قراصنة يونانيون على السفينة ، وجروه من أعماقها وهو يطرف بعينه كغراب قذر إلى سطح السفينة ، وخصه البحارة اليونانيون المتوحشون وسألوه : ولم يستغرق التخلص من التاجر الفيدتي والبحارة طويلا ، فقد ألقوا بهم من فوق ظهر السفينة إلى الماء كحزم القش . أما هو وغيره من العبيد ، فقد فُصِّوهم وسألوا كل واحد منهم بدوره بلغة البحر الأبيض الأرامية — هل تستطيع أن تقا تل ؟ أم تستطيع أن تجدف فقط ؟

وكان هو خائفا من العقد الخشبي والظلمة والمياه في قاع المركب كما قد يخاف الشيطان نفسه ، فكان رده :

— أستطيع أن أقاتل ، أعطوني الفرصة فقط .

وكان على استعداد لأن يقاتل جيشا بأسره لو استطاع حينذاك على ألا يرسل إلى قاع السفينة تحت أسطحها ليحني ظهره فوق مجداف . على هذا أتاحوا له فرصة البقاء فوق السطح وعلوه — وذاق في هذا السبيل كثيرا من اللطمات واللعنات — مهنة البحر ، كيف يطوى الشراع ، وكيف يصعد على جبال شراع السفينة ، وكيف يوجه السفينة بمجداف القيادة الذي يبلغ طوله ثلاثين قدما وكيف يجدل الحبل ، وكيف يوجه السفينة مهتديا بالنجوم ليلا . وأبدى في أول قتال لهم مع سفينة رومانية ضخمة سرعة حركة وبراعة في استخدام السكين الطويل ، مما أكسبه مكانا مأمونا في

عصابتهم الوحشية الخارجة على القانون ، لكن قلبه كان خلوا من السعادة . وانتهى به الأمر إلى كراهية هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون إلا الذبح والقسوة والموت . فقد كانوا يختلفون أشد الاختلاف عن الفلاحين البسطاء الذين أمضى طفولته بينهم كاختلاف الليل والنهار . وما كانوا يؤمنون بأى إله من الآلهة ، ولا حتى يوسيدن إله البحر . وعلى الرغم من أن إيمانه الشخصي كان قد اهتز . فهو قد أمضى خيرة أعوام حياته بين المؤمنين . وكانوا عندما ينقضون على أى شاطئ من الشواطئ . فإنما لبقثوا ويحرقوا ويغتصبوا النساء .

كانت تلك الفترة من حياته هي الفترة التي أقام فيها حول نفسه جدارا صلبا غلف به نفسه . وعاش داخل هذا الجدار . واختفت دلائل الشباب من وجهه ذى العينين الخضراوين الباردتين . وأنفه المعقوف كالصقر . لم يكن قد أكمل الثامنة عشرة من عمره عندما انضم إليهم . لكن مظهره أصبح لا يشي بعمره . ودبت بوادر المشيب فعلا في الشعر الأسود الذي كان يغطي رأسه . وانفرد بنفسه . فكان في بعض الأحيان لا ينطق خلال أسبوع كامل بكلمة واحدة على الإطلاق . فيتكونه وشأنه . فهم يعرفون مقدرته على القتال تخافوه .

كان يحبا على حلم . وكان الحلم كالغذاء والشراب بالنسبة له .

ذلك الحلم هو أنهم في يوم أو آخر . آجلا أو عاجلا سيهاجمون شاطيء فلسطين . وعند ذاك سينزلق نازلا على جانب السفينة ويسبح حتى الشاطيء . ويشق طريقه سيرا على الأقدام إلى تلال الجليل الحبيبة . لكن أعواما ثلاثة مرت . وهذا اليوم لم يأت قط فقد هاجموا الشاطيء الإفريقي أول الأمر . ثم عبروا البحر ليعملوا على طول الشاطيء الإبطالى . وقتلوا على شواطيء أسبانيا وأحرقوا البيوت الريفية الرومانية . واستولوا على الثروات والنساء التي وجنوها فيها . ثم عبروا البحر مرة ثانية . وأمضوا شتاء كاملا في مدينة مسورة خارجة على القانون على مقربة من أعمدة هرقل ثم أبحروا خارجين من مضيق جبل طارق . وذهبوا إلى بريطانيا حيث أرسوا سفينتهم ونظفوها وأصلحوها . ثم أبحروا إلى أيرلن حيث استبدلوا بقطع الأقمشة والحمل الرخيصة أدوات الزينة الذهبية التي تصنعها القبائل الأيرلندية . ثم إلى بلاد الغال ، صاعدين نازلين على الشاطيء الفرنسى . ثم عادوا إلى إفريقيا . وهكذا انقضت ثلاث سنوات - لم يسطوا فيها قط على شاطيء . لكن الحلم والأمل ظللا في نفسه - خلال تلك الفترة التي ازداد فيها قساوة عما يحق للرجل أن يكون .

لكنه تعلم الكثير في تلك الفترة . تعلم أن البحر طريق تتدفق فوقه الحياة ، كما يتدفق الدم خلال جسم الإنسان . وتعلم أن العالم كبير ولا حدود له ، وتعلم أنه أينما يذهب المرء ، فهناك قوم بسطاء

فقراء ، قوم كقومه هو ، قوم يذبشون الأرض سعياً وراء قوتهم وقوت أولادهم — كي يدفعوا معظم ما يخرجونه من الأرض إلى زعيم أو ملك أو قرصان . وتعلم أن هناك رئيساً وملكاً وقرصاناً فوق كل من عداه من الرقساء والملوك والقراصنة — واسم هذا هو روما .

وغرقت سفينتهم في النهاية على يد سفينة حربية رومانية . وأخذوه هو والأربعة عشر الناجين من البحارة إلى أوسيتا ليشنقوا . وبدأ أن يمال كأسه الصغيرة من الحياة قد انتهت . لكن وكيسلا للنتولوس باتبا توس اشتراه في اللحظة الأخيرة لمدرسته في كابوا .

هكذا كان شكل الفترة الثانية من حياة المجالد ، فترة المعرفة والكراهية وقد استكمل ذلك الجزء في كابوا . ففيها تعلم أقصى ما تصل إليه الحضارة من نقاوة . : تدريب الرجال على قتل بعضهم البعض لتسليحة كسالى الرومان ، وإثراء رجل شرير قدر سمين يدعى متعهد المجالدين . وأصبح مجالداً . قصوا شعره قصيراً حتى قارب حجمته . وزجوا به إلى المجتلد يحمل مكيناً في يده ، لا ليقتل من كان يكرههم ، إنما ليقتل من كانوا مثله ، عبيداً أو محكومياً عليهم بالإعدام .

كان ذلك المكان هو الذي اجتمعت فيه المعرفة والكراهية .

إذ أصبح مستودعاً للكراهية، وكان المستودع يمتلئ يوماً بعد يوم، وعاش وحيداً في زنانه الجرداء القبيحة وقتلها للآمال منطوياً على نفسه. ولم يعد يؤمن بالله بعد ذلك. وعندما كان يفكر في رب آباءه، فإنما في كراهية. وقال لنفسه يوماً:

أريد أن أدخل إلى المجتلد مع ذلك الرجل العجوز الملعون الذي كان يقطن الجبال، وسأقتاضه ثمن كل الدموع والوعود التي لم تتحقق التي يبتلى بها البشر. وسأرد له رعدده وبرقه. كل ما أريده هو سكن في يدي، وسأضحى له كما يجب وأعلمه شيئاً عن الغضب والسخط.

وشاهد في أثناء نومه ذات يوم حليماً، ورأى نفسه في الحلم يقف عند عرش الله، ولكنه لم يكن خائفاً. وصاح يقول ساخراً ماذا ستفعل بي؟ لقد عشت واحداً وعشرين عاماً، فإذا تستطيع أن تصينني به أكثر مما أصابتنى به الدنيا. لقد رأيت أبي وهو يصلب، وكدحت كالحشرة الدوابة في المناجم. فقد اشتغلت عامين في المناجم وعشت عاماً في القذارة والمياه في قاع السفينة، والفئران تجرى فوق قدمي، وكنت طيلة أعوام ثلاثة لصاً يحلم بوطنه، وأنا الآن أقتل الرجال بالأجر. فلتنحل عليك لعنة الجحيم. ماذا ستفعل بي؟

ذلك ما أصبحه في الفترة الثانية من حياته وخلال

تلك الفترة ، جلبوا إلى المدرسة في كابوا عبداً تراقياً ، رجلاً غريباً ،
رقيق الصوت ، له أنف مكسور وعينان سوداوان عميقتان .
وهكذا عرف هذا المجالد سبار تاكوس .

www.alkottob.com

حدث ، بعد تلك الفترة بوقت طويل ، أن صلبوا عبداً
رومانياً ، وبعد أن علقوه على الصليب أربعة وعشرون ساعة ،
عفا عنه الإمبراطور نفسه ، وعاش العبد بطريقة ما . وكتب يروى
ما أحسه وهو معلق على الصليب ، وكان أكثر ما يلفت النظر فيما
كتبه ما قاله عن مسألة الزمن ، إذ قال . . لا يوجد بالنسبة للصلوب
إلا شيئان ، الألم واللا نهاية . قالوا لي إنني لم أمكث على الصليب
إلا أربعة وعشرين ساعة ، لكنني مكثت على الصليب زمناً أطول
من عمر هذا العالم . ولو أن الزمن لا وجود له ، لكانت كل لحظة
على الصليب هي الأبد .

وفي هذا ، الأبد ، الغريب الذي يعذبه الألم ، انقسم ذهن
المقاتل وبطلت تدريجاً قوة العقل المنظم ، واستحالت الذكرى
إلى هلوسة . وعاش مرة ثانية فترات طويلة من حياته ، وتذكر
كيف تحدث إلى سبارتا كوس لأول مرة وعاشها مرة ثانية . كان
يدور حول أكثر ما يرغب في إنقاذه من الحطام الذي لا معنى له
والذي كان حياته ، الحياة العديمة القيمة لعبد لا اسم له في تيار
الزمن المكتسح .

(إنه ينظر إلى سبارتا كوس . ويراقب ، وهو كالقط ، هذا الرجل ، وتزيد عيناه الخضراوان من الشبه بينه وبين القط . وأنت تعرف الطريقة التي يمشي بها القط ، في توتر دائم . هذه هي الطريقة التي يمشي بها هذا المجالد ، فتحس أنك إذا قذفت به في الهواء ، فإنه سيهبط على الأرض في سهولة واقفاً على قدميه . وهو لا يكاد ينظر إلى أى شخص مباشرة ، إنما يرقبه ، بدلا من ذلك من جانبي عينيه . وهو يراقب سبارتا كوس بهذه الطريقة ، يوماً بعد يوم . ولا يستطيع أن يفسر ، حتى لنفسه ، الصفة التي تستدعي انتباهه إلى هذا الحد في سبارتا كوس ، لكن ذلك ليس بالسر الكبير ، فهو كالهوتر ، وسبارتا كوس كله استرخاء . وهو لا يكلم أحداً ، لكن سبارتا كوس يتحدث إلى الجميع . وكلهم يذهبون إلى سبارتا كوس ويحملون إليه همومهم . سبارتا كوس يدخل شيئاً إلى مدرسة المقاتلين هذه . إن سبارتا كوس يدمرها .

(كلهم ، عدا هذا اليهودي يأتون إلى سبارتا كوس ، وسبارتا كوس يعجب لذلك . لذلك ذهب في يوم من الأيام في فترة الراحة بين التدريبات إلى اليهودي وتحدث إليه . سأله .

(— أتتكم اليونانية يا رجل ؟

(فتحدث فيه العينان الخضراوان دون أن تظرفنا ، ويدرك سبارتا كوس فجأة أنه أمام شاب صغير جداً ، لا يكاد يزيد على

كونه صيباً ، لكن ذلك يختفي وراء قناع . وهو لا ينظر إلى الرجل نفسه بل إلى القناع .

(ويقول اليهودى لنفسه . . اليونانية - هل أتكلم اليونانية؟
أظن أني أتكلم كل اللغات : العبرية والأرامية واليونانية
واللاتينية وكثيراً غيرها من لغات أجزاء كثيرة من العالم . لكن
لماذا أتكلم أي لغة ؟ لماذا ؟

(ويحتمه سبارتا كوس في رقة كبيرة قائلاً

- كلمة مني ، ثم كلمة منك . نحن بشر ولسنا وحيدين . يحل
بك الهم الكبير عندما تحس أنك وحيد ، إنه شيء رهيب حقاً ،
أن تحس أنك وحيد . لكننا هنا لا نشعر بالوحدة . لماذا نخجل عما
صرنا إليه ؟ هل اقترفنا الآثام الرهيبة لنحضر أنفسنا إلى هنا ؟
لا أظن أننا فعلنا مثل هذه الآثام الرهيبة ، فأولئك الذين يضعون
المدى في أيدينا ويدفعوننا إلى القتل لبعث البهجة في نفوس
الرومانين ، يقترحون أشياء أكثر فظاعة ، لذلك يجب ألا نخجل
ويكره الواحد منا الآخر . فالرجل لا يملك إلا قليلاً من القوة ،
وقليلاً من الأمل ، وقليلاً من الحب . وهذه الأشياء كالبدور
المزروعة في كل البشر . لكن الإنسان إذا احتفظ بهذه الأشياء
لنفسه ، فستذبل وتموت بسرعة كبيرة . وعند ذلك فليساعد الله
ذلك الإنسان المسكين ، لأنه لن يملك شيئاً ، ولن تصبح الحياة

بالنسبة له جذيرة بالحياة . هذا بينما إذا هو أعطى قوته وأمله
 وجهه إلى الآخرين ، فسيجد رصيذا لا ينتهي من مثل هذه الأشياء ،
 ولن تنضب هذه الأشياء فيه أبداً . وتصبح الحياة عند ذاك جذيرة
 بالحياة . وصدقني ، يا مجالد : إن الحياة هي أحسن شيء في العالم .
 ونحن نعرف ذلك . فنحن عبيد كل ما نملكه هو الحياة . لذلك
 نعرف قيمتها ، والرومان يملكون كثير من الأشياء غيرها إلى حد
 أن الحياة أصبحت لا تعني لهم الكثير . فهم يلهون بها . أما نحن
 فنأخذ الحياة مأخذ الجد ، وهذا هو السبب الذي يحتم علينا
 ألا نترك أنفسنا للوحدة وأنت كثير الوحدة يا مجالد . حدثني
 قليلاً .

(لكن اليهودي لا يقول شيئاً ، ويظل وجهه ، ونظله عيناه كما
 هما لا يتغيران على الإطلاق . ومع ذلك فهو يصغى . يصغى في
 صمت وبقصد ، ثم يستدير ويتعد . لكنه يتوقف بعد أن يمشى
 خطوات قليلة ، ويدبر رأسه نصف استدارة ، ويراقب سبارتا كوس
 من جوانب عينه . ويبدو لسبارتا كوس أن فيه شيئاً لم يكن فيه
 من قبل ، شرارة ، حيرة ، بارقة أمل ربما .)

كانت تلك بداية الفترة الثالثة من الفترات الأربع التي يمكن
 تقسيم حياة المجالد إليها، ومن الممكن تسمية هذه الفترة ، فترة الأمل ،
 فهذه الفترة هي التي زالت فيها الكراهية ، وعرف المجالد الحب

العظيم والشعور بالرفق تجاه الآخرين من بنى جنسه . ولم يحدث ذلك دفعة واحدة ، ولم يحدث سريعاً . إذ بدأ يتعلم الثقة بالإنسان جزءاً فجزءاً . وعن طريق ذلك الرجل ، تعلم حب الحياة . وكان ذلك هو الشيء الذي أسره في سيارتا كوس منذ البداية الأولى ، الحب العظيم للحياة الذي يفيض به التراقي . فقد كان سيارتا كوس كالوصى على الحياة . ولم يكن الأمر مجرد تذوقه أو استمتاعه بحب الحياة ، إنما كانت الحياة تستوعبه ، كانت شيئاً لم يناقشه هو قط ولم يتعرض لفقده قط . وكان يبدو ، إلى حد ما ، أن هناك حلقاً سرياً بين سيارتا كوس وبين قري الحياة .

تعلم المجالد داود من مراقبة سيارتا كوس أن يتبعه . وهو لم يكن يفعل ذلك تباهاً ، إنما كان يفعله في الخفاء تقريباً . ففي أى وقت تتاح الفرصة ، ولم تكن ملحوظة مفتوحة ، وكان يقف على مقربة من سيارتا كوس . وكان سمعه حاداً كسمع الذئب ، فكان يصغى إلى كلمات سيارتا كوس ، ويأخذ هذه الكلمات معه ويكررها لنفسه ويحاول أن يتعلم ما تنطوي عليه هذه الكلمات . وخلال كل ذلك الوقت ، كان شيء يحدث في داخله . كان يتغير ، كان ينمو . وكان قليل من التغيير ؛ وقليل من النمو ، يحدثان بنفس الطريقة تقريباً ، في داخل كل مجالد في المعهد . لكن الأمر كان مفرداً بالنسبة لداود . إذ كان ينحدر من قوم ، كانت حياهم

مليئة بالإيمان بالله . وعند ما فقد هو إيمانه بالله ، حدثت ثغرة في حياته . وهو اليوم يملأ هذه الثغرة بالإيمان بالإنسان . كان يتعلم حب الإنسان ، وكان يتعلم عظمة الإنسان ، ولم يكن يفكر فيه من تلك الناحية ، إلا أن ذلك كان ما حدث له — ولبقية المجالدين إلى حد ما .

لم يكن ذلك بالشئ الذى يستطيع باتيانوس أو يستطيع أعضاء مجلس الشيوخ في روما الإحاطة به . إذ كانت الثورة بالنسبة لهم قد نشبت كالانفجار الشالى ودون تدبير سابق ، ولم يسبقها ، بالنسبة لمعلوماتهم ، إعداد أو مقدمة ، وهكذا دونوها إذ لم تكن أمامهم طريقة أخرى لتدوينها .

لكن المقدمة كانت موجودة : عميقة ، غريبة ، وتنمو مطردا . ولم ينس داود يوما أول مرة سمع فيها سبارتا كوس يتلو أسفارا من الأوديسة . إذ سمع موسيقى جديدة ساحرة ، قصة رجل شجاع تحمل وقاسى الكثير ، لكنه لم يهزم قط ، وكان الكثير من أشعار مفهومها له . فهو قد عرف عذاب خيبة الأمل الذى يقاسيه المرء إذا اضطر إلى البعد عن وطن يحبه . وهو قد عرف حيل القدر ذى النزوات . فقد أحب فتاة على تلال الجليل ، كانت شفتاها فى حمرة الخشخاش ، وخذائها فى نعومة الزغب ، وتألم قلبه من أجلها لأنها ضاعت منه . لكن أى

موسيقى كانت تلك ! وأى روعة في أن يستطيع عبد . عبد هو ابن عبد ولم يكن حرا ولو مرة واحدة ، تلاوة أشعار لا نهاية لها عن ظهر قلب من هذه القصة الرائعة ! هل عرف العالم من قبل رجلا مثل سبارتا كوس ؟ هل عرف العالم رجلا يمثل هذه الرقة وهذا الصبر ، وهذا التباطؤ عن الغضب ؟

وكان يمثل أوديسيوس الحكيم الصابر ، في ذهنه في سبارتا كوس ، وظل الاثنان منذ ذلك الوقت بالنسبة له هما نفس الشخص . ووجد ، وهو الصبي عند ذلك الذي تختفي حدائه سنة تحت كل الأفعى ، وجد بطله ونموذجه في الحياة وللحياة ممثلا في سبارتا كوس . وكان لا يثق أول الأمر في هذا الميل من نفسه . فهو الذي طالما قال لنفسه . . لا تثق في إنسان فلا يخيب أملك إنسان ، فانتظر وراقب وترقب لسبارتا كوس حتى لا يخيب ظنه حتى اكتمل إداركه تدريجا أن سبارتا كوس لن يقل يوماً عن سبارتا كوس - وكان الإدراك أكثر من مجرد ذلك ، إذ انتهى إلى أن يفهم أن الرجل لا يقل عن نفسه . ولم يكن فهمه ذلك كاملا ، إنما كان بريقا من المعرفة لما في الروعة والبهائم اللذين يكمنان في مخلوق بشري واحد من ثراء .

لذلك عندما اختير كواحد من أربعة مجالدين يتقاتلون زوجين روجين حتى الموت إرضاء لنزوة شابين شاذين معطرين من روما ، عانى صراعا نفسيا وتناقضا وضيعا لم يجربه من قبل . كان صراعا

نفسياً من نوع جديد ، وعندما انتصر في هذا الصراع ، نفذ لأول مرة نفاذا حقيقياً من الغطاء الواقي الذي كان قد غلف نفسه به . كان يعيش في تلك اللحظة عند ذلك وهو مصلوب . إذ كان الصواب قد عاد إليه من جديد وكان يصارع نفسه ، واثالث من بين شفتيه الجافيتين وهو معاق على الصليب الكلمات المعذبة التي قالها لنفسه من أربع سنوات مضت .

(إذ يقول لنفسه . . أنا أكثر الناس لعنة في كل العالم لأن الاختيار قد وقع على كما ترى لأقتل الرجل الذي أحبه أكثر من أي رجل حتى آخر . أي قدر قاس هذا ، لكن هذا هو كل ما يتوقعه المرء من الرب أو الأرباب ، أو كائنات من كانوا ، الذين لا هم لهم إلا تعذيب الإنسان . فهذه هي كل رسالتهم . لكنني لن أحقق لهم ما يصبون إليه . ولن أعمل لحسابهم . فهم مثل هذين الخنزيرين الرومانيين المعطرين الذين يجلسان إلى جانب المجتهد في انتظار تدحرج أحشاء رجل على الرمال . حسن . لن أحقق لهم ما يصبون إليه هذه المرة . وسأحرهم متعة مشاهدة الاثنين وهما يتقاتلان ، هؤلاء القوم التعسرون الفاسدون الذين لا يجدون متعة غير هذه . سيروني وأنا أموت . لكن مشاهدة رجل يموت لن ترضيهم في استطاعتهم رؤية ذلك في أي وقت آخر . لكنني لن أقاتل سبارتا كوس فأنا أفضل أن أقتل أخى أولاً . لن أفعل ذلك أبداً .

(لكن ماذا بعد ذلك ؟ لم يكن في حياتي كلها أول الأمر

(م - ١١ سبارتا كوس)

إلا الجنون ، ثم شفت الحياة هنا هذا الجنون . ماذا أعطاني سبارتا كوس ؟ يجب أن أوجه لنفسي هذا السؤال ، ويجب أن أجيب عنه . يجب أن أجيب عنه ، لأنه أعطاني شيئاً كبير الأهمية لقد أعطاني سر الحياة . الحياة نفسها هي سر الحياة . وكل إنسان يتحيز لجانب . فأنت في جانب الحياة ، وأنت في جانب الموت . وسبارتا كوس في جانب الحياة ، ولذلك سيقاتلني إذا اضطر لذلك لأنه يرفض أن يسلم بالموت ، ولن يسمح لهم بأن يقدموه للموت دون أن يتفوه بكلمة وأن يرد اللطمة لهم . إذ ذلك ما يجب أن أعمل . يجب أن أقاتل سبارتا كوس ، وستقرر الحياة أينما يبقى . ياله من قرار رهيب يتخذه المرء . أبلغت اللعنة بإنسان ذلك الحد من قبل ؟ لكن ذلك هو ما يجب أن يكون . ذلك هو ما يمكن أن يكرن ولا شيء غيره .

وعاش في الأفكار والقرار الذي آخذه من جديد ، ولم يعد يدري أنه كان يموت مصلوباً ، وأن القدر كان رحماً به إذ لم يكن من نصيبه أن يقاتل سبارتا كوس . والتقط ذهنه الذي حطمه الألم الماضي جزءاً فجزءاً ، وعاشه من جديد مرة ثانية ، هؤلاء هم المجالدون يقتلون مدربيهم في قاعة الطعام . مرة ثانية ، هاهم يقاتلون قوات الحراسة بالمدى وبأيدهم العارية . مرة ثانية هاهم يتقدمون عبر الريف ، والعبيد يهرعون تاركين المزارع لينضموا إليهم . ومرة ثانية ، هاهم يطبقون على كتاب حراسة المدن ليلاً ويبيدونهم على

بكرة أبيهم ويفنمون سلاحهم ودروعهم . كل ذلك ، عاش فيه
مرة ثانية ، عاشه ، لاتبعنا للنطق أو لتاريخ الحوادث أو في
يسر ، إنما ككرة من اللهب الساخن تقذف إلى الورا . خلال
الزمن .
(ويقول . . سبارتا كوس ، سبارتا كوس ؟ كانوا قد
خاضوا معركتهم الثانية الكبيرة عند ذلك . وأصبح العبيد جيشاً .
كانوا يبدون كالجيش فعندهم أسلحة ودروع عشرة آلاف جندي
روماني . وأصبحوا يصطفون بالمتات ، وبمئاتهم الخمس . وأصبح
معسكرهم الليلي حصناً يحيط به جدار من الخشب وخذق كالحصن
الذي تقيمه الفيالق وهي تتقدم . وكانوا يتدربون أربع ساعات
يومياً على تذف الحربة الرومانية ، وطبقت شهرتهم ، والخرف المفزع
نما أقدموا عليه معروف في كل أنحاء العالم . وأصبح في كوخ
كل عبد ، وفي كل سكناات للعبيد همس يدور حول شخص يدعى
سبارتا كوس أشعل النار في العالم . أجل لقد فعل ذلك . وأصبح له جيش
عظيم . وعن قريب سيهاجم رومانها ، وسيمزق جدران روما في
غضبه . وهو يحرر العبيد حينما يذهب ، وكل ما يحصل عليه من مغانم
وأسلاب يدخل إلى بيت المال ملك للجمع . كما كان الحال في
الأيام الخالية عندما كانت القبيلة تملك كل شيء . ولم يكن الفرد يملك
ثروة . وجنوده لا يملكون شيئاً سوى أسلحتهم والملابس التي

يرتدونها فوق ظهورهم والاحذية التي يتعلونها في أقدامهم . هذا هو سبارتا كوس اليوم .

(ويقول . . سبارتا كوس :

(وعادت القدرة على الكلام إلى هذا اليهودي داود شيئاً فشيئاً : إذ أصبح يتكلم في بطلاء وتردد ، لكنه يتكلم . وهاهو ذا يتحدث إلى قائد العبيد .

(— سبارتا كوس ، أنا مقاتل بارع . ألسنت كذلك ؟

(— بارع ، بارع جداً . أبرع مقاتل . أنت تقا تل ببراعة .

(— ولست جباناً ، هل تعرف ذلك ؟

(فيقول سبارتا كوس

(— عرفت ذلك منذ زمن بعيد ، فأين المجالد الجبان ؟

(— ولم أجب يوماً عن القتال ؟

(— أبداً .

(— وعندما انقطعت أذني عن رأسي ، ضغطت على أسناني

ولم أصرخ من الألم قط .

(فيقول سبارتا كوس

(— ليس من العار أن تصرخ من الألم . لقد عرفت رجالا

أقرباء يصرخون من الألم . وعرفت رجالاً أقرباء يبكون عندما
تمتلئ أنفسهم بالمرارة . ليس في ذلك ما يخجل .
(— لكننا ، أنت وأنا لا نيكى . وسأصبح في يوم من الأيام
مثلك يا سبارتا كوس .

(— بل ستصبح خيراً مني . فأنت مقاتل تفوقني براعة .

(— لا . لن أصبح أبداً نصف ما أنت عليه ، لكنني أظن أنني
أقاتل جيداً . فأنا سريع جداً . كالقط . فالقط يستطيع أن يرى
الضربة وهي قادمة . والقط يرى من خلال جلده . وأنا أشعر بمثل ذلك
أحياناً ، بل أرى على الدوام تقريباً . الضربة وهي قادمة . وهذا
ما يدفعني إلى أن أطلب منك شيئاً . أريد أن أطلب منك هذا ،
أريد أن تبقىني إلى جانبك . في أي وقت نقاتل ، أريد أن أكون
إلى جانبك . فسأحريك . لأننا إذا فقدناك ، فقدنا كل شيء . فنحن
لا نقاتل من أجل أنفسنا إنما نقاتل من أجل العالم بأسره . ولهذا
أريد منك أن تبقىني إلى جانبك دائماً عندما نقاتل .

(— لكن هناك أشياء تستطيع القيام بها أكثر أهمية من
الوقوف إلى جانبي . أنا في احتياج إلى رجال يقودون جيشاً .

(— والرجال في حاجة إليك . هل طلبت الكثير ؟

(— بل أنت تطلب القليل جداً يا داود . وأنت تطلبه لأجلي

لا لنفسك .

(-- إذن قل لي إن ذلك هو ما تريد .

(ويخني سبارتا كوس رأسه موافقاً .

(-- ولن يصيبك ضرر في يوم من الأيام . سأحرسك ليلاً ونهاراً . سأحرسك .

وهذا أصبح الساعد الأيمن لقائد العبيد . هو ، الذي لم يعرف طيلة حياته الشابة إلا إراقة الدماء والسكدح والعنف ، أصبح يرى يومذاك آفاقاً مشرقة ذهبية . وبدأت نتيجة ثورتهم تزداد وضوحاً ووضوحاً في ذهنه . مادامت غالبية سكان العالم من العبيد ، فسيصبحون عما قريب قوة لا يطاق لها شيء . وعند ذلك ستختفي الفواصل بين الشعوب والمدن ، ويعود العصر الذهبي مرة ثانية . إذ تقول أقاصيص وأساطير كل شعب إنه كان في يوم من الأيام عصر ذهبي عاش فيه البشر بلا خطيئة ولا ضعينة ، وعاش فيه البشر معاً في حب وسلام ، لذلك فعندما ينتصر سبارتا كوس والعبيد على العالم بأسره ، سيعود ذلك كله مرة ثانية . وسيكون إعلان ذلك بالموسيقى العظيمة بطرق الصنوج ، والنفخ في الأبواق وإنشاد كل البشر معاً وهم يقدمون الحمد والشكر .

وسمع في تلك اللحظة في ذهنه المغموم ذلك الإنشاد الجماعي ، وسمع النغم المزدحم لصوت البشر ، إنشادا جماعياً تتعالى أصداؤه من سفوح الجبال .

وهو وحده مع قارينيا . وهو عندما ينظر إلى قارينيا ، يخفى
العالم الحقيقي ويذوب ولا يبقى إلا هذه المرأة التي هي زوجة
سبارتا كوس . وهي بالنسبة لداود أجمل امرأة في العالم وأكثرهن
فتنة ، وجبه لها كدودة تنهش أحشائه . كم من مرة قال
فيها لنفسه .

(- أي مخلوق حقير أنت لتحب زوجة سبارتا كوس؟ فانت
مدين لسبارتا كوس بكل ما تملك في هذه الدنيا . أهكذا تؤدي
له دينه؟ تؤديه له بأن تحب زوجته؟ ياله من عمل قبيح حتى وإن
كنت لا تبهر به ، حتى وإن كنت لا تظهره ، وزيادة على ذلك ، فهو
شيء لا جدوى منه . انظر إلى نفسك . أمسك بمرآة أمام وجهك ،
أشهد العالم يوما مثل هذا الوجه الصارم الوحشي ، كوجه الصقر ،
وتنقصه اذن ، وتشوّهه القواطع وآثار الجروح .
وهذه قارينيا تقول له .

- يالك من صبي غريب يداود؟ من أي بلد أنت؟ هل كل
قومك على شاكتك؟ ما أنت إلا صبي لكنتك لا تبسم أبدا ولا
تضحك على الإطلاق . أي تكوين غريب هذا؟

- لا تقولي صبيا يا قارينيا . لقد أثبت أنني أصبح في بعض
الاحيان أكثر من صبي .

- هل فعلت ذلك حقا؟ حسن ، لن نخدعني . ما أنت إلا صبي

يجب أن تكون لك فتاة تصاحبها وتمشيان معا عندما يكون
المساء رائعا .

ألا يوجد الكفاية من الفتيات ؟

- عندي عمل أؤديه ، لا وقت عندي لذلك .

-- لا وقت للحب ؟ أوه ، ياداود ، داود أى كلام
تقول !

يا له من قول غريب !

فيجيبها في دهشة قائلا :

- وأين نصبح ، إذا لم يعن كل واحد بعمله ؟ أظنن أن قيادة
الجيش ، وإيجاد الطعام لكل هذه الآلاف الكثيرة كل يوم ، وتدريب
الرجال ، عبث أطفال ؟ علينا أن نقوم بأهم شيء في العالم ، وتريدن
منى أن أغازل الفتيات ! لا وقت عندي لذلك .

- لا أريد منك أن تغازلهم ياداود ، إنما أريدك أن
تصاحبهم .

- لا وقت عندك ؟ حسن . كيف يسكون حالى ، إذا قال
سيارتنا كوس إنه لا وقت عنده لى ؟ كنت أرغب فى الموت فيما
أظن . ليس هناك ما هو أهم من أن تكون رجلا ، مجرد رجل ،
بسيط ، عادى ، إنسانى . أنا أعرف أنك تظن سيارتنا كوس شيئا

أكثر من رجل . هو ليس كذلك ، ولو أنه كان لما أصبحت له قيمة
على الإطلاق . ليس سبارتا كوس سرا كبيرا . أنا أعرف ذلك .
فأما أة عندما تحب الرجل ، تعرف عنه الكثير .

ويستجمع كل شجاعته ويقول

أنت تحبينه ، أليس كذلك ؟

— ماذا تقول يا عبي ؟ أنا أحبه أكثر مما أحب الحياة . أنا
أموت من أجله إذا أراد مني ذلك .

(ويقول داود :

— أنا أموت من أجله .

— ذلك شيء آخر . فأنا أراقبك في بعض الأحيان عندما

تنظر إليه ، ذلك شيء آخر . فأنا أحبه لأنه رجل . وهو رجل
بسيط . لا تعقيد فيه . هو بسيط . ورفيق . لم يرفع صوته على قط ، ولم

يرفع على يدا . بعض الرجال يمثلون بالأسف على نفوسهم ،
لكن سبارتا كوس لا يشعر بالأسف على نفسه أو بالثناء . لا . فهو

لا بأسف على ولا يرثى إلا للآخرين . كيف تسأل عما إذا كنت
أحبه ؟ ألا يعرف كل إنسان هنا مقدار حبي له ؟

وهكذا كان ذلك المجالد الأخير يتذكر ، في فترات من آلامه ،

بوضوح وبدقة كبيرين ، أما في الفترات الأخرى فكانت الذكرى
وحشية مخيفة ، وأصبحت إحدى المعارك كابوسا من الأصوات

المفرعة ، ومن الدماء والعذاب ، ومن كتل الرجال الهاشجة في حركة متوحشة لاسلطان عليها . فقد أدرك العبيد عند نقطة أو أخرى خلال العامين الأولين من ثورتهم ، أن كتل العبيد التي تعمر العالم الروماني لن تهب أو لن تستطيع أن تهب وتنضم إليهم . كانوا عند ذلك قد بلغوا منتهى قوتهم ، أما قوة روما فتبدو كما لو كانت لانهاية . ونذكر من تلك الفترة ، معركة خاضوها ، معركة رهيبة شديدة الضخامة في حجمها ، شاسعة في أعداد الرجال الذين خاضوها لدرجة أن سبارتا كوس والرجال المحيطين به لم يستطيعوا خلال معظم اليوم وطول الليل إلا تخمين سير المعركة . ورأى سكان كاپوا الذين كانوا يرقبون المجالد المصلوب ، كيف أخذ جسده ينتهي ويتلوى خلال تلك الذكرى ، وكيف سال اللعاب الأبيض من بين شفثيه ، وكيف أخذت أطرافه تنفض كل على حدة في ألم متشنج . وسمعوا أصوات تخرج من فمه ، وقال كثير من بينهم .

— لم يبق عليه إلا القليل . لقد انتهى تماماً .

(كانوا قد اتخذوا مواقعهم على قمة تل ، تل طويل ، له حافة طويلة منحدره على كل من جانبيه . وكانت مشاتهم العديدة تنتشر على قمة التل مسافة نصف ميل في كلا الاتجاهين . وكان أمامهم واد جميل يجري في وسطه نهر صغير ضحل ، نهر صغير متعرج ينحني

أماما وخلفا ، والحشائش الخضراء تكسو قاع الوادي ، والأبقار ثقيلة الأثداء تمضغ الحشائش . وكان في الجانب الآخر من الوادي حافة من الأرض أخذت عندها الفيالق الرومانية مواقعها . وكان سبارتا كوس قد أقام مقر قيادته في وسط جيشه ، فسطاط أبيض أقيم على رابية تطل على المنطقة بأسرها . وكان يدور في ذلك الفسطاط ما كان قد أصبح عند ذلك من الضروريات الدائمة لمقر قيادة معركة ، إذ كان يجلس سكرتير وأمامه أدوات الكتابة والورق . ويقف خمسون عدا على استعداد للان دفاع في الحال إلى أي جزء من ميدان المعركة . وأقيم صار الجندى الإشارة الذي يقف على صارية يحمل أعلامه المختلفة ذات الألوان البراقة . وكانت تعد خريطة كبيرة لمنطقة القتال على منضدة طويلة في وسط الخيمة الكبيرة .

(تلك كانت أساليب العبيد ، وهي التي استنبطوها خلال عامين من الحملات المريرة ، تماما كما استنبطوا لأنفسهم خطط القتال في المعركة . هاهم قادة الجيش يقفون حول المنضدة ، يتطلعون إلى الخريطة ، ويتحققون من صحة المعلومات التي تناول حجم ونوع القوات التي تواجههم . ثمانية رجال حول المنضدة . في أحد أطرافها يقف سبارتا كوس ، وداود إلى جواره . ولو أن غربيا تطلع إليه لأول وهلة ، لقال إن ذلك الرجل ، سبارتا كوس ، في الأربعين على الأقل . فقد وخط الشيب شعره الجمعد وأضحى

أنحف من قبل ، ونشأت هالات سوداء تحت عينيه لحاجته إلى النوم .

(وسيقول من يراء ، إنه في سباق مع الزمن . وإنه يحمل الزمن على كتفيه ، وإن الزمن يركبه ، وستكون تلك ملاحظة حاذقة لأن الرجل الذي يهيب بالعالم كله ويناديه ، لا يوجد إلا مرة واحدة في كل فترة ، ومرة في كل عدد من السنين ومر القرون . وتمر القرون وبغير العالم وجهته . لكن ذكرى هذا الرجل تخلد على الدوام . ولم يكن ذلك الرجل منذ زمن قصير إلا مجرد عبد ، أما اليوم فنذا الذي لم يسمع باسم سبارتا كوس ؟ لكنه لم يجد من الوقت المتسع للتوقف وإمعان الفكر فيما أصابه . وكان هو أقل الناس قدرة على إيجاد الوقت للتفكير فيما حدث داخل نفسه ، خلال عامين ، الأمر الذي أحاله من الرجل الذي كانه إلى الرجل الذي أصبحه اليوم . فهو اليوم قائد الجيش من حوالي خمسين ألف رجل ، وهو من بعض النواحي أحسن جيش عرفه العالم على الإطلاق .

(فهو جيش يحارب من أجل الحرية في أبسط صورها وأبعدها عن الزخرف . والعالم قد نهده في الماضي جيوشا لانهاة لها ، جيوشا حاربت من أجل الاستيلاء على شعوب أو مدن أو ثروة أو مغانم أو قوة أو سيطرة على هذه المنطقة أو تلك ، لكن هذا يحارب من أجل الحرية والكرامة الإنسانية ، جيش لا يدعي ملكية

أرض أو مدينة لأن أفرادهم تجمعوا من كل البلاد والمدن والقبائل ، جيش يشترك كل جندي فيه في ميراث عام من العبودية والكرامية الشاملة لمن جعلوا من غيرهم من الرجال عبيدا . هذا هو جيش أخذ على نفسه أن ينتصر ، فهو لا يملك الجسور التي يتراجع عليها ، ولا الأرض التي يحتذى بها أو يستريح عليها ، وهذه لحظة تتغير فيها حركة التاريخ ، فهي بداية ، وهي انتفاضة ، وهي همة بلا كلام وهي نذير ، وهي وميض من النور ينذر برعد يهز الأرض وورق يعنى الأبصار . هو جيش تفتحت بصيرته فجأة على أن النصر الذي أخذ على نفسه أن يحزره ، يجب أن يغير العالم ، وهو لهذا يجب أن يغير العالم أو لن ينتصر .

(ولعل سؤالا يقوم في ذهن سيارتا كوس ، وهو يقف أمام الخريطة متأملا : عن كيف خرج هذا الجيش إلى الوجود . ويفكر في حفنة المجالدين الذين شقوا طريقهم خارجين من مدرسة متعهد المجالدين البدين ، ويعتبرهم حربة مندفعة تبعث الحركة في بحر من الحياة ، كي ينفجر فجأة سكون عالم العبيد الصابر واستقراره . ويفكر في الصراع الذي لا نهاية له لتحويل هؤلاء العبيد إلى جنود ، وفي حملهم على العمل معا والتفكير معا ، ثم يحاول أن يفهم لماذا توقفت الحركة .

(لكن الوقت الآن لا يسمح بالكثير من مثل هذا التفكير . لأنهم ذاهبون الآن إلى القتال . ويثقل قلبه الخوف . فهذه عادته

قبل المعركة، وعندما تبدأ المعركة يتبد كثير من هذا الخوف، لكنه يشعر بالخوف في تلك اللحظة: فينظر إلى رفاقه حول المنضدة، لماذا تبدو وجوههم بمثل هذا الهدوء؟ ألا يشاركونه خوفه؟ ويرى كريكسوس، الغالي ذا الشعر الأحمر، وعينيه الصغيرتين الزرقاوين غائرتين وهادئتين في وجهه الأحمر التمش، وشاربه الأصفر الطويل ينزل ملتفاحول ذقنه. وهذا جانيكوس، صديقه وأخوه في العبودية وفي القبيلة. وهذا كاستوس، وفراكسوس، ونوردو، الإفريقي الأسود ذو الأكتاف القوية، وموسار، المصري النحيل، الرقيق، الحاضر البديهة، واليهودي داود - لا يبدو على واحد منهم الخوف. لماذا هو خائف إذن؟ ويقول لهم عند ذلك في حدة.

(- حسن يا أصدقائي - ماذا سنفعل؟ أنقف هنا اليوم كله، نخمن نحو ذلك الجيش المرابط في الجانب الآخر من الوادي؟)
(فيقول جانيكوس .

(- إنه جيش كبير جداً . إنه أكبر من أي جيش رأيناه أو قاتلناه، أنت لا تستطيع عددهم، لكنني أستطيع أن أخبرك أننا قد ميزنا أعلام عشرة فيالتي . لقد استدعوا الفيالقين السابع والثامن من بلاد الغال، واستدعوا أكثر من ثلاثة فيالتي من إفريقييا واثنين من أسبانيا . لم أر من قبل جيشاً مثل هذا، لم أره طيلة أيام

حياتي ، يجب أن يكون عدد الرجال المرابطين في الجانب الآخر من الوادي سبعين ألفاً .

وكريكسوس هو من يتطلع دواما إلى الخوف أو التردد . ولو أن الأمر كان بيد كريكسوس ، لكانوا قد استولوا على العالم كله بالفعل . فليس له إلا شعار واحد - غزو روما - كفوا عن قتل الفتران وأحرقوا عشهم . ويقول عند ذلك .

— أنت تتعبنى يا جانيكوس . لأن جيش الأعداء بالنسبة لك هو دائماً أكبر جيش ! والوقت على الدوام هو أسوأ وقت للمعركة . سأقول لك شيئاً ، أنا لا أهتم مثقال ذرة بجيشهم . ولو أن الأمر بيدي ، لهاجتهم الآن ، في هذه اللحظة ، وليس بعد ساعة أو يوم أو أسبوع من الآن .

ويريد جانيكوس أن يدفع عن نفسه اللوم ، فيقول إن من المحتمل أن يقسم الرومانيون قواتهم . فقد فعلوا ذلك من قبل وقد يفعلونه مرة ثانية .

فيقول سبارتاكوس :

— لن يفعلوا . ولك أن تثق برأيي هذا . إذ ما الذي يدفعهم إلى ذلك ؟ نحن كلنا هنا أمامهم . وهم يعلمون أننا كلنا هنا . ما الذي يدفعهم إلى ذلك إذن ؟

— عدد كبير — سبعون ألفاً على الأقل .)

فيهز سبارتا كوس رأسه مكتئبا ويقول :

— أوه . . هذا عدد كبير ، عدد كبير جداً . لكنى أظنك

على حق ، نحن مضطرون إلى قتالهم هنا .

ويحاول أن يظهر بمظهر المستخف ، لكن قلبه لا يحسن الاستخفاف

على الإطلاق .

(ويقرر أن يبدأ هجوماً على جناح الجيش الروماني بعد

ثلاث ساعات ، لكن المعركة تبدأ قبل ذلك . إذ ما يكاد يختلف

القادة يعودون إلى كتبهم ، حتى يشن الرومانيون هجومهم على

وسط جيش العبيد . وليس في المعركة من تكتيك عسكري معقد ،

(ويقول موسار المصري .

(— أنا أتفق لأول مرة مع كريكسوس ، وذلك شيء نادر

ما يحدث ، لكنه على صواب هذه المرة . ذلك جيش كبير هناك

عبر الوادي ، وستضطر إلى قتاله إن أجلا أو عاجلا . ولعل من

الأفضل أن يحدث ذلك عاجلا . فهم قادرون على البقاء أكثر منا

لأنهم سيأكلون ولن نجد نحن مانأأكله بعد فترة من الزمان . وإذا

تحركنا ، وجدوا الفرصة التي يبعثونها .

(فيسأله سبارتا كوس قائلاً .

(— كم عدد رجالهم فيما تظن ؟)

وليس فيها مناورات بارعة . إذ يقوم فيلق بالهجوم كرأس الحربة على قلب جيش العبيد ، كحربة يلقونها على مقر القيادة ، ويندفع الجيش الروماني الضخم بأسره مهاجما خلف الفيلق . وبظل داود إلى جانب سبارتا كوس ، ويستطيعان من مقر القيادة أن يوجها دفاعا متناسقا لمدة تقل عن الساعة . ثم يحيط بهما القتال ويبدأ الكابوس . ويتحطم الفسطاط وتجرفهما المعركة كالطوفان ، ويزار إعصار حول سبارتا كوس .

(هذا هو القتال . الآن يستطيع داود أن يدرك أنه في معمة القتال ، وأن كل شيء آخر إلى جانب هذا ، هو مجرد مناوشة . في هذه اللحظة لا يصبح سبارتا كوس قائدا لجيش كبير ، إنما يصبح مجرد رجل يحمل سيفاً ، والدرع المربع الذي يحمله الجندي ويقا تل كالجحيم نفسها . تتمخض المعركة من حولهما . وتقودهما المعركة بعيداً ، منفردين ، فيقاتلان من أجل حياتهما . ثم يهرع مئات الرجال لمساعدتهما ، ويتطلع داود إلى سبارتا كوس فيرى التراقى يضحك من خلف الدم والعرق .

ويصبح قائلاً :

(— ياله من قتال . ما هذا القتال يا داود ؟ هل ستقدر لنا الحياة في قتال مثل هذا لنرى الشمس وهي تشرق ؟ من يدري ؟ ويفكر داود قائلاً . . إنه يحب القتال . أى رجل غريب هذا ، انظر كيف يحب المعركة . انظر كيف يقاتل . إنه يقاتل مثل (١٢ - سبارتا كوس)

بطل من أبطال أساطير الشمال القدامى، إنه يقاتل كواحد من أبطال
تلك الأغنية التي يغنيها وهو لا يدري أنه يقاتل بنفس الطريقة هو
الآخر، وأنه يجب أن يقتل قبل أن تمس حرية سبارتا كوس. فهو كالقط
الذي لا يتعب أبداً، قط كبير، قط الغاب، وسيفه كالخلب.
وهو لا يفصل عن سبارتا كوس أبداً، والطريقة التي يستطيع بها
البقاء دائماً إلى جواره، تحمل المرء على الظن بأنه موصول
بسبارتا كوس، وهو لا يرى إلا القليل جداً من المعركة. لا يرى
إلا ما هو أمامه وأمام سبارتا كوس مباشرة، لكن في ذلك
الكفاية. ويعرف الرومانيون أن سبارتا كوس في هذا المكان،
فينسون الحركات الرسمية للفرق التي يتدرب عليها جنودهم سنوات
ليتقنوها. ويتجمعون، يدفعهم ضباطهم، يقاتلون ويخدشون
للوصول إلى سبارتا كوس، لجره أرضاً، لقتله، لقطع رأس
الوحش. ويزداد اقترابهم منه إلى حد أن يستطيع داود سماع كل
الشتائم القذرة تنهال من أفواههم. إذ يعلو صوتها على زفير
المعركة المدوي. لكن العبيد يعلون كذلك أن سبارتا كوس في
ذلك المكان، فيتدفقون من الجانب الآخر إلى قلب المعركة.

ويحملون اسم سبارتا كوس عالياً كالعلم، ويتماوج فوق كل
ميدان القتال كالعلم، سبارتا كوس، وتستطيع سماعه على بعد

أميال من المعركة ويسمعون صوت المعركة في مدينة مسورة على
بعد أميال خمسة من الميدان .

لكن داود يسمعه دون أن يصغى لأنه لا يعرف شيئاً
إلا ما يقاتله وإلا ما هو أمامه . وتزداد المعركة وحشية ، بينما
قوى المجالد تخور وتضعف ، وتجف شفثاه ، ولا يدري أن المعركة
تمتد عن ميلين من الأرض . ولا يدري أن كريكسوس قد حطم
فيلقين وأنه يطارد هما . هو لا يعرف إلا ذراعاً وسيفه وسبارتا كوس
المجاور له . وهو لا يدرك حتى أنهما شقا طريقهما مقاتلين
نازحين سفح التل إلى قاع الوادي حتى تبدأ أقدامه تغوص إلى
المفصل في الأرض المعشبة الرخوة ثم ينزلان إلى النهر . ويستمر
القتال وهما واقفان في الماء غارقين فيه حتى الركبة ، والماء يجري
أحمر قابيا كالدماء . وتغرب الشمس ، وتسهيل السماء كلها حمراء ،
تحية مرة منها إلى آلاف الرجال الذين يملثون الوادي بكراهيتهم
وصراعهم . وتخف المعركة في الظلام لكنها لا تتوقف قط . ويفمس
العبيد رؤوسهم في مياه النهر الدامية تحت ضوء القمر البارد ،
ويشربون ويشربون لأنهم إن لم يشربوا ماتوا .

ومع بزوغ الفجر يتحطم الهجوم الروماني . من في حياته
كلها قاتل رجالا مثل هؤلاء العبيد؟ مهما كان العدد الذي نقتله
منهم ، يأتي غيرهم وهم يصيحون ويصرخون ليحلوا محلهم . وهم

عندما شاع بين الناس ، أن المقاتل يموت ، فتر الاهتمام به ،
وما إن شارفت الساعة العاشرة على صلبه ، وكانت في منتصف بعد
الظهر ، حتى لم يكن قد تبقى لرؤيته إلا حفنة من أكثر أنصار
الصلب تمسكا برأيهم — هم وقليل من الصعاليك الشحاذين
والمتعطلين الجربى الذين لا مكان لهم بين المباهج المثمرة الكثيرة
التي تحفل بها مدينة مثل كابوا بعد الظهيرة . صحيح أنه لم يكن في
كابوا أى سباق في ذلك الوقت ، ولكن لاشك أن أحد المجتهدين
الرائعين كان مشغولا بشيء ما . ولما كانت كابوا مدينة شهيرة
بالنسبة للسياح ، كان من بين مفاخر مواطنى كابوا الأثرياء أن
يعقدوا المقاتلات الزوجية لمدة أقلها ثلاثمائة يوم كل عام . وكان
في كابوا مسرح ممتاز ، وعدد من بيوت الدعارة العامة الكبيرة
تعمل بطريقة مفضوحة لا يرضون عنها في روما . وكانت النساء
من كل جنس وكل شعب يعملن في مثل هذه الأماكن ، وقد
درين خصيصا لاجتذاب أكبر عدد من الناس . وكان في المدينة
كذلك حوانيت فاخرة ، وسوق للعطور ، وحمامات ، وألوان
كثيرة من الرياضات البحرية في الخليج الجميل .

لذلك لم يكن من المستغرب أن يكون مجالد مصلوب يموت
مجرد متعة عابرة . ولو لم يكن بطل التصفية ، لما ألقى عليه إنسان

أكثر من نظرة واحدة . ولم يعد ، حتى مع كونه بطلا ، موضع اهتمام كبير . وأعلن التجار الأثرياء الثلاثة الذين يتزعمون الجالية اليهودية الصغيرة في المدينة في رسالة موجهة ، إلى مواطني روما كاملي الأهلية الذين يقطنون كابوا تبرئهم من أى معرفة به أو مسئولية عنه . وأعلنوا أن كل عناصر الثورة والتمرد قد استنصلت من بلادهم . وأشاروا كذلك إلى أن الختان ليس دليلا على الأصل اليهودى . فالختان واسع الانتشار بين المصريين والفينيقيين وحتى بين الفرس . كما أنه ليس من طبيعة اليهود أن يتجهجوا على القوة التى أقرت حالة من السلام والرخاء والنظام الحميد العاقبة فى معظم أنحاء العالم . وهكذا وصل المجالد إلى أبواب الموت فى وحدة وازدراء وألم بعد أن تخلى عنه الجميع من كل جانب . ولم يعد مصدر تسلية للجنود ، ولم يعد يعنى إلا القليل من المتفرجين . اللهم إلا امرأة عجوزا تعسة جلست وقد عقدت يديها حول ركبتيها وراحت تحمق فى الرجل المعلق فوق الصليب . وبدأ الجنود يغيظونها من باب الترويح عن النفس .

فقال واحد منهم :

— هيه يا جميلة ، بماذا تحلين أمام هذا الرجل المعلق هناك ؟

وسألها آخر

— هل نفك قيوده ونعطيه لك ؟

فقلت :

— يا له من أسلوب للحديث . أى ناس أنتم ! يا لها من طريقة لمخاطبتي .

— أوه ، أنا أعتذر يا مولاتي .

وبدأ الجنود ينحنون لها واحدا بعد الآخر انحناءات عميقة .
ولفتت حركاتهم أنظار المتفرجين القلائل فتجمهروا حولهم .
وقالت العجوز :

— أنا لا أعبأ مثقال ذرة باعتذار ائكم . قدارة . أنا قدرة وأنتم أقذار .
أستطيع أنا أن أزيل قدارتى فى الحمامات ، أما أنتم فلا .

ولم يعجبهم أن يكون للسخرية طرفان . وعاد شعورهم
بالسلطان يؤكد نفسه ، فتصلبوا والتمعت عيونهم . وقال واحد منهم :
— اهدنى يا سيدتى العجوز وامسكى لسانك .
— أنا أقول ما أشاء .

— إذن فاذهبى واستحمى ثم عودى . فأنت منظر للمشاهدة فى
جلستك هذه عند أبواب المدينة وبمنظرك هذا .
فضحكت هازئة منهم وقالت :

— أنا منظر للمشاهدة حقا ، أنا منظر مخيف . هيه ؟ أى ناس
أنتم أيها الرومانيون ؟ أنظف ناس فى العالم ، ألا يعتبر رومانيا
من لا يستحم كل يوم حتى ولو كان عاطلا كسفاليتكم ، ويمضى

كل أصبحه في المقامرة وكل أمسياته في المجتلد . إنه نظيف
ملعون .

— كفى أيتها السيدة العجوز . أغلقى فك .

— ليس كافيا على الإطلاق . أنا لا أستطيع أن أستحم . فأنا أمة
والعبيد لا يذهبون إلى الحمامات . وأنا عجوز مستهلكة ولا
تستطيعون عمل أى شيء لى . ولا شيء واحد . فأنا أجلس في
الشمس ولا أضايق أحدا . لكنكم لا تحبون ذلك . أليس
كذلك ؟ أنا أذهب مرتين كل يوم إلى بيت سيدى فيعطيني حفنة
من الخبز الطيب ، خبز روما الذى يزرعه العبيد ويحصده العبيد
ويطبخه العبيد ويخبزه العبيد . وأمشى في الشوارع ، فأى شيء
، ما أرى ليس من صنع أيدي العبيد ؟ أتظنون أنكم تخيفوننى ؟
أنا أبصق عليكم .

وبينما كان ذلك يدور ، عاد كراسوس إلى الباب الأيوسى .
كان لم ينم إلا قليلا ، كما يفعل الناس عادة عندما يحاولون أن
يعوضوا بالنهار بقية ما كان من الضروري أن يعملوه في الليلة
السابقة . ولو أن أحدا سأله لماذا عاد إلى مكان الصلب ، لكان
من المحتمل أن يهز كستفيه . لكنه كان في حقيقة الأمر يعرف
لماذا عاد . فقد كان شطر كبير من حياة كراسوس ينتهى
مع موت ذلك الرجل ، آخر المجالدين وسيد الناس كراسوس ،

لا كرجل واسع الثراء فحسب ، بل على أنه الرجل الذي أخذ ثورة العبيد .

وذلك شيء من اليسير أن تقوله ، ولكن ليس من اليسير أن تعمله . فكراسوس لن يفصل نفسه طيلة حياته عن ذكرياته عن حرب العبيد . فسيعيش مع تلك الذكريات ، ينهض من نومه بها ، ويذهب إلى فراشه معها . ولن يقول يوما لسبارتا كوس وداعا حتى يموت هو كراسوس .

عند ذلك ينتهى الصراع بين سبارتا كوس وكراسوس ، ولكنه ان ينتهى إلا حيثذاك ، لذلك عاد كراسوس فى ذلك الوقت إلى باب المدينة ليعيد النظر إلى كل ما تبقى على قيد الحياة من خصمه .

وكان ضابط جديد هو المسئول عن تلك النوبة ، لكنه عرف القائد - كغالبية الناس فى كابوا - فبذل كل جهده ليكون مفيدا وكيسا . لدرجة أنه اعتذر لقلة من تبقى من الناس لرؤية المجالد يموت .

- إنه يموت بسرعة كبيرة ، وهذا أمر مشير للدهشة . فقد كان يبدو من النوع القوي الذى يبقى طويلا . وكان من الممكن أن يظل حيا على الصايب ثلاثة أيام . لكنه سيموت قبل الصباح .

فسأله كراسوس قائلا :

— كيف عرفت ؟

تستطيع أن تعرف ذلك بالتجربة . فقد شاهدت كثيرا من عمليات الصلب الكبيرة ، وكلهم يتبعون نفس النظام . اللهم إلا إذا احترقت المسامير عرقا رتيسيا فينزف المصلوب حتى الموت بسرعة كبيرة . ومع هذا ، فهذا الرجل لا ينزف كثيرا . كل ما في الأمر أنه لا يرغب في الحياة بعد الآن ، وعندما يحدث ذلك فهم يموتون بسرعة ، لم تكن تظن أن الأمر سيكون كذلك ؟

فقال كراسوس :

— لا شيء . يدهشني

— أظن ذلك . أعتقد بعد كل ما شاهدت .

وفي تلك اللحظة : وضع الجنود أيديهم على المرأة العجوز ، فلقنت صرخاتها الثاقبة وهي تحاول التخلص منهم انتباه القائد والضابط المنوط بحراسة باب المدينة . فخطا كراسوس أماما وألم بما يدور في نظرة سريعة وقال يخاطب الجنود في قسوة :

— أي مجموعة رائعة من الأبطال أنتم . دعوا السيدة العجوز

وشأنها .

وحملتهم لهجة صوته على الطاعة ، فأخلوا سبيل المرأة . وعرف واحد منهم كراسوس ، فهمس بذلك للآخرين ، وعند ذلك تقدم

إليهم ضابط الحراسة وأراد أن يعرف حقيقة الأمر وهل لم يجدوا
ما يشغلون به وقتهم خيرا من ذلك .

- كانت سليطة تتحدث بلغة قدرة .

فقهاه واحد من الرجال الواقفين . فقال الضابط يخاطب
المتسكعين :

- ابتعدوا عن هنا ، كلكم .

فراجعوا عدة خطوات ، لكنهم لم يبعدوا كثيرا . ورمقت
العجوز الدرديس كراسوس في مكر ، وقالت :

- إذن فالقائد الكبير هو من يحميني .

فسألها كراسوس قائلا :

- من أنت أيتها الساحرة العجوز ؟

- أيها الرجل العظيم : هل يجب أن أركع أمامك ، أم أن
أبصق على وجهك ؟

فصاح الجندي يقول :

- رأيت ؟ ألم أقل لك ؟

فسألها كراسوس :

- أجل . . حسن الآن ، ماذا تريد من أيتها العجوز ؟

— كل ما أريده أن يدعوني وشأني. لقد خرجت إلى هنا لأرى رجلا طيبا يموت ، ويجب ألا يموت وحيدا . جلست أرقبه وهو يموت . وأقدم له قربانا من الحب . وأقول له إنه لن يموت أبدا ، فسبارتا كوس لم يموت قط . سبارتا كوس حتى لا يموت .

— عم تتكلمين بحق السماء يا عجوز ؟

ألا تعرف عم أنكلم يامار كوس ليس كينيوس كراسوس ؟ إنما أتكلم عن سبارتا كوس . أجل ، أنا أعرف لماذا جئت إلى هنا . — لا أحد غيري يعرف . هم لا يعرفون ، لكنك أنت وأنا نعرف أليس كذلك ؟

فأمر ضابط الحراسة الجنود أن يمسكوا بها ويحروها بعيدا فما هي إلا غرارة عجوز قدرة ، لكن كراسوس أبعدهم بإشارة منه في غضب وقال :

— قلت لكم دعوها وشأنها ، وكفوا عن إظهار شجاعتكم أمامي إذا كنتم على هذا القدر من الشجاعة ، فقد تحبون أن تكونوا جميعا في فيلق بدلا من مصيف . في استطاعتي أن أعني بنفسى . في استطاعتي أن أدافع عن نفسى أمام سيدة عجوز .

فابتسمت العجوز وقالت :

— أنت خائف .

— من أى شيء أخاف ؟

— خائف منا، ألسنت كذلك؟ كذلكم تعانون مثل هذا الخوف .
ولهذا السبب جئت أنت إلى هنا . لتراه وهو يموت . لتتأكد من
أن آخرهم قدمات . يا إلهي ، ماذا فعل بكم بعض العبيد؟ فأنتم
ما زلتُم خائفين . وحتى بعد أن يموت ، هل تظنون أن في ذلك
النهاية؟ أتظن في ذلك النهاية يا ماركوس ليكيونيوس كراسوس؟

— من أنت أيها العجوز؟

فأجابته العجوز قائلة :

— أنا أمة .

وبدا عليها حينذاك أنها أصبحت بسيطة ، طفلة مخرفة .
وقالت :

— جئت إلى هنا لأكون مع واحد من ناسي ، ولأقدم إليه
بعضاً من الراحة ، جئت أبكي من أجله . فكل الآخرين خائفون
من المجيء . وكأبوا مليئة بناسي ، لكنهم خائفون . لقد قال لنا
سبارتا كوس . . انهضوا وتحركوا ، لكننا خائفون . نحن أقوياء
إلى حد كبير ، ومع ذلك فنحن نجبن ونفشج ونجري .

وانهمرت الدموع عند ذاك من عينيها الكيليتين الرمداوين ،
وضرعت إليه تسأله :

ماذا يفعلون بي ؟

شما انما العجوز اجلسى هناك ، وابكى إذا شئت

وألقى البير بقطعة من النقود ، وابتعد وهو غارق في أفكاره .

ومشى إلى الصليب وهو يتطلع إلى المجالد الذي يموت ، ويقطب

كلمات العجوز في ذهنه .

انقسمت حياة المجالد إلى أربع فترات . الطفولة وكانت فترة
عدم المعرفة السعيدة ، وفترة شبابه وهي المليئة بالمعرفة والأسى
والكراهية . وفترة الأمل وهي الفترة التي قاتل فيها مع
سبارتا كوس ، وفترة اليأس ، وهي الفترة التي اتضح فيها له أن
قضيتهم خاسرة . وكانت هذه هي نهاية فترة اليأس لأنه كان
يموت عند ذلك .

كان الصراع هو الخبز واللحم بالنسبة له . لكن الصراع كان
قد توقف بالنسبة له عند ذلك . كانت الحياة فيه سورة من
الغضب والمقاومة وصيحة عالية تطالب بالمنطق في العلاقة بين
الرجل والآخر . فبعض البشر قد جبلوا على قبول الأشياء على
علاقتها . والبعض لا يستطيع ذلك . ولم يكن هناك ما يستطيع
أن يقبله ، حتى وجد سبارتا كوس . عند ذلك عرف أن
الحياة الانسانية شيء له قيمة . وكانت حياة سبارتا كوس شيئاً
له قيمة ، كانت شيئاً نبيلاً ، وكان الرجال المحيطون به يحبون
حياة نبيلة — لكنه كان وهو يموت معلقاً على الصليب ما زال
يتساءل : لماذا فشلوا ؟ وراح السؤال يفتش عن الإجابة عنه
في حيرة العقل التي بقيت له ، لكن السؤال لم يجد إجابة له .

(وكان مع سبارتا كوس عندما ورد نبأ موت كريكسوس
وكان موت كريكسوس هو منطق حياة كريكسوس . فقد
كان كريكسوس يتشبث بحلم . وعرف سبارتا كوس متى انتهى ،
الحلم واستحال تحقيقه . وكان حلم كريكسوس ، والحافز الذي
يدفع كريكسوس هو تحطيم روما . ولكن حانت لحظات أدرك
فيها سبارتا كوس أنهم لن يستطيعوا تحطيم روما أبدا . وأن
روما تستطيع وحدها أن تحطمهم . كانت تلك البداية ، وكانت
النهاية أن خرج عشرون ألف عبد تحت قيادة كريكسوس .
وهذا هو كريكسوس قدمات وجيشه قد تحطم . مات كريكسوس
ومات رجاله . لن يضحك الغالي الضخم الجثة ، العنيف ، ذو
الشعر الأحمر بعد اليوم ولن يصبح بعد اليوم . فقد مات .

(وكان داود مع سبارتا كوس عندما ورد هذا النبأ ، إذ
حمل النبأ رسول ، هو واحد من نجوا : وأمثال هؤلاء .
الرسول يحيط بهم الموت من كل جانب . ويصفى سبارتا كوس
ثم يستدير لداود ويسأله :

— هل سمعت هذا ؟

— سمعت .

— هل سمعت أن كريكسوس قد مات ، وأن كل جيشه

قد مات ؟

— سمعت .

— أتسع الدنيا كل هذا القدر من الموت ؟ هل فيها كل هذا ؟
— الدنيا مليئة بالموت . وقبل أن أعرفك لم يكن في الدنيا
إلا الموت وحده .

فيقول سبارتا كوس :

— الآن ليس في الدنيا إلا الموت . وهو قد تغير ،
اختلف عما كان . لن يعود كما كان من قبل أبدا . لن يستعيد
يوما العلاقة الغالية بالحياة التي كان يحتفظ بها حتى تلك اللحظة ،
والتي كان يحتفظ بها حتى في مناجم الذهب في بلاد النوبة ،
والتي كان يحتفظ بها حتى في المجتلد عند ما كان يقف عاريا وفي
يده سكين . فالموت بالنسبة له قد انتصر على الحياة عند ذلك .
فيقف ووجهه لا ينطق بشيء ، وعيناه مليتان بلا شيء ، ثم
تنبثق الدموع من هذا اللا شيء وتندرج نازلة فوق خديه العريضين
الأسمرين . ياله من شيء رهيب يحطم القلب بالنسبة لداود
أن يضطر إلى الوقوف هناك ويراقبه وهو يبكي اهدا سبارتا كوس
يبكي ، وتدور الفكرة في ذهن اليهودي هكذا : هل أحدثك
عن سبارتا كوس ؟

(لأنك لن ترى شيئا من مجرد النظر إليه ، ولن تعرف
شيئا من مجرد النظر إليه . لن ترى إلا أنفه المكسور المفلطح

وفيه العريض ، وجلده الأسمر ، وعينه الواسعتين . كيف تعرفه إذن ؟ إنه رجل من نوع جديد . يقولون إنه كأبطال الأزمنة الغابرة . لكن ما وجه الشبه بين أبطال الأزمنة الغابرة وبين سبارتا كوس . هل ينحدر البطل من صلب أب أنجبه عبد ؟ ومن أين جاء هذا الرجل ؟ وكيف يستطيع أن يحيا مجرداً من الكراهية والحسد ؟ وأنت تعرف الرجل من مرارته وحقده لكن هناك رجلا لا يعرف المرارة ولا الحقد . هذا رجل نبيل . هذا رجل لم يتخطى . مرة طيلة حياته . إنه يختلف عنك — لكنه يختلف عنا كذلك .

لقد أصبح ، ما نشرع نحن في أن نكونه ، ولكن ليس فينا من أصبح ما أصبحه سبارتا كوس ، فقد تفوق علينا وفاقنا . وهو الآن يبكي :

ويسأله داود قائلاً .

— لماذا تبكي ؟ ستزداد الأمور شدة بالنسبة لنا الآن . فلماذا تبكي ؟ إن يدعونا ننعم بأي سلام الآن حتى نموت كلنا .

فيسأله سبارتا كوس قائلاً .

(— ألا تبكي أبداً ؟)

(م — ١٣ سبارتا كوس)

- عندما دقوا أبنى إلى الصليب بالمسامير ، بكيت . ولم أبك
هكذاك الحين قط .

فيقول سبارتا كوس :

(- أنت لم تبك من أجل أبك ، وأنا لأبكي من أجل
كريكسوس ، إنما أبكى من أجلنا . لماذا حدث ذلك ؟ فيم كان
خطونا ؟ لم أشعر بأذى شك في البداية ، فقد أمضيت حياتي
كلها في انتظار اللحظة التي يجدها العبيد القوة والسلاح في أيديهم ،
ولم يخامرني أدنى شك عند ذلك في أن عهد السباط قد انتهى ، وأن
الأجراس تدق في كل أنحاء العالم . إذن لماذا فشلنا ؟ لماذا فشلنا ؟
لماذا مت يا كريكسوس ، يارفيق ؟ لماذا كنت قوى العزيمة رهيبا ؟
لقد مت الساعة ومات كل رجالك العظام .

فيقول اليهودي :

- من مات قد مات . كف عن البكاء .

لكن سبارتا كوس ينهار على الأرض في كوم مهذل
ووجهه في الرغام ، ويبكى ووجهه في الرغام قائلا :

- ابعث إلى بشارنيا . ابعث بها إلى . قل لها إنى خائف وإن
الموت يحيط بي من كل جانب .

وحانت للبهجاء لحظة من الوضوح الكامل قبل أن يموت
ففتح عينيه ، واتضح له الرؤية ، ولم يشعر بأى ألم على الإطلاق ،
مجرد برهة قصيرة . ورأى المنظر المحيط به فى وضوح وبساطة .
شاهد الطريق الأيوسى ، الطريق الرومانى العظيم ، مجد ومجرى
دماء روما ، يمتد بعيدا إلى الشمال حتى المدينة العظيمة نفسها .
وهناك على الجانب الآخر منه ، تقوم أسوار المدينة والباب
الإيوسى وإثنا عشر جنديا من جنود المدينة قد انتابهم الملل ،
والضابط المنوط به حراسة باب المدينة يغازل فتاة جميلة . ويجثم
على حافة الطريق هناك حفنة من المتسكعة المرضى ، وعلى طوال
الطريق نفسه حركة مرور متقطعة غير متتابعة ، لأن الوقت كان
قد تأخر بالفعل . وذهب غالبية سكان المدينة الأحرار إلى الحمامات ،
وتصور المجالد ، بتدريج ما سمح له تحديفه ، أنه يشاهد وراء الطريق
لآلاء البحر فى أجمل خليج فى العالم . وهبت ريح ندية قادمة من
البحر ، فكان مس النسيم لوجهه كمس الأيدى الندية لامرأة يحبها
رجل .

وشاهد الشجيرات الخضراء التى تنهض على حافة الطريق

وأشجار السرو الداكنة من وراء ذلك ، وشاهد إلى الشمال التلال المنحدرة ، والأشواك التي تغطي الجبال القفراء التي يختبئ فيها العبيد الفارون ، وشاهد سماء بعد الظهر الزرقاء ، الزرقاء الجميلة كالآلم الناتج عن رغبة لم تتحقق . وخفض عينيه فشاهد امرأة عجوزاً وحيدة تقبع على بعد ياردات قليلة من الصليب ، وتحقق إليه في ثبات وتبكي وهي ترقبه .

وقال المجالد لنفسه :

— يا للعجب إنها تبكي من أجلى . من أنت أيها العجوز يا من تجلسين هناك وتبكين من أجلى ؟

وعرف أنه يموت ، فقد كان ذهنه صافياً . وعرف أنه يموت ، فشعر بالشكر ، فعما قريب لن تصبح هناك ذاكرة أو ألم . إنماسيقى النوم وحده الذي يتطلع إليه كل الناس في ثقة مطلقة . ولم يعد يشعر بأية رغبة في صراع الموت أو مقاومته . وأحس أنه عندما يغمض عينيه ، فسيفادر الحياة جسده في يسر وسرعة .

ورأى كراسوس . رآه وعرفه . والنقت عيونهما . كان القائد الروماني يقف منتصب القامة ساكناً كأنه شمال ، وعباءته البيضاء تغطيه من الرأس إلى القدم في ثنايا طياتها . وكان رأسه الجميل الوسيم الذي لوحتة الشمس يبدو كرمز لعظمة روما وقوتها ومجدها .

وفكر المجاهد قائلاً لنفسه

— إذن فأنت هنا يا كراسوس لتراني وأنا أموت، جئت
لنشاهد آخر العبيد وهو يموت على الصليب. وهكذا يموت عبد،
فيكون آخر شيء يراه هو أغنى رجل في العالم.

عند ذلك تذكر المجاهد المرة الأخرى التي رأى فيها كراسوس،
وتذكر سبارتا كوس عند ذلك. وتذكر كيف كان سبارتا كوس،
كانا قد أدركا أن الأمر قد انتهى، كانا يعلمان أنه قد انقضى.
وكانا يعلمان أن تلك المعركة هي الأخيرة. وكان سبارتا كوس
قد ودع فارينيا، ودعها وأرغمها على الرحيل رغم كل ضراعاتها، ورغم
كل ضراعاتها الملتببة للبقاء إلى جانبه. وكانت مثقلة بحملها حينذاك.
وكان سبارتا كوس قد آمل أن يرى الطفل يولد قبل أن يوقعهم
الرومان في المحذور.

لكن الطفل كان مازال جنيناً لم يولد عندما افترق عن فارينيا.

وقال لداود عند ذلك :

— لن يقدر لي أن أرى الطفل يا صديق ورفيقي القديم. هذا
هو الشيء الوحيد الذي لا آسف عليه، فأنا آسف على شيء آخر.
لأى شيء آخر.

وكانوا قد استعدوا للمعركة ، عندما أحضروا لسبارتا كوس
الجواد الأبيض . وباله من حصان . مهر فارس جميل ، أبيض
كالثلج ، فيه كبرياء وقوى كالصخر . وكان جواداً ملاً تماماً لسبارتا كوس .
وكان سبارتا كوس قد أزاح همومه جانباً . ولم يكن ذلك قناعاً
بصطنعه ، لأنه كان سعيداً حقيقة ، ومليئاً بالشباب ، ومليئاً بالحياة
والحيوية والنار . وكان شعره قد استحال رمادياً خلال تلك
الأشهر الستة الأخيرة . لكنك لم تكن لترى ذلك الشعر الرمادي
عند ذلك ، إنما كنت ترى الشباب المتقدم في وجهه . وغداً ذلك
الوجه القبيح جميلاً ، وأحس كل إنسان رآه بمدى جماله . وتطلع
إليه الرجال وعجزوا عن الكلام . ثم أحضروا له الجواد الأبيض
الرائع .

فكان ما قاله هو

— أولاً.. أشكر لكم هذه الهدية الرائعة يا أصدقائي الاعزاء
ورفاقي المخلصين . أولاً أشكركم . أشكركم من كل قلبي .

ثم جرد سيفه ، وفي حركة أسرع من أن تلاحقها العين ، أغمد
السيف حتى مقبضه في صدر الجواد . وتعلق بالسيف بينما كان
الجواد يشب ويصرخ ، ثم انزع السيف عندما أخذ الجواد ينهار
هابطاً على ركبتيه ، ثم تدحرج جانبا ومات . وواجههم والسيف

في يده يقطر دما ، وتطلعوا هم إليه في رعب ودهشة . أما هو فلم يتغير فيه شيء .

وقال :

— لقد مات حصان . فهل تريدون أن تبيكروا لأن حصانا قد مات ؟ نحن نقاتل من أجل حياة الإنسان ، وليس من أجل حياة الحيوانات . والرومانيون يدللون الخيول ، لكنهم لا يكونون للإنسان شيئا سوى الاحتقار . واليوم سزى من الذي سيخرج من ميدان المعركة هذا : الرومانيون أم نحن . لقد شكرت لكم هديتكم . كانت هدية رائعة ، أوضحت مدى حبكم لي ، لكنني لم أكن في حاجة إلى مثل هذه الهدية لأعرف ذلك ، فأنا أعرف ما في قلبي ، قلبي مليء بالحب لكم ، ولا توجد في العالم بأسره كلمات تعبر عن الحب الذي أكنه لكم يارفاقي الأعزاء . لقد عشنا معا ، وحتى إذا قدر لنا الفشل اليوم ، فقد قمنا بشيء سيذكره البشر إلى الأبد . لقد قاتلنا روما أربع سنوات — أربع سنوات طوال : لم ندر ظهرنا يوما جبنًا أمام جيش روماني ، ولم نفر يوما . ولن نفر من ميدان المعركة اليوم . أكنتم تريدون مني أن أقاتل فوق ظهر جواد ؟ لنترك الجياد للرومانيين فسأقاتل على قدمي إلى جانب إخواني . فإذا كسبنا المعركة اليوم فسنحصل على الكثير من الجياد وسنعلقها إلى المحاريث بدلا من العربات الحربية . أما إذا خسرتنا ، حسن ، فلن نحتاج إلى الجياد .

ثم عانقهم . عانق كل واحد من رفاقه القدامى الذين تبعوا
وقبلهم فوق شفاههم . وعندما وصل إلى داود قال له .

- وأنت يا صديقي المجالد العظيم ، هل ستبقى إلى جانبي اليوم؟
- دائماً .

وفكر المجالد ، وهو معلق فوق الصليب ينظر إلى كرا سوس
قاتلاً .

- يا لضخامة ما يستطيع الإنسان أن يعمله .

لم يعد له عند ذلك ما يأسف عليه . فهو قد قاتل إلى جانب
سبارتا كوس ، قاتل هناك بينما كان هذا الرجل الذي يقف في مواجهته
الآن ، هذا القائد الكبير ، يمتطي جواده ويرفع ساقيه الأماميتين إلى
أعلى ويحاول أن يفسح لنفسه طريقاً في صفوف العبيد ، فصاح هو
وسبارتا كوس قائلين .

- تعال لنا يا كرا سوس تعال وذق تجاراتنا .

وقاتل حتى أصابه حجر من مقلاع فصرعه . وكان قد قاتل
ببراعة . وسره أنه لم يضطر لرؤية سبارتا كوس وهو يموت .
وسره أنه هو ، وليس سبارتا كوس الذي اضطر إلى تحمل هذا
العار والتحقير الأخيرين المتمثلين في عملية الصلب . لم يعد له
ما يأسف عليه عند ذلك ، ولا ما يأبه له ولا ما يؤلمه في تلك

اللحظة . وفهم ذلك الفرح الشاب الذي اعترى سيارتا كوس في
اللحظات الأخيرة . لم تكن تلك هزيمة لهم . وهو مثل سيارتا كوس
الآن ، لأنه يقاسمه سر الحياة العميق الذي كان سيارتا كوس يعرفه .
أراد أن يقول ذلك لكراسوس وحاول في يأس أن يتكلم . فحرك
شفتيه ، وتقدم كراسوس من الصليب .

وتوقف كراسوس ، وتطلع إلى الرجل المحتضر المعلق فوقه ،
لكن المجالد لم يصدر صوتاً . ثم تدحرج رأس المجالد إلى الأمام
وغادر أطرافه آخر ما تبقى فيها من قوة ، ومات .

وظل كراسوس على وقفته هناك حتى انضمت إليه المرأة
العجوز . وقالت العجوز :

-- لقد مات الآن

فأجابها كراسوس قائلاً .

-- أعرف ذلك .

ثم عاد إلى باب المدينة ، وسار يضرِب في شوارع كابوا .

في تلك الليلة تناول كراسوس عشاءه وحيداً . وأصدر تعليماته بأن يقال إنه في الخارج لأي زائر . ولاحظ عبيده الحالة النفسية السوداء التي كثيراً ما تعتريه ، فراحوا يمشون في رقة وفي حذر . وشرب قدراً كبيراً من زجاجة نبيذ قبل العشاء ، ثم زجاجة أخرى مع العشاء ، وبعد تناول الطعام جلس إلى زجاجة من شراب سرفيوس ، وهو شراب قوي من البلح كانوا يقطرونه في مصر ويستوردونه منها . وبلغ به السكر حداً كبيراً ، وهو وحيد مكسب ، سكر هو مزيج من اليأس وكراهية النفس .

وعندما بلغ الحد الذي لم يستطع معه المشي بثبات ، ترنح ذاهباً إلى غرفة نومه ، وترك عبيده يساعدونه في خلع ثيابه والنوم .

ومع ذلك فقد نام نوماً طيباً وعميقاً . وأحس بالراحة في الصباح فلم يكن في رأسه صداع ، ولم يذكر أي أحلام مزعجة لعلها طافت بنومه فكدرته . وكان من عادته أن يستحم مرتين كل يوم ، بعد قيامه من نومه مباشرة ، وقبل نزول الليل ، أي قبل

العشاء . وكان ككثير من أثرياء الرومان يظهر في الحمامات العامة مرتين على الأقل بعد الظهر من كل أسبوع كظاهر سياسى . لكن ذلك كان اختيارا ينهض على أسباب سياسية وليس على الضرورة . وكان يملك لنفسه ، حتى في كابوا حماماً فاخراً ، حوضاً سعته إثننا عشرة قدماً مربعة ، مغطى بالقرميد ، ينخفض عن مستوى الأرض ، مزوداً بالكفاية من الماء الساخن والماء البارد . إذ كان يصر أينما سكن على مقتضيات الاستحمام الملائمة . وكان عندما يشيد منزلاً يحرص على أن تكون الأنايب والصنابير كلها من النحاس اللامع أو الفضة حتى لا يصيبها التآكل والبلى .

وبعد أن استحم حلق له الحلاق ذقنه . كان يحب تلك الفترة من اليوم ، التسليم الضرورى الموسى الحاد يجرى فوق خديه ، وشعور الأطفال الذى يبعثه ذلك فيه ، والثقة الممتزجة بالخطر ، والمناشف الدافئة بعد ذلك ، والدهانات يدلك بها بشرته ، وتدليك فروة رأسه الذى يلى ذلك دائماً . وكان شديد التيه بشعره ، وكان أكثر ما يزعجه هو أن شعره بدأ يتساقط .

وارتدى ثوباً بسيطاً داكن الزرقة ، وشيت أطرافه بخيوط الفضة ، وانتعل كما هي عادته حذاء أبيض يصل ساقه حتى الركبة من جلد أثنى الغزال الطرى . ونظراً لأنه لم يكن من اليسير تنظيف هذه الأحذية كما يجب ، ونظراً لأن ارتداها يومين أو ثلاثة أيام

يعرضها للتلوث بالطين، لذلك كان كراسوس يحتفظ بمؤسسته الخاصة لصناعة الأحذية حيث يعمل أربعة من العبيد تحت إشراف صانع أحذية بأجر يومي. إلا أن ذلك كان جديراً بالثمن، لأن مظهره في الرداء الداكن الزرقة والأحذية البيضاء كان مظهر أجذاباً. وقرر في ذلك اليوم أن يتخلص من العباءة نظراً لازدياد حرارة الجو. وبعد أن تناول إفطاراً حقيقياً من الفاكهة والفطائر الهشة، استقل محفة إلى البيت الذي ينزل فيه الشبان الثلاثة.

وكان خجلاً ومنزعجاً بعض الشيء من معاملته لهيلينا، لكنه مع ذلك كان قد وعد بتسليتهم ومصاحبتهم في كايوس.

وكان قد زار ذلك البيت مرة أو مرتين من قبل، وكان يعرف خال هيلينا معرفة بسيطة؛ لذلك حياه كبير عبيد الأبواب بحرارة، ودخل به على الفور إلى الشرفة حيث كانت العائلة وضيوفاها مازالوا يتناولون إفطارهم. وصعد الدم إلى وجنتي هيلينا عندما رآته، وفقدت بعض رباطة جأشها الفتية التي عنيت بتنميتها، وبدأ على كايوس السرور الحقيقي لرؤيته، وأحسن العم والعمة التقدير العميق للشرف الذي أسبغه عليهم القائد بزيارته لهم، وقدموا له كل ضروب الحفاوة. وكانت كلوديا وحدها هي التي تطلعت إليه في فكر وتهكم ساخر وفي عينيها شيء من البريق الشرير.

وقال كراسوس

— إذا لم تكونوا قد قررت شيئاً بالنسبة لليوم ، فيسرنى أن
أستضيفكم فى أحد مصانع العطور . فقد يبدو مخجلاً أن تحضروا
إلى كابوا ولا تزوروا واحداً من هذه المصانع . خاصة وأن مدينتنا
الفقيرة لا تشتهر إلا بالقليل بعد المجالدين والعطور .

فابتسم كلوديا وقالت

— خليط غريب بعض الشيء .

وقالت هيلينا فى عجلة .

— لم نقرر شيئاً بالنسبة لليوم .

— إنها تعنى أن لدينا مشروعات ، ولكن يسرنا أن نضعها

جانبا ونذهب معك .

وتطلع كابوس فى حدة تقارب الغضب إلى أخته . ووضع لهم
كراسوس أن الدعوة تشمل السادة الكبار طبعاً ، لكنهما طلبا
إعفاءهما ، فصانع العطور ليست جديدة عليهم . وقالت ربة البيت
إن استنشاق العطور كثيراً يسبب لها صداعاً .

وبعد فترة قصيرة رحلوا فى طريقهم إلى مصنع العطور .
وحملتهم المحفلات إلى الجزء القديم من كابوا حيث تزداد الشوارع
ضيقاً ، وتزداد منازل السكنى ارتفاعاً . وكان من الواضح أنه حتى

عوانين المباني البسيطة المطبقة في روما لا تطبق هنا . لأن منازل السكنى كانت ترتفع شاهقة كخليط أحق من الكتل الخشبية التي يلعب بها الأطفال، وكانت المنازل في كثير من الأحيان تبدو كما لو كانت ستلتقي برووسها حيث كانت تصلب وتدعم بالقوائم الخشبية . وكانت تلك الشوارع مقبضة لما يسودها من ظلمة على الرغم من أن الوقت كان صباحا ، والسماء زرقاء صافية ، وكانت الشوارع قدرة مليئة بالقمامة التي تلفظها المساكن وتظل في الطريق حتى تتعفن وتمزج الروائح الكريهة المنبعثة من القمامة امتزاجا متزايدا مع الروائح الحلوة التي تبعث على الغثيان ، الصادرة عن الزيوت العطرية .

وقال كراسوس .

— هذا هو السبب في إنشاء مصانعنا هنا ، فالرائحة نفسها تؤدي غرضا مفيدا .

لم يكن في هذه الشوارع أى من عيبى المنازل ذوى الملابس الجيدة : المعتنى بشعورهم ، الذين تلحظهم كثيرا في أجزاء المدينة الأكثر ثراء . ولم يكن فيها كذلك الكثير من المحففات . وكان الأطفال القذرون نصف العراة ، يلعبون في البالوعات . وكانت النساء فقيرات الثياب ، يشاكن ويساومن في أثناء شراء الأطقمة

من المنصات الجانبية ، أو يجلسن على أبواب المنازل ترعين أطفالهن .
وكان خليط من كلام غريب يسود المكان ، بينما كانت روائح أطعمة
غريبة تطهى تنبعث من النوافذ .

قالت هيلينا .

— ياله من مكان مخيف . أتعنى حقاً أن العطور تخرج من
هذه البالوعة ؟

— إنها تخرج منها حقاً يا عزيزتى . يخرج منها عطور أكثر
وأفضل من أى عطور يصنعونها فى أى مدينة أخرى فى العالم ، أما
بالنسبة لهؤلاء الناس ، فعالبيتهم من السوريين والمصريين ، ومنهم
بعض اليونانيين واليهود . لقد حاولنا أن نستغل العبيد فى مصانعنا
لكنتنا لم ننجح . فأنت تستطيعين أن ترغمى العبد على العمل ،
لكنك لا تستطيعين أن ترغميه على ألا يفسد ما يعمل . لأنه لا يزال
بنهاية ما يعمل . أعطيه حراثاً أو منجلاً أو فأساً أو مطرقة فتستطيعين
أن ترى ما يعمل ، وعلى أى حال فمن العسير إفساد مثل هذه الآلات .
ولكن أعطيه حريراً ينسجه أو نسيجاً دقيقاً أو إنيقاً رقيقاً ،
أو حديدى له مقاييس وحركات محدودة ، وأعطيه نصيباً من العمل
فى مصنع ، وثقى ، كما تثقين فى الله ، من أنه سيفسد العمل . ولا جدوى
من أن تضربه بالسياط ، لأنه سيفسد العمل مع ذلك . أما بالنسبة

لعمالنا - فأى حافز يدفعهم إلى العمل ؟ على أية حال هناك عشرة
منهم لكل عمل . ما الذى يدفع الواحد منهم إلى العمل ، بينما ينعم
التسعة الآخرون بحياة أفضل على الصدقات ، ويمضون أيامهم فى
المقامرة أو فى المجتلد أو فى الحمامات ؟ وكلهم ينضمون إلى الجيش ،
ففى الجيش بعض الفرص للإثراء إذا كنت سعيدة الحظ . ولو
أنا حتى فى الجيش نزيد من اتجاهنا المرة بعد المرة إلى البرابرة
فنجندهم ، لكنهم أى عمالنا ، يرفضون العمل فى أى مصنع لقاء الأجر
الذى نستطيع أن ندفعها لهم . نخطمنا نقاباتهم ، لأنه كان علينا أن
نختار بين تحطيم النقابات أو غلق مصانعنا . ولذلك نستأجر الآن
السوريين والمصريين واليهود واليونانيين . وحتى هؤلاء ، يعملون
حتى يتمكنوا من اقتصاد ما يكفي لشراء عوية المواطن من أى رئيس
لحى من الأحياء . لست أدري كيف ستكون النهاية ،
لأن المصانع على مثل هذا الحال ستغلق أبوابها بدلا من أن
تفتحها .

وكانوا قد وصلوا عند ذلك إلى المصنع . وكان بناء خشبيا
منخفضا قبيحا كالجالس القرفصاء بين منازل السكنى . وكان يبلغ
فى مساحته حوالى مائة وخمسين قدماً مربعة ، رثاً ، متداعياً ،
تعفت جدرانه الخشبية فى بعض المواضع ، وتحطمت الألواح من
الخشب هنا وهناك ، تبرز من سقفه غابة من المداخن ينبعث منها

الدخان وامتد على أحد جوانبه رصيف للسفن يقف إلى جانبه عدد من عربات النقل . وكانت العربات محملة بأكوام عالية من شرائح لحاء الشجر وسلال الفاكهة وجرار الفخار .

ووجه كراسوس حملة المحفات للدوران حول المصنع ليصلوا إلى واجهته . وهنا فتحت الأبواب الخشبية العريضة ، وتلقى كايوس وهيلينا وكلوديا أول انطباع لهم عما يدور داخل مصنع العطور .

كان البناء حظيرة كبيرة واحدة ، يقوم سقفه على دعائم من الخشب . وكان السقف نفسه محطما في الكثير من مواضعه ليسمحوا بدخول الهواء والنور . وكان المكان مليئا بالحرارة والضوء الصادر من الأفران المفتوحة . وكانت المداخن الطويلة تحمل المئات من الأواني الفخارية والبواتق ، وبدت لهم الأنايب اللولبية المكثفة الخارجة من أجهزة الاستقطار ، كشيء منتشرع من حلم شيطاني . وكانت رائحة الزيوت العطرية الفنية التي تبعث على الغثيان تسود المكان كله .

وتلقى الزوار كذلك انطباعهم عن مئات العمال . كانوا رجالا صفار الحجم ، سمر اللون ، لسكثير منهم لحمى ، عراة إلا بما يستر عوراتهم ، يرقبون أجهزة الاستقطار ، ويغذون الأفران ، ويقفون (م ١٤ مبارناكوس)

عند مناخذ التقطيع ، يقطعون لحاء الأشجار وقشور الفواكه ،
أو يملأون أنابيب فضية صغيرة بالعطر : يقطرون السائل النفيس
قطرة قطرة ويقفلون كل أنبوبة بالشمع الساخن . بينما أخذ
آخرون يقشرون الفاكهة ويقطعون شرائح بيضاء من دهن
الخنزير .

ورحب مدير المصنع - وهو روماني قدمه لهم كراسوس باسم
أفالوس ، دون أي تقدير له بذكر اسمه الثاني - رحب بالقائد
وضيوفه في مزيج من النعومة والطمع والحذر . وجعله قليل من
النقود الفضية من كراسوس ، أكثر إقبالا على إرضائهم ، وتقديمهم
من ممشي إلى آخر ، بينما مضى العمال في أعمالهم ووجوههم قاسية
عابسة مريرة ، وعندما كانوا يلقون إلى الزوار بنظرة جانبية ، لم
يمن ليطرأ على تعبيرات وجوههم أي تغيير ملحوظ . ومن كل ما
رأى كابوس وهيلينا وكلرديا هناك ، كان العمال هم أكثر الأشياء
غرابية بالنسبة لهم . إذ لم يكونوا قد رأوا من قبل مثل هؤلاء
الرجال قط . ففيهم شيء مخالف ومخيف . لم يكونوا عبيدا - ولم
يكونوا رومانيين ، بل ولا يشبهون الفلاحين الذين كان عددهم في
تناقص ، وكانوا مازالوا يتشبثون بقطع من الأرض متناثرة هنا
وهناك في إيطاليا . كانوا رجالا مختلفين . وكان ذلك الاختلاف
يبعث على القلق .

وشرح لهم كراسوس قائلاً:

- عملنا هنا هو التقطير . ونحن ندين بالشكر للبصريين في ذلك .

لكنهم لم يستطيعوا قط أن يحولوا عملية التقطير إلى الإنتاج على نطاق واسع . روما هي الوحيدة التي تستطيع تنظيم أى شيء .

فسأله كايوس قائلاً :

- لكن هل اختلف الأمر عن ذلك في أى وقت من الأوقات ؟

- أجل . ففي الأزمنة القديمة ، اضطر البشر إلى الاعتماد على استخراج العطور الطبيعية - وخاصة اللبان والمر والكافور طبعاً . وكلها نباتات صمغية تفرز الصمغ من لحاء الأشجار . وسمعت أن الناس يمتلكون في الشرق مزارع تضم مثل هذه الأشجار . يزرعون عنها اللحاء ويجمعون الصمغ كحصول منتظم دائم . وكانت الرائحة تحرق في معظم الأحوال كبخور . ثم اخترع المصريون جهاز الاستقطار الذي لا يعطينا الخمر والطريق القصير إلى السكر فحسب ، إنما يعطينا العطر كذلك .

وتقدمهم إلى إحدى مناضد التقطيع حيث كان عامل يقوم
بشريح قشر الليمون إلى شرائح في رقة الورق وحمل كراسوس
بإحدى هذه الشرائح وعرضها للنور ثم قال :

— لو أنكم أمعنتم النظر ، لاستطعتم رؤية حقائب الزيت .
وأنتم تعرفون طبعاً مدى جمال رائحة القشر ، وهذا هو أساس
العمل — ليس بالنسبة للليمون وحده طبعاً ، إنما بالنسبة لمئات من
الفواكه الأخرى وللحاء الأشجار — لاستخراج الجوهر العطري
الجميل . والآن إذا تبعتموني —

وتقدمهم عند ذلك إلى أحد المواقد . كانت آنية ضخمة تحوى
أجزاء من القشور قد وضعت على النار لتنضج ، والآنية عندما
توضع فوق الموقد تغلق بإحكام بغطاء معدني تخرج منه أنابيب
نحاسية تلاف وتدور إلى حيث تجري تحت رشاش من الماء وتنتهي
الأنبوبة في وعاء آخر .

وقال كراسوس يشرح لهم :

هذا هو جهاز الاستقطار . تطهر المادة الأصلية ، سواء كانت
من لحاء الأشجار أو أوراق الشجر أو قشور الفاكهة حتى تنفصل
عنها حقائب الزيت ، فتتصاعد عند ذلك مع البخار ثم تكثف
البخار برشاش الماء .

ثم قادهم إلى فرن آخر حيث كان الإنبيق يغذى غيره من الأوعية وقال :

- هنا ترون الماء يغمر الأوعية . عندما يمتلئ عندنا وعاء مثل هذا يبرده ، فيتجمع الزيت على سطح الماء . والزيت هو العطر ، ويرفع بعناية ونحفظه في هذه الأنايب الفضية . أما ما يتبقى فهو المياه المعطرة الرقيقة التي أخذت في الانتشار هذه الأيام كشراب للإفطار .

فصاحت كلوديا تسأله

- أتعنى أن هذا هو ما تشربه ؟

- أجل بعد أن يمزج بمياه مقطرة . لكنني أؤكد لك أنها صحية للغاية .

وهذه المياه تختلف في مذاقها كذلك ، كما تختلف الزيوت بعضها عن البعض من ناحية الرائحة . أما على ما هي عليه ، فتستعمل المياه في التطيب .

ورأى هيلينا تبسم له فسألها .

- أظنيتني لا أقول لكم الصدق ؟

- لا . لا . إنما أمتلي - إعجابا بكل هذه المعرفة . فأنا أستطيع

أن أذكر المرات التي سمعت فيها طيلة حياتي وصفا لطريقة صنع شيء من الأشياء . لم أكن أظن أن أي شخص يعرف طريقة صنع أي شيء .

فأجابها كراسوس في رصانة قائلاً

- إن عملي هو أن أعرف . فأنا رجل واسع الثراء ، ولا أجد في ذلك ما يدعو إلى الخجل ، كما يفعل الكثير من الناس . كثير من الناس ياعزيتي يتعالون على لأنني كرسيت نفسي لجمع المال . وذلك لا يعنيني ، لأنني استمتع بزيادة ثروتي . لكني لا أتعالى على المزرعة كمصدر للثروات كما يفعل زملائي . وعندما أعطوني حرياً لم يعطوني مدناً استولى عليها كما فعلوا مع يومي . إنما أعطوني حرب العبيد التي لم تعد على إلا بريح قابل حقاً . لذلك أحفظ لنفسي بأسراري الخاصة الصغيرة ، وهذا المصنع واحد منها . كل أنبوبة من هذه الأنابيب الفضية التي تحوي العطر تساوي عشرة أمثال وزنها من الذهب الخالص . والعبد يأكل طعامك ثم يموت ، لكن هؤلاء العمال . يصنعون من أنفسهم ذهباً ولست بعد هذا مسئولاً عن إطعامهم وإسكانهم .

فقال كايوس متأملاً

- ومع ذلك ففي استطاعتهم أن يعملوا ما عمله سبارتا كوس . فابتسم كراسوس وهز رأسه وهو يقول .

- العمال يشورون؟ لال ن يحدت ذلك أبدا . لانهم ليسوا
عبيدا كما ترى . إنما هم رجال أحرار يستطيعون المجيء والنهاب
كما يشاءون . لماذا يشورون إذن؟
ودار كراسوس بنظره في الحظيرة الكبيرة ، ثم تابع حديثه
قائلا .

- لا . الحقيقة أننا لم نعطل أفراننا لحظة واحدة خلال حرب
العبيد كلها . فلا علاقة بين هؤلاء الرجال وبين العبيد .
ومع ذلك ، فقد كان كايوس يشعر وهم يغادرون المكان
بالانزعاج ، لأن أولئك الرجال الصامتين ، الملتحين ، الأغراب ،
الذين كانوا يعملون في خبرة وسرعة ، لأوه بالخوف والتوجس .
ولم يدر السر في ذلك .

تاريخ

الجزء السابع

ويتضمن حياة شيشرون وجرا كوس عائدين إلى روما
وما تحدثنا من أثره الطريق ، ثم حلم سيارتا كوس وكيف
جرا كوس

www.alkottob.com

كما اتجه كايوس وكراسوس والفتاتان جنوباً إلى كابوا على الطريق الأيوسي ، كذلك فعل شيشرون وجراكوس قبل ذلك بوقت قصير متجهين شمالاً إلى روما . وكانت فيلاسالاريا على معبدة سفر يوم قصير من المدينة ، وأصبحت تعتبر بعد ذلك بوقت قصير ليس أكثر من ضاحية . لذلك مضى شيشرون وجراكوس في طريقهما على مهل ، تتقدم محفتاهما جنباً إلى جنب . ونجح شيشرون وهو من يميل إلى التعالي وفيه نصيب من ميل إلى التعاضم ، في فرض احترامه على ذلك الرجل وهو القوة الكبيرة في المدينة ، والواقع أنه كان من العسير بالنسبة لأي شخص ألا يستجيب إلى كياسة جراكوس السياسية .

فالرجل عندما يكرس حياته لكسب رضا الناس وتجنب عداوتهم ، ملزم بتفهمه سجايا معينة في علاقاته الاجتماعية ، فكان من النادر أن يقابل جراكوس شخصاً لا يستطيع كسب محبته . ومع ذلك ، فلم يكن شيشرون ممن يبالغ الإنسان في محبتهم . إذ كان واحداً من أولئك الشبان الماهرين الذين لا يسمحون للبدأ بالتدخل في النجاح . ومع أن جراكوس كان لا يقل عنه اتهازية ، إلا أنه كان يختلف عن شيشرون في أنه كان يحترم المبادئ ، وكانت المبادئ بالنسبة له ، لا تعدو بمجموعة مضايقات ، كان هو نفسه يتعد عنها . وإذا كان شيشرون ، الذي كان يجب أن يتصور نفسه مادياً يرفض أن يعترف بأية مظاهر للاحترام في أي كائن بشري ، فقد

جعل ذلك أقل واقعية من جراكوس . كما عرضه ذلك لأن يصدد
الشيء من وقت لآخر من الحبث اللطيف الذي كان العجوز
السمين يديه . وكانت حقيقة الأمر ، أن جراكوس لم يكن أكثر
خبثا من شيشرون . كل ما في الأمر ، أنه حارب خداع النفس
بقوة أكبر مما فعل شيشرون ، إذ وجد فيه عائقا يحول دون
تحقيق مطامحه .

وكان احتقاره لشيشرون ، من ناحية أخرى ، أقل مما كان
محتملا أن يكنه له . إذ كان شيشرون يحيره إلى درجة معينة . فكان
جراكوس يعلم أن العالم يتغير ، وأن تغييرا كبيرا جديدا قد طرأ
خلال حياته ، لا على رومنا حسب ، بل على العالم كله . وكان شيشرون
هو النذير بذلك التغيير . فهو واحد من جيل كامل من الشبان
الماهرين الذين لا يعرفون الرحمة . وكان جراكوس لا يعرف الرحمة ،
إلا أن الاعتراف بالأسى على الأقل ، والإحساس بالشفقة ، إن
لم يكن فعل يقوم على أساس من الشفقة ، كانت تشوب قسوته .
أما أولئك الشبان ، فما كانوا ليقدروا على الشفقة أو الأسى . وكان
يبدو عليهم أنهم يرتدون درعا مصمتا ضد الشفقة والأسى . وكان
ذلك يشمل بعض الحسد الاجتماعي ، لأن شيشرون كان متعلبا إلى حد
كبير ، وكان واسع الصلات ، ومع ذلك كان فيه أيضا عامل من الحسد
لما غلب به جراكوس الموقف من برود خاص ، وكان جراكوس

يحسد شيشرون إلى حد ما على قدر من القوة يفتقده هو نفسه، وفي ذلك كانت أفكاره تدور وتجول .

وسأله شيشرون في رقة قائلا

— أنا هم أنت ؟

وكان شيشرون نفسه يجد في حركة المحفة هدهدة تبعث على التعاس .

— لا — إنما أفكر .

فسأله شيشرون في خفة ، وهو يؤكد لنفسه أن القرصان العجوز يدبر تحطيم واحد من أعضاء مجلس الشيوخ الأبرياء .

— في مهام الدولة الثقيلة ؟

— في أشياء بلا خطر ، في ملحمة قديمة ، إذا شئت الحقيقة .
قصة بالغة في القدم ، سخيفة بعض الشيء . كمثل القصص القديمة .

— هل تحكها لي ؟

— أنا على ثقة من أنها سبعت المال إلى نفسك .

— لا يبعث الملل في نفس المسافر إلا مناظر الطبيعة .

— على أية حال ، هي حكاية أخلاقية ، وليس أبعث على السأم أكثر من الحكاية الأخلاقية . أتظن أن للقصص الأخلاقية أي محل في حياتنا اليوم يا شيشرون ؟

— إنها تصلح للأطفال الصغار . كانت قصتي المفضلة تدور حول احتمال وجود قريب ناء . هي قصة أم جراكشي .

— لالعلاقة بين الاثنين .

— كنت في السادسة من عمري حينذاك ، وعندما بلغت السابعة ، أخذت أناقش القصة .

فابتسم جراكوس وقال

— وهل كنت شريرا إلى هذا الحد وأنت في السابعة ؟

— أنا واثق من أنني كنت كذلك ، أحسن ما أحبه فيك يا جراكوس ، هو أنك لم تحاول يوما أن تشتري لنفسك شجرة عائلة .

— ذلك تبذير وليس فنيية .

- والقصة .

- أخشى أن تكون قد كبرت على القصة كثيرا .

فقال شيشرون:

- جربني . لم تخيب قصصك أمالي قط

- حتى وإن كنت بلا هدف ؟

- إنها لم تكن بلا هدف يوما . كل ما على المرء أن يكون
ماهرًا إلى حد كاف ليرى الهدف .

وضحك جراكوس وقال

- إذن سأروي قصتي . هي تدور حول أم كان لها ولد واحد
وكان طويل القامة ، جميلا وسيا ، وكانت تحبه كأكثر ما تحب
الأم ولدها .

- أظن أن أمي كانت ترى في عائقها يحول دون تحقيق مطامحها
المغربية .

- لنقل إن ذلك حدث منذ زمن بعيد ، عندما كانت الفضائل
ممكنة التنفيذ . أحبت هذه الأم ولدها . وكان هو دنياها . ثم أحب
الابن ووهب قلبه لامرأة كانت جميلة بقدر ما كانت شريرة . ولما

كانت المرأة بالغة الشر ، تستطيع أن تتأكد من أنها بالغة الجمال ومع ذلك فلم تمنح الابن حتى نظرة خاطفة ، أو حتى إيماءة ، أو حتى نظرة رقيقة . لاشئ . على الإطلاق .

فوافق شيشرون قاتلا

— لقد قابلت مثل هذا النوع من النساء .

— فذاب حينئذ لها . وعندما سنحت له الفرصة ، حدثها بما سيعمله من أجلها ، وبالقلاع التي سيشتيدها لها والثروات التي سيجمعها لها . لكن هذه الأشياء كلها كانت مجرد أفكار إلى حد ما . فقالت إنها لا تهتم بأي منها ، وطلبت منه بدلا من ذلك هدية في مقدوره أن يقدمها لها .

فسأله شيشرون قاتلا:

— هدية بسيطة ؟

وكان جرا كوس يجد لذة في رواية القصص ، فتأمل السؤال ثم أحنى رأسه موافقا وقال .

— هدية بسيطة جدا . وطلبت من الشاب أن يحضر لها قلب

أمه . ففعل .

أمسك بسكين وأغدها في صدر أمه ، ثم انزع قلبها . وراح
يجري في الغابة إلى حيث تقطن تلك المرأة الشريرة ، ولو أنها شابة
جميلة ، وهو مجفل من الرعب والإثارة من جراء ما فعل . . وبينما
هو يجري ، تعثر قدمه في جذر شجرة ، فسقط إلى الأرض .
وعندما سقط ، وقع القلب من بين يديه بعيدا ، فجرى ليلتقط
القلب الثمين الذي سيشتري له حب امرأة . وبينما هو ينحنى فوقه ،
سمع القلب يقول : يا ولدي ، هل أصبت بسوء عندما سقطت
يا ولدي ؟ . .

وعاد جراكوس بظهره إلى الوراء في محفته ، وجمع أطراف
أصابع كلتا يديه وراح يتأملها :

فقال شيشرون يسأل

— وبعد ذلك ؟

— هذه هي القصة كلها . قلت لك إنها قصة أخلاقية
لاهدف لها .

— هل مغزاها المغفرة ؟ إنها ليست قصة رومانية . فنحن
الرومانيين ننقصنا المغفرة : على أية حال ، ليست هذه القصة كقصة
أم جراكوسى .

— ليست المغفرة . إنما الحب .

— آه

— ألا تؤمن بالحب؟

— الحب الذي يفوق كل شيء آخر؟ على الإطلاق . فليس
مثل هذا الحب رومانيا .

— بحق السماء يا شيشرون ، أتستطيع أن تصنف كل شيء
مبارك على الأرض ، فتقول إن هذا الشيء روماني أو غير
روماني ؟

فقال شيشرون في أدب :

— معظم الأشياء .

— وهل تؤمن بذلك ؟

فضحك شيشرون وقال :

— إذا شئت الحقيقة ، لا أؤمن بذلك فعلا .

ففكر جراكوس لنفسه قائلا :

— ينقصه الإحساس بالفكاهة . وهو يضحك لأنه يحس أن
اللحظة ملائمة للضحك .

ثم قال بصوت مرتفع:

— كنت على وشك أن أضحك بالإقلاع عن السياسة .

— صحيح؟

— على كل . لا أظن أن نصيحتي ستؤثر عليك بصورة أو
بأخرى .

— لكنك تظن أنني لن أنجح يوماً في ميدان السياسة أليس
كذلك؟

— لا . إن أقول ذلك . هل فكرت يوماً في السياسة —
وما هي؟

— هي مجموعة من الأشياء ، فيما أظن ، ليس من بينهما ما هو
تظيف جدا .

وفكر جراكوس قائلاً لنفسه .

— لقد أمضيت حياتي في الاشتغال بالسياسة . هو لا يجيبني .

(م - ١٥ جبارنا كوس)

فأنا أظنه فيلظمني ولماذا يصعب علي إلى هذا الحد قبول حقيقة
أن شخصا لا يحبني؟

وقال شيشرون يخاطب الرجل السمين :

— سمعت أن فضيلتك الكبرى هي عدم نسيانك للأسماء . هل
صحيح أنك تستطيع أن تتذكر أسماء مائة ألف شخص ؟

.. هذا وهم آخر عن السياسة . أنا أعرف قليلا من الناس
بالاسم ، وليس مائة ألف .

.. سمعت أن هانيبال كان يستطيع أن يتذاكر اسم كل رجل
في جيشه .

صحيح . وسنقول إنه كان لسبارتا كوس ذاكرة مشابهة .
فنحن لا نستطيع أن نقر بأنه إذا كسب شخص نصرا فذلك لأنه
خير منا .

لماذا أنت مغرم كل الغرام بأكاذيب التاريخ صغيرها
وكبيرها ؟

.. أكلها أكاذيب؟

فهدر جرا كوس يقول :

معظمها ، التاريخ تفسير للدهارة والطمع . لكنه لم يكن
تفسيرا أميناً في يوم من الأيام . ولهذا سألتك عن السياسة .
فقد قال أحد الأشخاص هناك في البيت الريفي ، إن جيش
سبارتا كوس لم يكن يعرف السياسة ، لكن ذلك غير ممكن .

فابتسم شيشرون وقال :

.. مادمت سياسياً ، هلاقت لي ماهو السياسي ؟

فأجاب جراكوس في اختصار :

.. مزيف .

.. أنت صريح على الأقل

.. تلك فضيلتي الوحيدة ، وهي فضيلة ثمينة إلى حد كبير .
والناس يخلطون في السياسي بين الصراحة والأمانة ، ونحن نعيش
في جمهورية ، كما ترى . ومعنى ذلك أنه يوجد عدد كبير جداً من
الناس لا يملكون شيئاً ، وحقبة تملك الكثير . ويجب أن يحمي من
لا يملكون شيئاً ، من يملكون الكثير وأن يدافعوا عنهم .
ليس هذا فحسب ، إنما يجب أن يحرس من يملكون الكثير ممتلكاتهم ،
ولذلك يجب على من لا يملكون شيئاً ، أن يرحبوا بالموت في سبيل
ممتلكات أشخاص مثلك ومثلي ومثل مضيفنا الطيب أنطونيوس .

والناس من أمثالنا يمتلكون الكثير من العبيد كذلك. وهؤلاء العبيد لا يحبوننا. ويجب ألا تقع تحت تأثير الوهم بأن العبيد يحبون سادتهم. هم لا يحبونهم. ولذلك لن يحمينا العبيد من العبيد. لذلك يجب أن يرحب الناس الكثيرون، الكثيرون، الذين لا يمتلكون عبيداً على الإطلاق بالموت، لنستطيع نحن أن نحفظ بمبيدنا. وروما تحفظ ربع مليون رجل تحت السلاح. ويجب أن يرحب هؤلاء الجنود بالذهاب إلى الأقطار الأجنبية، وأن يهلكوا أنفسهم مشياً على أقدامهم، وأن يعيشوا في الجأ والقذارة، وأن يلفغوا في الدم كي نأمن نحن ونعيش في راحة، ونزيد من ثرواتنا الشخصية. عندما خرجت تلك القوات لتجارب سبارتا كوس، كان ما يدافعون عنه أقل مما كان العبيد يدافعون عنه. ومع ذلك فقد ماتوا بالآلاف وهم يقاتلون العبيد. يستطيع المرء أن يستطرد ويقول إن الفلاحين الذين ماتوا وهم يقاتلون العبيد، كانوا قد انضموا إلى صفوف الجيش قبل كل شيء. لأن نظام الضيعات كان قد طردهم من أراضيهم. فنظام الزراعة القائمة على العبيد، يحيل الفلاحين إلى فقراء لا يملكون أرضاً. ثم يموتون في سبيل الإبقاء على نظام الضيعات سليماً متماسكاً، بما يغري المرء بأن يقول، أنا أراجع إلى الغباء أو العجز، لأنك يا عزيزي شيشرون، إذا فكرت فيما يتعرض الجندي الروماني الشجاع لفقده إذا انتصر العبيد، لأدركت أن العبيد سيحتاجون إلى الجندي احتياجاً شديداً

حقيقيا ، لأنه لا يوجد من العبيد ما يكفي لفلاحة الأرض كما يجب ،
وسيجد من الأرض ما يكفي الجميع ، وسيحصل الجندي في
فيالقنا على ما طالما حلم به ، وهو نصيبه من الأرض وبيته الصغير .
ومع ذلك فهو يتقدم لتحطيم أحلامه الشخصية ، ولكي يجعل
سنة عشر عبدا يحملون خنزيرا عجوزا سمينا مثل في محفة مبطنة .
أتذكر الحقيقة فيما أقول ؟

— أظن أنه إذا صرح رجل عادي بما قلته أنت ، بصوت عال
في الساحة العامة ، لصلبناه .

— فضحك جراكوس وقال :

— شيشرون ، شيشرون ، أهذا تهديد ؟ أنا أكثر سمعة ،
وأثقل ورناء ، وأكبر في السن من أن أصلب . ولما تترك الحقيقة
إلى هذا الحد ؟ من الضروري أن نكذب على الآخرين ، فهل من
الضروري أن نصدق أكاذيبنا ؟

— الأمر كما تقرر أنت . كل ما في الأمر أنك تحذف السؤال
الرئيسي .

— هل يتشابه الرجال ، أم لا يتشابهون ؟ هنا تكمن المغالطة
في خطابك القصير . فأنت تسلم بأن الرجال متشابهون كحبات البازلاء
في سفنها . أما أنا فلا . لأنه توجد صفوة ، قلة مختارة - مجموعة

من الرجال الممتازين . وسواء كانت الآلهة هي التي خلقتهم كذلك ،
أو كانت الظروف هي التي جعلتهم كذلك ، فليس ذلك مجال المناقشة ،
لكنهم رجال صالحون للحكم ، وهم يحكمون لأنهم صالحون للحكم ،
ونظرا لأن باقي الناس كالبهائم ، فهم يسلكون كالبهائم . وأنت كما
ترى تقدم رسالة ، والصعوبة هي أن تفسرها . فأنت ترسم صورة
للمجتمع ولكن لو أن الحقيقة كانت مناقضة للمنطق . كما هو الحال
في الصورة التي ترسمها ، لأننا البناء الاجتماعي كله في يوم واحد .
وكل ما تفشل فيه أنت ، هو تفسير هذه الأحجية المناقضة
للمنطق .

وأخى جراكوس رأسه موافقاً ثم قال :

- أنا ، أنا أجعلها تتماسك .

- أنت ؟ أنت وحدك ؟

- شيشرون ، هل تظن حقيقة أني أحق ؟ لقد عشت حياة
طويلة خطيرة ، ومازلت مع ذلك في القمة . لقد سألتني من قبل عمن
يكون السياسي . السياسي هو الأسمت في هذا البيت المجنون .
لا يستطيع النبيل نفسه أن يفعل ذلك . لأنه يفكر في المحل الأول
ينفس الطريقة التي تفكر بها أنت ، والمواطنون الرمانيون لا يحبون
أن يقول لهم أحد إنهم بهائم . لأنهم ليسوا كذلك ، وهذا ما ستعلمه
في يوم من الأيام . والنبيل في المحل الثاني لا يعرف شيئاً عن المواطن

العادي . ولو أن الأمر ترك بين يديه لانهار البناء في يوم واحد . لذلك يأتي النبيل إلى أناس مثلي ، فهو لا يستطيع العيش من غيرنا لأننا نسوغ غير المعقول ونبرره ، ونقنع الناس بأن أعظم ما يحققه المرء في حياته هو أن يموت في سبيل الأغنياء ، ونقنع الأغنياء بأن من واجبهم أن يتخلوا عن بعض ثروتهم لطعمم البائسين . نحن سحرة . نحن نضفي وهما ، وهذا الوهم لا ينفد منه الحمقى ، نحن نقول للناس :

أنتم مصدر السلطات ، وأصواتكم هي مصدر قوتهم وما وجدوها وأتم الشعب الحر الوحيد في العالم . وليس هناك ما هو أتمن من حريتهم ، ولا ما هو أجدر بالإعجاب من مدينتكم وأنتم تسيطرون عليهم ، فأنتم مصدر السلطات . وعند ذلك يعطون أصواتهم مارشيتنا ، ويكون لهم أتمنا ، ويضحكون طربا لا تتصاراتنا ، ويشعرون بالفخر والعظمة لأنهم ليسوا عبيدا . ولا أهمية لمدي عمق الحضيض الذي يهبطون إليه ، فهم إذا ناموا في المجارى ، وإذا جلسوا في المقاعد الشعبية في السباق أو في المجتلد طيلة اليوم ، أو إذا خنقوا أطفالهم عند ولادتهم ، أو إذا عاشوا على الصدقة العامة ولم يحركوا ساكنا للقيام بعمل يوم واحد منذ ولادتهم حتى مماتهم ، فهم بالرغم من كل هذا ليسوا عبيدا . هم قذارة ، لكنهم كلما رأوا عبدا ، ترتفع ذواتهم ويحسون الكبرياء والقوة تملؤهم . ثم يدركون أنهم مواطنون رومانيون ، وأن العالم بأسره يحسدكم على ذلك . وهذا هو فني الخاص يا شيشرون ، فلا تقلل من شأن السياسة أبدا .

كل ذلك لم يحجب جرا كوس لشيشرون ، وعندما وصلا في
النهاية إلى أول صليب كبير ، وكان مقاما على بعد أميال قليلة خارج
جدران روما ، أشار شيشرون إلى الرجل السمين الذي جلس
يغالب النعاس تحت مظلته ، وعلق على ذلك لجرا كوس قائلا :

— من الواضح أنه سياسى من ناحية المظاهر والتدريب .

— واضح ، بل هو في الحقيقى صديق قديم لى .

وأشار جرا كوس إلى حملة المحفات ليتوقفوا ، ونزل من محفته
في عناء وجهد ، وفعل شيشرون نفس الشيء ، وقد سره أن أتاحت له
الفرصة ليدد ساقيه . كان الماء يقرب في تلك اللحظة ، وكانت سحب
المطر الداكنة تتحرك قادمة من الشمال . وتقدم شيشرون مقتربا منها .

وقال جرا كوس :

— إذا كنت راغبا في مواصلة السفر فلتفعل .

فما كانت به أية رغبة في التودد إلى شيشرون . وكانت أعصابه
ثائرة . فقد تركت الأيام القليلة التي أمضاها في فيلا سالاريا طعاما

كريها في فمه . وكان يتساءل قائلاً . ماذا دهاه ؟ هل تقدمت
به السن ولم يعد يشعر بالأمن والطمأنينة ؟

وقال شيشرون

- سأنتظر .

ووقف إلى جانب محفته، وراح يرقب جراكوس وهو يتقدم
إلى الرجل الجالس تحت المظلة . وكان من الواضح أن كلا منهما
يعرف الآخر . كانت الديمقراطية التي تسود الأحياء والسياسيين
ديمقراطية غريبة حقاً . فقد كانت عالماً قائماً بذاتِهِ .

وسمع شيشرون جراكوس وهو يقول

- الليلة .

فهز الرجل الجالس تحت المظلة رأسه وصاح جراكوس
يقول :

- سكستوس لقد قلت لك ما أريد . أنا لأعياً ، ثقال ذرة
بسكستوس . إما أن تفعل كما أقول ، وإلا فلن أخاطبك أو أنظر
إلى وجهك طيلة حياتي - أو طيلة حياتك . وهذا أمر لن يطول
طالما أنت تجلس تحت هذا اللحم العفن .

- أنا آسف يا جراكوس .

- لا تقل لى إنك آسف. افعل ما أقول .

وخطا جراكوس عائدا إلى محفته وصعد إليها ، ولم يوجه إليه شيشرون أى سؤال عما حدث منذ قليل ، لكنه ذكر جراكوس وهما يقتربان من أبواب المدينة بالقصة التى رواها فى فترة سابقة من النهار ، قصة الأم التى تفانت فى حب ولدها

- كانت قصة طريفة ، لكنك أضعتها فى ثنايا الحديث .

- صحيح ؟ هل أحببت يوما يا شيشرون ؟

- لم أحب بالطريقة التى يتغنى بها الشعراء . لكن تلك القصة

- القصة ؟ لا أستطيع الآن أن أتذكر لماذا حكيتها ، كما ترى لا بد أنى كنت أود أن أوضح نقطة فيما أظن ، لكننى نسيتها .

وافترقا فى داخل المدينة ، وذهب جراكوس إلى بيته . وكان الليل على وشك أن يفسد عندما وصل إليه ، فاستحم على ضوء المصباح . ثم أنبا مدبرة منزله أنه سيبأخر قليلا فى تناول العشاء لأنه ينتظر ضيفا ، فأحنت المرأة رأسها موافقة ، ثم ذهب جراكوس إلى غرفة نومه ، وورقد ، وراح يحدق إلى الظلام مكنثا دون أن يرى شيئا . وطاف به الموت وهو راقد هناك فقد كان هناك مثل لا تبنى

قدريم عن الظلام يقول إن الظلام يفسح مكانا للموت ، اللهم إلا إذا صاحب الإنسان امرأة يحبها . لكن جراكوس لم يفعل ذلك قط . لم يصاحب امرأة يحبها . فقد كان جراكوس العجوز يشتري نساءه من السوق ، ذلك ما كان جراكوس العجوز الشريد يفعله متى جاءته امرأة بمحض رضاها وبسرور ؟ كان يرغم نفسه على الشعور بإحساس الملكية ، وبتيار من التآلف مع من كان يشتري من النساء كحظيات ، لكن الشعور بالحب لم يكن له وجود قط .

وعاد إلى ذهنه في تلك اللحظة ، وهو راقد هناك ، ذلك الجزء من الأوديسة الذي ينفذ فيه أوديسيوس انتقامه بعد أن ذبح الخاطبين غير المختصين . ولم يكن جراكوس قد نعم في طفولته بمزية الحصول على معلم يوناني ليفسر له الروائع القديمة صفحة صفحة . إنما كان هو الذي سعى إليها بنفسه وقرأها كما يقرأ الرجل الذي يعلم نفسه بنفسه مثل هذه الأشياء . لذلك ظل على الدوام متحيرا للكراهية الوحشية غير الإنسانية التي أظهرها أوديسيوس نحو إمامته .

واسترجع في ذهنه في تلك اللحظة كيف أرغم أوديسيوس النساء الاثنتي عشرة على حمل جثث عشاقهن خارجا إلى الفناء . وعلى إزالة دماثهم من أرض يهو المأدبة القذرة ثم حكم عليهم بالإعدام .

وأصدر لابنه التعليمات بتنفيذ الحكم ، وفاق الابن أباه . وكان
تلميذك هو الذي يصور فكرة الاثني عشرة أنشودة في حبل واحد
وفي خنقهن كلهن دفعة واحدة معا . كصف من الدجاج المنتوف
الريش .

وتساءل جراكوس ، ما السبب في مثل هذه الكراهية ؟ لماذا
مثل هذه الكراهية الرهيبة المتوحشة ؟

لعله كان أكثر تمدينا من أن يقتل أمة من إمامته اتصلت
برجل آخر في مكان آخر .

لعله كان قليل الاحتفال بذلك - إلا أنه أساساً ، لم يكن
يفرق بين علاقته بالنساء . فهو لم يشغل نفسه يوماً طيلة حياته
الطويلة بالاهتمام كثيراً بما تكونه المرأة . وكان قد تباهى على
شيشرون بأنه لم يخف يوماً من الاعتراف بالحقيقة الجوهرية
للأشياء - ومع ذلك فقد كانت حقيقة المرأة في العالم الذي يعيش
فيه ، شيئاً لم يحرق على مواجهته . واليوم ، وبعد طول انتظار -
يقدم على حركة رائجة حقاً - قد وجد امرأة لا تقل عن المخلوقات
البشرية . على أن العسير في الأمر ، أنه كان عليه أن يجدها .

وطلقت واحدة من الإمام الباب ، وعندما تكلم أخبرته أن
ضيفه المدعو للعشاء قد حضر .

— سأحضر بعد دقيقة . وفري له الراحة . هو قدر ممزق الثياب . لكنى سأجلد بالسياط أية واحدة تنظر إليه من طرف أنفها . قدمي له ماء دافئا ليغسل وجهه ويديه ، ثم أعطيه عباءة خفيفة ليغطي نفسه بها . اسمه فلاقيوس ماركوس . ناديه باسمه وتحدثني إليه بأسلوب مهذب .

ووضح فيما بعد أن كل ذلك قد نفذ حسب الأوامر ، لأن جراكوس عندما دخل إلى غرفة الطعام ، وجد الرجل السمين الذي كان يجلس تحت المظلة إلى جانب الصايب الأول ، يتمدد على أريكة ، بالغ النظافة ، محترم المظهر ، لا ينتقصه شيء إلا حاجته إلى حلاقة ذقنه . وعندما دخل جراكوس ، ذلك لحيته بيده وهو مدرك لذلك النقص وقال :

— لو أنك أضفت حلاقة الذقن إلى كل هذا .

— أنا جوعان . وأظن أنه يجدر بنا أن نأكل يا فلاقيوس . تستطيع أن تمضي الليل هنا ، وسأمر حلاقى أن يحلق لك ذقنك في الصباح . وسيكون ذلك أفضل بعد راحة ليلة طيبة ، وبعد الحمام ، وسأعطيك رداء نظيفا وبعض الأحذية لللائحة . فحجمانا متقاربان وستلائمك ثيابي كل الملاءمة .

وكان حجمهما متقاربين ، وكانا كثيرى الشبه إلى حد يحمل على الظن أنها أخوان .

— هذا — إذا لم تكن خائفا من أن يقرعك سكستوس
انترك وظافته الرخيصة التي لا عمل فيها يوازي راتبها ، واقبل لك
كسرة منى .

فقال فلاقيوس وفي صوته رنة عواء :

— أجل . ليس أيسر من الحديث بالنسبة لك . فقد سارت
الأحوال على ما يرام بالنسبة لك يا جراكوس : ثروة ، راحة ،
احترام ، شرف ، قوة . وأصبحت الحياة بالنسبة لك كوعاء مليء
بالقشدة ، لكنها أصبحت شيئا آخر بالنسبة لي ، أؤكد لك . أؤكد
لك أن الرجل لا يشعر بالاحترام أو بالكبرياء ، وهو جالس
تحت جثة عفنة ، ويحكى الأكاذيب كي ينعم عليه المسافرون بالقليل
يلقونه في راحة يده . إنه شيء مرير كربه أن يصبح المرء شحاذا .
لكنني حصلت على الأقل على شيء بسيط من سكستوس عندما
وصل بي الحال إلى الحضيض . وأنا اليوم عندما أعود إليه من
جديد ، سيقول لي . آه ، أنت لم تعد في حاجة لي . إذهب إلى
حاميك العظيم وصدقك جراكوس ، هذا ما سيقوله ، لأنه
يكرهك وسيكرهني بالتالي .

فقال جراكوس :

— فليكرهك . سكستوس ضفدع ، صرصار ، رئيس حى ،
صغير ، رخيص . فليكرهك . افعل ما أطلبه منك ، وسأحصل لك

على عمل هنا في المدينة ، عمل كتابي ، عمل كحارس ، أى عمل تستطيع
أن تدخر منه قليلا من المال وتحيا حياة محترمة . وإن تحتاج إلى مد
اليد إلى سيكستوس مرة أخرى .

— كان لي كثير من الأصدقاء في أحد الأيام ، عندما كنت
مفيدا لهم ، أما اليوم فقد أموت في بالوعة ..
فقطعه جراكوس قائلا :

— أنت مفيد لي ، ولترتب الأمر على هذا الأساس وحده .
الآن ، تناول عشاءك وكف عن العواء . يا إلهي ، إن الحظ الحسن
يحيط بك من كل جانب . لكنك خائف من أن تقول له كيف
حالك . لست أدري مم تخاف .

وأنعش الطعام والنبيذ فلافيوس . وكان جراكوس يملك
أمة مصرية في مطبخه . وكانت متخصصة في بزغ العظام من صغار
الحمائم ثم حشوه بالصنوبر والمكسرات والشعير الرائع . ثم تطهوه
على نار هادئة وتسقيه البراندى وشراب التين . قدمته لهما الإماء
ومعه مقائق صغيرة مصنوعة من لسان الحمل المدخن المفري مع
قشر الليمون ، وكانوا يسمونه « فولا » وكان مشهورا بحق في
طول المدينة وعرضها . بدأ العشاء بالطبخ ، وأتبع بهذين
الصنفين ، ثم بحساء أبيض من لحم سرطان البحر المفري ، يضاف
عليه الثوم نكهة رقيقة . ثم فطرة حلوة من العنب والبلح ، إلى

جانبا شرائح رقيقة كالورق من نخد الخنزير المدخن . ثم عيش
الغراب المشوى فوق قاعدة من لحم السمك الأبيض اللامع ، وفي
النهاية صينية فيها فطيرة دلوذ ثم فطائر السمسم الحلوة . ومع الخبز الأبيض
الساخن والزبد الأحمر الجيد . وعندما فرغنا من العشاء ، مال
فلاقيوس بظهره إلى الوراء وهو يتسهم مسترخيا ، وبطنه الضخم
يهتز في رقة ثم قال :

- لم آكل أكلة مثل هذه يا جيراكوس منذ خمس سنوات .
الطعام الجيد هو خير بسم في العالم . يا إلهي ، مثل هذا الطعام .
وأنت تأكل بهذا الشكل كل ليلة ! حسن . أنت رجل ماهر
يا جيراكوس ، وما أنا إلا أخق عجوز . أظن أنك تستحق ذلك ،
ولا حق لي في أن أستهاء . أنا الآن على استعداد لسماع ما تريد
منى أن أعمله لك . ما زلت أعرف قليلا من الناس . وقليلا من
رجال العصابات ، وقليلا من قاطعي الرقاب وقليلا من النساء .
ولا أعرف ما أستطيع أن أعمله أنا ولا أستطيع أن تعمله أنت
بنفسك ، أو أن تجد شخصا آخر يعمله خيرا منى ، لكنى على استعداد .

فقال جيراكوس :

- سنتكلم أثناء احتساء الشراب .

وصب قدحا لكل منهما ثم قال :

- أعتقد أن فيك فضائل يا فلافْيوس . كان في استطاعتي أن أجد شخصا آخر غيرك يعرف كل من يتعاملون في روما في الأجساد والأرواح والآلام ، لكنني لا أريد أن أدخل في هذا الأمر أي شخص يستطيع أن يرجع على بأي شيء . أريد أن أعمل عملا يتم كما يجب ، وفي هدوء وصمت .

فقال فلافْيوس :

- أستطيع أن أكنم السر .

- أنا أعرف ذلك . ولهذا أطلب منك أن تقوم لي بهذا العمل ، أريد منك أن تعثر لي على امرأة ، أمة . أريدك أن تعثر عليها وتشتريها دون مراعاة للثمن . وسأضع تحت أمرك مبالغ غير محدودة تنفق منها في العثور عليها .

- أي نوع من النساء هذه ؟ الله يعلم أن في السوق الكفاية من الإماء . بل لقد أصبح في السوق فيض منهن بعد انتهاء حرب العبيد . ومن غير العادي أن يفتش المرء عن أي نوع من الأسعار . أعتقد ، أنني أستطيع أن أجد لك أي لون من النساء تريده : سوداء بيضاء ، صفراء أو سمراء ، عجوز أو شابة جميلة أو قبيحة ، شقراء ، سوداء الشعر ، حمراء الشعر - أي شيء على الإطلاق . أي نوع تريده أنت ؟

فقال جيراكوس في بظء :

(م - ١٦ مبارتا كوس)

-- لا أريد نوعا بالذات . أريد امرأة معينة .

-- أمة ؟

-- أجل .

-- من هي ؟

-- إسمها قارينيا ، وكانت زوجة سبارتا كوس .

-- آه .

وتطلع فلاقيوس إلى جراكوس محاولا الفهم . ثم رشف
رشفة من شرابه ، ثم نظر إلى جراكوس من جديد . ثم سأله
في نعومة :

-- وأين هي ؟

-- لا أدري .

-- لكنك تعرفها ؟

-- نعم ولا . فأنا لم أرها قط .

-- آه .

-- كف عن قولك آه كالعراف اللعين .

-- إنما أحاول التفكير في شيء ذكي أقوله .

وهدر جرا كوس يقول:

- وأنا أستأجرك كوكيل لا كوسيط . وأنت تعرف ما أريد
منك أن تعمله .

- تريد مني ان أجد لك امرأة ، لكنك لا تعرف أين هي ،
ولم ترها قط . أتعرف ما شكلها ؟

- أجل . هي فارعة الطول ، متينة البنيان ، لكنها هيفاء ، عالية
الصدر ، مليئة الأثداء . هي ألمانية . لها ذلك الشعر الألماني في
لون القش ، وعينان زرقاوان ، أذناها صغيرتان ، عالية الجبين ،
أنف مستقيم لكنه ايس صغيرا ، عينان غائرتان ، وفم مليء ، شفته
السفلى تميل إلى الامتلاء . وهي قد تتكلم اللاتينية بصعوبة ، وقد
تتظاهر بأنها لا تتكلمها على الإطلاق . وتتكلم اليونانية بصورة
أفضل بلكنة تراقية . وهي قد وضعت طفلا خلال الشهرين الماضيين
ولكن من المحتمل أن يكون الطفل قد مات . وحتى إذا كان
الطفل قد مات ، فهي ما زالت تحمل اللبن في ثديها ، أليس كذلك ؟
- ليس ضروريا ، كم عمرها ؟

- لست على ثقة من ذلك . ثلاثة وعشرون على الأقل ، ومن
المحتمل أن يصل عمرها إلى السابعة والعشرين . لست متأكدا .

... من المحتمل أن تكون قد ماتت .

... هذا احتمال . إذا صح ذلك ، أريد منك أن تعرف . وأريد منك أن تحضر لي الدليل على موتها . لكنني لا أظن أنها قد ماتت . فهي ليست ممن يقدمون على الانتحار إطلاقاً ، وامرأة كهذه ليس من الممكن قتلها سريعاً .

... وكيف تعرف أنها لا تقدم على الانتحار ؟

... أنا أعرف . لا أستطيع تفسير ذلك ، لكنني أعرف .

فقال فلاقيوس :

... ألم يستولوا على معسكر سبارتا كوس بعد هزيمته ، وكان فيه حوالي عشرة آلاف امرأة وطفل ؟

... كان فيه اثنان وعشرون ألف امرأة وطفل . اثنا عشر ألفاً وزعوا على الجنود كغنائم . كانت هذه أثنى فضيحة من نوعها سمعت عنها طيلة حياتي ، لكن كراسوس كان يقف وراءها ، وأعطى نصيبه من الغنائم إلى الخزانة العامة ليسكنهم . ولم يكن ذلك باللفتة الكريمة من جانبه ، لأن نصيبه كان قليل القيمة . وقام بلفتة كبيرة برفضه قبول العبيد لنفسه ، لأنه كان يعرف ما سيصبح عليه السوق .

... وهل كانت قارينيا بين تلك النساء ؟

... ممكن ، وغير ممكن . فقد كانت زوجة قائدهم . ومن المحتمل

أن يكونوا قد اتخذوا بعض الوسائل الخاصة لحمايتها .

- لا أدري، فقد جعل العبيد من المساواة صنما لهم .

وأفرغ جراكوس يتيمة كأسه في جوفه ، وأشار بإصبعه الغليظة
إلى الرجل الآخر وقال :

- هل تريد أن تعمل ما أقول ، أم لا تريد ؟ . لن تستطيع أن

تصل إلى أى حل لذلك بالكلام يا فلاقيوس . لأن الأمر يتطلب
عملا شاقا .

- أنا أعرف أنه يتطلب العمل الشاق . كم من الوقت

ستعطيني ؟

- ثلاثة أسابيع .

ففتح فلاقيوس ذراعيه وقال .

- آه ، لا - آه - ليس هذا بالوقت الكافي على الإطلاق .

قد لا تكون في روما ، فأضطر إلى إرسال الرسل إلى كابوا أو إلى
سرقسطة وإلى صقلية ، وربما إلى أسبانيا وأفريقيا . كن معقولا .

- أنا معقول إلى الحد الذى أنويه ، اللعنة على كل شئ .

اذهب إلى سكستوس وعش على صدقته .

- حسن يا جراكوس ، لا داعى لأن تغضب إلى هذا الحد .

لكن لنفرض أننى سأضطر إلى شراء عدد من النساء ؟ أتعرف

عدد الألمانية اللاتي ينطبق عليهن ذلك الوصف بالذات ؟

— كثير جداً ، أنا وائق . أنا لا أريد أى امرأة ينطبق عليها ذلك الوصف . أنا أريد فارينيا .

— وكم أَدفع ثمنها إذا وجدتها؟

— أى ثمن يطلب . سأدفعه .

— حسن . أوافق يا جراكوس . صب لى كأساً آخر من هذا

الشراب الممتاز من فضلك .

فصب له جراكوس الشراب . وتهدد فلافيوس على أريكنه

وراح يرشف الشراب ، ويتطلع إلى الرجل الذى وظفه وقال .

— أنا لى مواهب معينة . ألسنت كذلك يا جراكوس ؟

— كذلك ، بلا شك .

— ومع ذلك ، أظلم فقيراً وأظلم فاشلاً . أسمح لى يا جراكوس

بأن أسألك سؤالاً واحداً قبل أن نترك هذا الموضوع ؟ لا تجب

عليه إذا لم ترد . لكن لا تغضب .

— سله .

— لماذا تريد هذه المرأة يا جراكوس ؟

— لست غاضباً ، لكنى أظن أن الوقت قد حان لى ننام ،

فكلانا لم يعد شاباً ، كما كنا من قبل .

لكن العالم في تلك الأيام ، لم يكن كبيراً أو معقداً كما هو اليوم ، إذ ظهر فلا فيوس في منزل جراكوس قبل انقضاء الأسابيع الثلاثة المحددة . وأعلن إليه نجاحه في إتمام مهمته . فالمال كما يقولون له سطح ناعم يترك أثره على من يتعاملون به ، وكان فلا فيوس مختلفاً ، إذ أضحى أنيق الهندام ، حليقاً ، واثقاً من نفسه لنجاحه في الوصول بمهمته العسيرة إلى نهايتها . وجلس إلى جراكوس يتحدثان زجاجة من النبيذ ويعرض معلوماته ، وجراكوس نفسه يشد حبال صبره حتى لا ينفد .

قال فلا فيوس مفسراً :

— بدأت بالعمل المحير حقاً ، وهو الوصول إلى الضباط الذين شاركوا في الغنائم . إذ أدركت أنه لو كانت قارينيا جميلة ومدينة البنيان ، فإنها تختار في تلك المجموعة الأولى . لكنك عند ماتدرك أن مسألة تملك العبيد بوضع اليد ، كلها عملية غير مشروعة ، وأن خمسمائة أو ستمائة ضابط ، قد اشتركوا في ذلك ، وأن القليل جداً منهم هو من أبدى أى رغبة في الكلام ، تستطيع أن ترى أن ذلك لم يكن أمراً يسيراً . حسن ، وكان الحظ

مواتيا لنا . فالناس يتذكرون . عادت قارينيا إلى العمل . عندما بلغتهم أنباء هزيمة العبيد وتذكر الناس تلك المرأة التي كانت ترفض الانفصال عن طفل حديث الولادة . ولم يعرفوا أنها كانت زوجة سبارتا كوس ، أو أن اسمها كان قارينيا ، ويجب أن تفهم أن كراسوس أرسل بعد المعركة مباشرة كتية من الخيالة لتهاجم مدينة العبيد ، أو معسكرهم ، أو قريتهم ، أو سمها ما شئت . ثم تبعها المشاة . ولم تقاتل نساء العبيد وأطفالهم الموجودون هناك طويلا . إذ كان من بينهم بعض الصبيان في الثالثة والرابعة عشرة — فقد كانوا مذهولين ، إذ كانوا قد سمعوا لتوهم نبأ تحطيم جيش العبيد . لكنك تعرف كيف يصبح الجنود بعد المعركة ، وأظن أن قتال العبيد ليس مجرد نزهة . إذ قام الجنود . . .

فقال جيرا كوس :

— لست في حاجة إلى تلخيص لنفسية جنود الفيالق على الحقائق .

— إنما أحاول أن أصف لك الموقف فقط . أقصد أنه حدث أول الأمر كثير من القتل الذي لا معنى له ، لأن جنودنا كانوا غصبي ودماءهم فائرة . وكانت قارينيا قد وضعت لتوها . حسن . طفل العبد لا يكاد يساوي وزنه ذهباً في هذه الأيام . وكان ما هداني إليها هو قصة جندي حمل هذا الطفل من ساقه ،

وبدا يديره في الهواء ليحطم يافوخه على عامود إحدى الخيام ، لولا
أن أوقفه كراسوس نفسه . وأنقذ كراسوس الطفل وضرب الجندي
بيديه حتى كاد يقتله . لا يمكن أن يتوقع المرء ذلك من كراسوس
أليس كذلك ؟

- لا يهمني ما يتوقعه المرء وما لا يتوقعه من كراسوس . أي
ثرثار عجوز أنت يا فلاقيوس ؟ هل وجدت قارينديا ؟ هل أصبحت
مالكها ؟ هل اشتريتها ؟

- لم أستطع شراءها .

فزأر جراكوس يقول فجأة - لماذا ، ؟ وهو ينهض واقفا على
قدميه وقد انفجر غضبه انفجاردة مخيفة بقدر ما هي غير متوقعة .
وبينا راح يتقدم من فلاقيوس ، انكش الآخر متراجعا في مقعده
وأنشب جراكوس يده في عنق رذائه وانحنى عليه وصاح يقول :

- لماذا ؟ لماذا ؟ أيها الشحاذ السمين العديم النفع ؟ هل ماتت ؟
إذا لفقت قصة ، فأقسم على أن أرجعك إلى البالوعة إلى الأبد .
إلى الأبد .

- هي لم تمت .

-- أوه . لكنك مليء بالثرثرة ، كالقربة التي تصدر أصواتا
بدلا من الكلام ، لماذا لم تشتريها ؟

وأطلق سراح فلاقيوس ، وإن ظل على وقفته فوقه . وقال
فلاقيوس فجأة وفي صوت عال :

— اهدأ . لقد كلفتنى بعمل ففقت به . قد لا أكون في مثل
ثرائك يا جراكوس ، وقد أكون من البالوعة أصلا ، لكن ذلك
لا يعطيك أى حق في مخاطبتي بهذه الطريقة . أنا لست عبدك .
وعندما يصبح الرجل في مثل حالتي ، ففي ذلك الكفاية من سوء
الحال . ولست في حاجة إلى أن تزيد سوءا .
.. أنا آسف .

— لم أشرها لأنها ليست معروضة للبيع . هذا كل ما هناك .
— الثمن ؟

— ليس الثمن فلا ثمن لها على الإطلاق . إنما لأنها ملك
الكراسوس . وتعيش في بيته وليست معروضة للبيع . ألا تعتقد
أنى حاولت ؟

كان كراسوس في كابوا ، فطرقت الموضوع مع وكلائه في أثناء
غيبته هناك . أوه ، لا — لم يكن في الإمكان عمل أى شيء . فقد
رفضوا حتى مناقشة الموضوع . فما إن وصل الحديث إلى تلك الأمة
بالذات ، حتى توقفوا عن الحديث . فهم لا يعرفون شيئا عن مثل
هذه الأمة ، ويرفضون الكلام في ثمنها ، ويرفضون حتى المضاربة .
فجعلت المال يتساقط في أيديهم ، لكن ذلك لم يغير الموقف إطلاقا

لو أننى كنت أريد اطلاق أو الطباخ أو مدبرة البيت ، لأمكن ترتيب ذلك . بل لقد رحبوا بعقد صفقة تناول امرأة سورية جميلة اشتراها كراسوس فى العام الماضى ، وتعدوا بتسليمها لى . كانوا على أتم الاستعداد لعمل ذلك من أجلى ، أما فارينيا فلا .

— إذن فكيف عرفت أنها فارينيا ؟ وكيف عرفت أنها هناك ؟

— لقد اشتريت تلك المعلومات من العبد المختص بصيوان الملابس . أوه . لا تظن أن أهل بيت كراسوس يكونون عائلة صغيرة متماسكة سعيدة . فله ابن يكرهه كراهية التحريم ، وزوجة تعيش منفصلة عنه . على استعداد لقطع رقبتة ، والمزامرات التى تدور فى بيته تشبه شبيثا قادمًا من الشرق . على كل ، استطعت أن اشترى معلومات . لكننى لم أستطع شراء فارينيا .

— وهل عرفت لماذا اشتراها ؟ ولماذا يحتفظ بها ؟

فضحك فلاقيوس وقال :

— طبعًا عرفت . كراسوس يحبها .

ماذا ؟

— نعم . لقد عرف كراسوس العظيم الحب .

عند ذاك قال جراكوس بتروفى ببطء :

— فليلعنك الله يا فلاقيوس ، إذا تحدثت عن هذا الموضوع .

إذا شاع هذا الأمر يوماً ، وإذا سمعت في يوم من الأيام أى
جزء منه يتردد في أى مكان ، فليساعدنى الله ، سأعمل على صليبك .
— ما هذه الطريقة التى تتكلم بها ؟ لست الله يا جراكوس .
— لا . لا . ولا تربطنى حتى علاقة بعيدة بأى رب من الأرباب
كما يدعى بعض أنصاف المجانين من نبلائنا . على الإطلاق .
لكننى قريب من الله قرب أى إنسان عمل يوماً فى السياسة
الرومانية . وأنا قريب منه إلى حد يكفى للإيقاع بك يا فلافيوس
واتعليقك على الصليب . فإذا تسرب أى جزء من هذا الموضوع
فأصلبك . نخذ حذرك .

تأهب جراكوس بعد ظهر اليوم التالي للذهاب إلى الحمامات ، وهو عمل له ضرورته السياسية ، وله مكافآته . فقد كانت الحمامات العامة تتحول يوماً بعد يوم إلى مراكز سياسية واجتماعية ، فكان يتم عزل وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ والقضاة في الحمامات ، وكان يتم تداول ملايين القطع الذهبية في الحمامات ، وكانت الحمامات تجمع بين البورصة المالية والنساقى السياسى . ومن هنا كان الظهور فى فقرات معينة يكاد يكون إلزاماً . وكان هناك ثلاثة حمامات كبيرة معدة أحسن إعداد ، كان جراكوس يسيطر عليها . أولاً الطلوثم ، وهو أحدثها نسبياً ، أما الآخران فكانا أقدم منه ، ولو أنها مازالا على أنافتهما . وعلى الرغم من أنه لم يكن مسجوحاً لكل المواطنين بدخول هذه الحمامات الثلاثة ، فقد كان أجر الدخول بالغاً فى التواضع ، لا يكفى لمنع حتى الرجل الفقير من الدخول ، ولو أن وضعاً اجتماعياً معيناً كان يحول دون دخول عامة الناس إلى تلك الأماكن بالذات . وكانت روما كلها تخرج من بيوتها بعد الظهر عندما يكون الجورائقا . حتى العمال الرومانيون الذين كانت أعدادهم تتضائل ، كانوا يفرغون من أعمالهم الساعة الواحدة بعد الظهر : إذا كانت زيادة ساعات العمل تشجعهم على نبذ العمل والعيش على الصدقات

العامة . فكان بعد الظهر هو وقت الرجل الحر : يكبد العبيد ويستريح
المواطن الروماني .

وكان جراكوس ، مع ذلك ، قليل الاحتفال بالألعاب ، ولا يهتم
إلا بالسباق من وقت إلى آخر . وكان يختلف بعض الشيء عن زملائه
في أنه لم يكن يقوى على مشاهدة مأساة رجلين عاريين يمسك كل
منهما بسكين في يده ، ويطعن كل منهما الآخر حتى يصبحا مفازع
من اللحم الممزق والدم المتدفق . ولم يكن ليجد كذلك متعة في مراقبة
رجل يتلوى في شبك صيد السمك ، بينما تفقأ عيناه وتفتح بطنه
مدراة صيد الأسماك الطويلة . على أنه كان يستمتع من وقت لآخر
بتمضية بعد ظهر أحد الأيام في سباق الجياد ، أما سباق العربات
الذي كان العنف يتزايد فيه يوماً بعد يوم فيصبح نزالاً جدياً بين
السائقين المتنافسين أمام جمهور لا يقنع أبداً إلا إذا تهشم رأس أو
انسحق جسد ، فكان لا يبعث في جراكوس إلا الملل . ولم يكن
مرجع ذلك إلى أن قلبه كان أرق من قلب أي رجل آخر ، إنما
لأنه كان يكره الغباء ، وكانت كل تلك الأعمال بالنسبة له بالغة
الغباء . أما المسرح فلم يكن ليفهمه على الإطلاق ، ولم يكن يحضر
إلا حفلات الافتتاح الرسمية حيث يضطر إلى الظهور كموظف
من موظفي المدينة .

أما أكبر متعة له بعد الظهر ، فكانت هي السير حتى الحمامات

مخترقا لشوارع القدرة المتلوية التي لانهاية لها في المدينة المحبوبة روما التي أحبها على الدوام . إذ كانت روما أمه . وأمها ، كما كان يقرر بينه وبين نفسه ، عاهرة ، لفظه رحم أمه إلى قدارة الشارع . لكنه حتى تلك اللحظة كان يحب أمه ، وكانت أمه تحبه . كيف كان يستطيع أن يفسر لشبثرون ما كان يعنيه بإعادة رواية تلك الملحمة القديمة ؟ إذ كان من الضروري أن يحب شبثرون روما أولا ، وأن يرتبط مثل ذلك الحب بمعرفة مدى خسة وشرور تلك المدينة .

كانت تلك الخسة ، وتلك الشرور شيئا يفهمه جراكوس . فهو قد سأل مرة أحد أصدقائه المثقفين بقوله

— لماذا يجب أن أذهب إلى المسرح ؟ هل يستطيعون أن يقدموا على خشبة المسرح ما أراه في شوارع روما ؟

وكانت شوارع المدينة شيئا يستحق المشاهدة فعلا . وكان يشاهدها في ذلك اليوم في احتفال تقريبا ، كما لو كان قد ساءل نفسه قائلا

— كم مرة سأفعل هذا من جديد ؟ أبدأ ؟

وبدأ بالذهاب إلى السوق التي تقام بالنهار حيث لم يكن قد سبق على المنصات لتقوم بعملها إلا ساعة أخرى قبل أن تكف عن

العمل . وكنت تضطر إلى أن تشق طريقك بالقوة بين جموع النسوة المتصاحات استطع المشي في ذلك الشارع . لكنه استطاع أن يشق طريقه في رقة على ضخامته في عباءته البيضاء ، كسفينة حربية كبيرة في ربح رقيق . هناك كان يوجد ما كانت روما تأكله . هناك كانت توجد تلال الجبن ، أقراص من الجبن مستديرة ، وأقراص مربعة ، وجبن أسود ، وجبن أحمر ، وجبن أبيض . هناك كانت تعلق الأسماك المدخنة ، والأوز المدخن ، والخنازير المذبوحة ، وضلوع الأبقار ، والحملان الطرية ، وتعابين الماء ، والسردين المملح في براميلها ، وبراميل المخللات تفوح منها رائحتها الحريفة الطيبة . وهناك كانت توجد جرار الزيت القادمة من تلال ساين ومن بيستام وأفخاذ الخنزير المدخنة الرائعة القادمة من بلاد الغال ، والأحشاء تتدلى في كل مكان ، والأوعية الخشبية الكبيرة التي تضم المقائق .

وتمثل في السير بجانب منصات الخضروات . فقد عادت به ذاكرته إلى وقت كان فيه كل فلاح يقطن على بعد عشرين ميلا من المدينة يملك حديقته الخاصة التي يبيع خضرواتها ، وكانت روما كلها تأكل الخضروات المتنوعة الرائعة التي كانت تعرض في الأسواق . لكن الصبغة اليوم لم تعد تهتم إلا بالمحصولات التي يدفع ثمنها نقداً ، سواء كانت قمحا أو شعيرا ، فارتفعت أسعار الخضراوات إلى

مستوى يعلو على تناول كل إنسان عدا الطبقة الحاكمة . ومع ذلك فقد كان في استطاعة المرء أن يرى أكوام الفجل واللفت والحس في خمسة أشكال ، والعدس والبقول والكرنب والليمون والبطيخ والاسبرج والكمأ (جدرى الأرض) وعيش الغراب في تشكيلة كبيرة بهجة الألوان من الخضروات والفاكهة ، كذلك أكوام من الليمون الإفريقي والرمان ، الأصفر والأحمر اللامع الريان والتفاح والخوخ والتين ، والبلح العربي ، والعنب والبطيخ القادمة من مصر .

وفكر لنفسه قائلاً

— يا لها من متعة مجرد النظر إلى ذلك .

وتابع السير محترقاً طرف الحى اليهودى في المدينة . كان كسياسى قد سبق له التعامل مع اليهود في بعض الأحيان . أى شعب غريب هم !

— يمضى عليهم كل ذلك الوقت الطويل في روما ، وما زالوا مع ذلك يتكلمون لغتهم الخاصة ، ويعبدون إلههم الخاص وما زالوا يطلقون لحام ، ويرتدون تلك العباءات الطويلة المخططة الخاصة بهم . هما كان الجو . والمرء لا يراهم أبداً في الألعاب أو في ميادين (م - ١٧ سبارتا كوس)

السباق ، والمرء لا يراهم في المحكمة أبدا . ويكاد المرء لا يراهم على الإطلاق إلا في حيزهم الخاص بهم . مؤدبون ، متباعدون ، ذو كبرياء . وكان جرا كوس عندما يراهم يفكر قائلاً لنفسه .

— سيمتصون من دماء روما على مر الزمن ، أكثر مما امتصته قرطاجنة .

أمام واجهة حانوت ، بينما كانت إحدى كتائب حراسة المدينة تمر يصحبها قرع الطبول والنفخ في الأبراق ، والأطفال يجرون ، كما هي العادة ، خلف الجنوب وكما هي العادة أيضاً ، كان في استطاعته أن يلتقي مجرد نظرة مريعة من جانب إلى جانب فيرى ، وهو يرقب الاستعراض ، شخصاً عربياً وسورياً ويمنياً .

ومشى إلى حيث تنتهي المنازل السكنية الشاهقة وتبدأ الحدائق والأروقة الرخامية الفاتحة اللون ، والأقواس الرطبة ، والطرق العريضة . وكان لاعبو النرد يحتلون مكانهم في الساحة العامة بالفعل إذ كانت المقامرة في روما كالمرض ، وكان النرد هو أسوأ مظهر لذلك المرض ، فبعد ظهر كل يوم ، كانت جماعات المقامرين تتناثر في كل أنحاء الساحة العامة يرمون النرد ، ويضرعون إلى الترد ، ويتحدثون إلى الترد . وكانت لهم لغة خاصة بهم : وكان المتعطلون والجنود في أوقات راحتهم ، وفتيات الرابطة والخامسة عشرة اللاتي تجدهن في كل مكان في المدينة ، لا يعملن شيئاً ، نشأن في

الشقق الصغيرة القذرة يعشن فيها كما عاش أباهن على الصدقات العامة ، ويضفن إليها القليل مما يربحنه من الدعارة وليدة عدم المبالاة .

وحدث مرة أن اعتبر ذلك الأمر ، هو وكثير غيره ، أمرا وحيثيا رهيبا ، لكن الأمر لم يعد في تلك الأيام جديراً بالاهتمام والمناقشة ، بعدما لم يعد من العار على الرجل المتزوج زواجا فاضلا ، أن يحتفظ باثنتي عشرة جارية .

وفكر جرا كوس قائلا لنفسه

— إن عالما بأسره ينتهي جزءا لجزءا ، لكننا لانكف عن التعجب منه إطلاقا . ولماذا يجب أن نكف ؟ إن ذلك يحدث ببطء كبير ، وحياة المرء قصيرة جداً .

وكان يتوقف هنا وهناك ليرقب ألعاب النرد . إذ كان يستطيع أن يتذكر ، كيف كان يرمى النرد وهو بعد صبي . لم يكن في وسعك حين ذلك أن تحيا حياة طيبة على الصدقة العامة . وكانت توجد

يوم ذلك نواحي أخلاقية معينة تحمل الرجل ذا الكبرياء على رفض الصدقة العامة ، حتى ولو كان ذلك يعنى الموت جوعاً .

ثم مضى فى سيره إلى الحمامات . كان قد رتب الأمر بعناية .

وكانت نسبة احتمال وجود جرا كوس فى الحمامات يومئذ ،

ووصوله فى ذلك الوقت بالذات ، ثلاثة إلى واحد . وصح حديثه .

إذ كان كرا كوس موجوداً بالفعل فى غرف ارتداء الملابس ، عندما

دخل إليها جرا كوس ، وقد خلع ثيابه وتوقف برهة أمام المرايا

يتأمل جسده الطويل النحيل فى إعجاب . وكانت الغرفة مليئة

بالمستحمين . فى تلك الغرف ، كنت تجد قسماً ملبياً من حياة

المدينة ، وعاء لخلط السياسة . ونفراً من ذوى الدم الأزرق الكسالى

والتيها قوة سياسية كافية لهن المدينة من أصولها ، وأصحاب البنوك

والتجار ذوى النفوذ ، ورؤساء الأحياء ، ومستوردي العبيد ، وتجار

الأصوات الانتخابية ؛ ومعرضاً من الأذنان صفار الشأن وزعماء

العصابات ، واجتماعاً تهديداً هاماً لانتخاب عضو فى مجلس الشيوخ ،

حتى متعهداً أو اثنين من متعهدى المجالدين ، وثالوثاً من القناصل

السابقين ، وقاضياً ، ومثلاً أو اثنين ، واثنى عشر رجلاً عسكرياً

من ذوى الشأن ، وينتشر بينهم عدد كاف من الرجال الذين ليست

لهم أهمية خاصة ليدلوا على الديمقراطية التى كانت تسود

الجماعات - وهي الديمقراطية التي كانت روما تنبأها بها إلى حد كبير . ولم يكن في استطاعة الملوك والمرازبة القسادمين من الشرق أن ينفلوا قط حقيقة أن حكام روما - أي حكام العالم - كانوا يختلطون بتلك البساطة بمختلف طبقات المدينة ويمشون في شوارع المدينة دون أي مبالاة .

جلس جراكوس على أريكة وترك عبداً يفك له حذاءه وهو يراقب كراسوس مراقبة منقطعة . وأخذ في نفس الوقت يتلقى التحيات ، ويحني رأسه ويبتسم ، ويلقى بكلمة هنا وكلمة هناك . وكان يجود بالنصيحة عندما تطلب منه ، قصيرة حاسمة . وأدلى ، عندما طلب منه ذلك ، بآراء قصيرة أكيدة عن القلاقل في أسبانيا والموقف في إفريقيا ، وضرورة بقاء مصر على الحياد - تلك المصدر الدائم لقمح روما - ومشكلة ما يجب عمله تجاه هياج اليهود المتواصل في فلسطين . وأعاد الثقة إلى النحاسين الذين كانوا يشكون من أن أثمان العبيد ستظل على نزولها حتى تحطم الاقتصاد ، وبدد شائعة تقول إن الجيش في بلاد الغال يدبر انقلاباً . لكنه ظل يراقب كراسوس طيلة الوقت ، حتى تبخر المليونير في النهاية وهو مازال عارياً يستعرض لياقته الجثمانية النحيلة ويمضي بقية اليوم . ولم يستطع كراسوس أن يقاوم البقاء هناك ليقارن الجميع بينه وبين جراكوس ، عندما بدأ هذا يخلع ملابسه . وعندما خلع العبيد عباءة السياسي ، ظهر جسد الرجل الضخم كالجبل ، ومع ذلك فقد ظل على تأثيره

في النفوس ، وعندما خلع العبيد عنه الرداء ، كان تفجع الرجل المفرط السمنة لتعريه على الملأ أسوأ من شعوره عند التعري العادي البسيط .

والغريب في الأمر ، أن جراكوس لم يكن يشعر بالحجل من جسده قط قبل ذلك .

ومشياً معاً حتى دخلا إلى غرفة الاستراحة ، وهي منتدى الحمامات ، ففيها أرائك وسجاجيد يستطيع المرء أن يتمدد فوقها ويستريح ، لكن المتبع كان بصورة عامة هو التمشي جيئة وذهاباً بين المغاطس ، وكان في استطاعة المرء أن يذهب من تلك الصالة العريضة الأنيقة المرصوفة بالرخام ، المحلاة بالفسيفساء والتماثيل ، إلى حوض المياه البارد الخارجي ، وإلى الحوض الدافئ ، وإلى الحمامات الساخنة ، وإلى غرف البخار ، وعن طريق كل هؤلاء إلى غرف التدليك والتدريبات الرياضية المتعددة .

وكان في استطاعة المرء بعد ذلك ، إذا ما التفت في ملاءة رطبة أن يخرج إلى بماشي الحديقة وإلى المكتبات - وكانت جزءاً من الحمامات - وإلى غرف الجلوس وإلى أماكن حمامات الشمس . وكان ذلك النظام الكامل صالحاً لمن يملكون ساعات من الفراغ يمضونها في الحمامات . وكان جراكوس يكتفي عادة بالنزول إلى المغطس البارد : وينصف ساعة في غرفة البخار ، ثم بالتدليك .

لكنه كان في تلك اللحظة يدين عريكته لكراسوس ، فكان من الطبيعي أن يتقاضى عن الكلمات القاسية والانفعالات الحادة، فمشى إلى جانب القائد ، عارياً سميناً ، مترهلاً ، وهو يقطر ظرفاً ورعاية وكان شديد البراعة في ذلك .

وعلق الناس الذين رأوهما معاً قائلين :

— يقبجان جسوراً

وتساءلوا عن كنه المحالقات السياسية الجديدة التي تدبر هناك ، نظراً لأنه لم يعرف عن كراسوس وجراكوس ذلك اللون من الزمالة . على كل ؛ انتظار كراسوس في صبر . وقال يخاطب نفسه .

— سيفصح عما يقصد بهما كان .

واستحال أسلوبه مهيناً بعض الشيء ، إذ سأل السياسي قائلاً

— منذ متى أصبحت حجة في شؤون مصر ، كما أنت حجة في

غيرها من الأشياء ؟

— أتعني ماقلته أنا من قبل ؟ حسن إنها كلمات عامة قليلة تسد

الفراغ . إنها مسألة سمعة .

وكان ذلك جراكوس جديداً حقاً .

— سمعتك أنك تعرف كل شيء ؟

— فضحك جراكوس وقال

— لقد ذهبت إلى مصر ، أليس كذلك ؟

— لا . ولا أتظاهر بذلك .

— حسن حسن . لست أدرى يا كراسوس ، كلانا يزجروا بينهما
في الآخر ، بينما نستطيع أن نصبح أصدقاء . فكل منا صديق
جدير بالمصداقة .

— أظن ذلك . وأنا ساخر كذلك . هناك ثمن للصدقة .

— حقاً ؟

— نعم طبعاً . ما الذي أملكه ليجعل صداقتي غالية إلى هذا الحد

المال أنت تملك مثل ما أملك تقريباً .

— أنا لا أعبأ بالمال .

فقال جراكوس في عجلة

— أريد أن أشتري منك عبداً .

وهكذا صرح جراكوس بما يريد وانتهى .

— الطاهي بلا شك . لو أن لك شعرا يا جراكوس ، انقلت إنك

تريد مصفف شعري . أم تراك تريد طاقماً من حملة المحفلات ؟ أو

لعلها امرأة . سمعت أنك لا تملك إلا النساء في بيتك .

فصاح جراكوس يقول :

— اللعنة . أنت تعرف من أريد . أريد فارينيا

— من ؟

— فارينيا . ولنكف عن محاوره كل منا للآخر .

— أنت الذى تتلاعب يا عزيزى جراكوس ، من الذى كان يبيعك المعلومات ؟

فتوقف الرجل السمين عن السير وواجه الآخر وقال :

— نا على علم دائما ، اسمع - اسمع يا كراسوس . لانهو يش ، ولا مباحكة ، ولا مساومة . سأصارك . سأدفع لك أكبر سعر دفع فى روما على الإطلاق ثمنا لبعدي . سأدفع لك مليوناً من القطع الذهبية . سأدفع لك هذا المبلغ ذهباً ، وسأسلم لك كل قطعة منه فوراً ، إذا أعطيتنى قاريدنا .

فعقد كراسوس ذراعيه ، وصفر بغمه صفيراً خافتاً ثم قال :

— نعم ياله من ثمن . ثمن كبير . يستطيع الشعراء أن يقرضوا الشعر حول مثل هذا الثمن . فى الوقت الذى يستطيع أى رجل أن يذهب اليوم إلى السوق ويشتري حسناً ناضجة بألف قطعة ذهبية ، أراك على استعداد لأن تدفع ألف مثل لهذا السعر ثمناً لفتاة ألمانية هزيلة . هذا شئ غريب . لكن كيف أستطيع أن أقبل مثل هذا المبلغ ! ماذا يقول الناس ؛ سيقولون إن كراسوس لص ملعون .

— كف عن التلاعب بي .

— أتلاعب بك ؟ إنما أنت يا عزيزى كراسوس الذى يتلاعب بي . أنا لا أملك شيئاً أستطيع شراءه .

- أنا أتقدم بعرض جدى .
— وأنا أجيبك إجابة جدية .
فزجر جراكوس قائلاً
— أنا أضعف الثمن . مليونان
— لم أعلم قط بوجود مثل هذا القدر من المال فى السياسة
— مليونان . أقبل أو أرفض
فقال كراسوس
— أنت تسمى
وتركها وابتعد .

— فآرينيا ، فآرينيا ، يجب أن ترتدى ثيابك الآن . يجب أن نلبسك ثيابك الآن يا فآرينيا ، لأن السيد سيعود ، وعلبك أن تجلسى إليه وتناولى العشاء معه . لماذا تعقدين الأمور لنا إلى هذا الحد يا فآرينيا ؟

— أنا لا أريد أن أعقد الأمور لكن .

— لكنك تعقدينها . وأنت ترى كيف تعقدين لنا الأمور يا فآرينيا . تقولين لنا إنك أمة ، وإنك لا تريدين أربعة من الإماء ليعنين بك عناية كاملة . وإنك ما أنت إلا أمة مثلنا . وتحديثنا عن مدى تعسك ، وأنت تعرفين كيف يكون حال الإنسان عندما يصبح عبدا . أم لعلك قد نسيت عندما كنت مع سبارتاكوس . تقهران العالم كله ، كيف يكون حال الإنسان عندما يكون عبدا . كنت حين ذاك ملكة . ألم تكونى كذلك يا فآرينيا ؟ إذن .

— لا تفعلى ذلك بعد الآن . لماذا تفعلين ذلك ؟ هل تباعدت

عنكن يوما ؟

لست في حاجة إلى ذلك يا فارينيا . إنما هو السيد الذي يباع
بيدك وبيننا .

لكنه يجبك أنت يا فارينيا . وذلك هو السبب في أنك تعقدين
الأمور لنا . فنحن نجلد إن لم ترأدي أنت ثيابك كما يجب . أما أنت
فلا تجلدين ونجلد نحن .

— دعته يجلدني أنا الأخرى .

— ندعه . مجرد ندعه . في وسعنا أن نراه يجلدك .

فقلت لمن

— حسن حسن . أنا أرضع الطفل الآن . اتركني أفرغ من
إرضاعه ثم أرتدي ملابسى . أنتن تردن منى أن أرتديها بأى شكل .
لن أعقد الأمور بالنسبة لكن ، فقط دعونى أفرغ من إرضاع
طفلى .

— كم من الوقت يستغرق ذلك ؟

— إنه لا يرضع طويلاً . انظرن إليه . لقد أبطأ في رضاعته
بالفعل . وسأكون على استعداد خلال نصف ساعة . إذ
سيكون قد نام عند ذلك . وأعدكن أنى سأعمل كل ما تطلبين منى عمله ،

وسارتدى كل ما تردن منى أن ارتديه .
فتركها برهة من الزمن . وكان ثلاثة منهن أسبانيات . أما الرابعة
فكانت امرأة سايينية . وكان ما يثر لها أشد الإيلام أن أمها كانت
قد باعها بالنسيئة . وكان في وسع فارينيا أن تفهم ذلك . فها يبعث
المرارة إلى النفس أن يبيع الأهل ابهم ، إذ يجعل ذلك من الابن
شخصا حاقدا . وكانت الغيرة والحسد والمرارة تفرخ في ذلك البيت
فأليت كاه عفن .

وأرضعت الطفل وغنت له في رقة قائلة :

، نم يا طفلي ، نم يا حبيبي

بينما أبوك في الغابة ،

يبحث عن كلب البحر ويعطن كلب البحر ،

ويحضر الجلد بشعره ورقه منتصف الليل ،

أبدا لن تمس برودة الشتاء

طفلي ، طفلي الحبيب . . .

واسترخى الرضاع ، إذ استطاعت أن تحس الضغط على الحلمة
بترأخ . فعندما يرضع الطفل بقوة ويعنف نتيجة لجوعه ، يحتاج
جسدها كله بنار حاد ثم تمتلىء مدته جزءا فجزءا فيخفت الإحساس
الجميل ويضعف . ياله من شيء جميل أن يكون لك طفل يرضع .

وأعطته الثدي الآخر ، لمجرد أنه قد يحتاج إلى المزيد من اللبن
وربما على خده ليبدأ الرضاع من جديد ، لكنه كان قد فرغ وأغمض
عينيه ، وران عليه عدم مبالاة الأطفال الشبيهة بالتمثيل عندما تمتلئ
بطونهم . وظالت تحتضنه برهة إلى صدرها العاري الدافئ ، ثم
وضعتة في مهده وأغلقت فتحة رداها .

وفكرت وهي تقف إلى جواره : كم هو جميل ، سمين مستدير
وقوى . ياله من طفل رائع ، شعره كالحرير الأسود ، وعيناه
داكنتا الزرقاء . ستسود هاتان العينان فيما بعد كما كانت عينا أبيه ،
لكنها لا تستطيع أن تقرر ذلك بالنسبة للشعر ، فعندما يتساقط
شعر البطن الأسود هذا ، فقد ينمو الشعر في خصل سوداء جعدة
أوصفراء مستقيمة .

نام بسرعة ويسر ، فدنياه نظيفة عادلة . دنياه هي دنيا الحياة
عندما تسودها قوانين الحياة البسيطة نفسها بلا إزعاج وبلا تعقيد ،
ودنياه هي الدنيا التي تدوم وتبقى بعد كل ما عداها .

تركته عندذاك وذهبت إلى حيث كن ينتظرن ليلبسها ثيابها .
أربعة من الإماء ليلبسها كي تنساول العشاء مع الرجل الذي
يمتلكها . ووقفت في طاعة ، بينما رحن يخلعن عنها ثيابها ويغسلن
جسدها العاري بالأسفنج . كان جسدها ما زال بالغ الجمال ، طويلة
الساقين وقد ازداد جسدها جمالا لامتلاء ثديها باللبن . وانفخن

جسدها بملاءة . ورقدت على أريكة لتبدأ الألة المختصة بالتجميل
فى تزيين وجهها وذراعها .

وضعت أولا طبقة من المسحوق الأبيض الناعم على ذراعها
وجبهتها . وكان المسحوق يخف حتى يتلاشى على خديها ، ثم اللون
الأحمر . اللون الأحمر الخفيف على خديها ، والأحمر المائل إلى البنى
الداكن على شفتيها . ثم معجونًا من الفحم الأسود لإبراز
الحواجب .

وعندما انتهى ذلك جلست وسمحت لهن بتصفيف شعرها .
فشككن الشعر الأصفر الناعم المستقيم فى عناية إلى كوم من الخصل
الثابتة التى ثبتنها فى مكانها بالمعجون وبالشرائط الصغيرة .

ثم جاء دور الحلى . ووقفت عارية حتى من الملاءة فى طاعة
ودون حراك ، بينما رحن يثبتن التساج فوق شعرها . وتلى ذلك
الأقراط الذهبية ، ثم طوق للعنق من الذهب والياقوت الأزرق .
وزين مفاصل قدميها ورسغها بأطواق مائلة صغيرة . وزين الأصبع
الصغيرة فى كتفها يديها بخاتم من الماس . كن يلبسها من الملابس
أحسنها وأغزرها . ألبسها ما يلبسه أغنى رجل فى روما لحبيبتة
لا لأمته . لا عجب إذن إذا كانت تلك الشيطانات التعسفات الموكلات
بصيوان ملابسها ، لم يشعرن بالشفقة أو العطف نحوها . انظر كيف
كانت ترندى ثروة إمبراطورية بمثابة فى مجوهرات فقط . كيف

كان المرء يستطيع أن يرثي لها ؟

ولم يكن أئمن الأقمشة في روما في ذلك الوقت هو الحرير ، إنما كان القطن الرقيق الخالص الرائع المنسوج في الهند وله من الرقة والشفافية مالا يباريه فيه الحرير . عنداك ألبسها رداء من القطن . كان رداء طويلا بسيط التفصيل ، يتجمع حول الخصر بحزام مقفل وكان الزخرف الوحيد فوق ذلك الرداء هو خيط من الذهب يوشى حافته . والواقع أنه لم يكن في حاجة إلى زخرف ، إذ كانت خطوطه غاية في البساطة وغاية في الجمال . لكن فارينيا لم تكن لتستطيع أن تغفل لحظة عن حقيقة أن كل خط من خطوط جسدها كان يتضح من خلاله . وكان ذلك هو العرى الذي يعنى لها الرعب والانحطاط لذلك رحبت بما فاض به ثدياها ، قبل صدر الرداء وشوه منظره .

وفوق ذلك كله ، وضعن شالا كبيرا من الحرير الأصفر الباهت ارتدته فارينيا كما لو كان عباءة ، فغطت به الرداء ، الأمر الذي كان يجعل كراسوس في كل مرة تناول فيها العشاء معه على أن يقول .

— يا عزيزتى ، يا عزيزتى . لماذا تصرين على إخفاك جسديك الجميل بهذه الطريقة ؟ انركى شالك على حريرته ، فثمن الرداء الذي

ترتدينه تحته ، عشر آلاف قطعة ذهبية ، فأستطيع على الأقل أن أسعد بالظر إليه إذا لم يستطع ذلك أحد غيرى .

وقال ذلك مرة ثانية فى تلك الليلة عندما دخلت إلى غرفة الطعام . وفى تلك الليلة أيضا أطاعته وتركت الشال يفتح على حريرته .

وقال كراسوس .

— أنت تخبر يبنى . أنت تخبر يبنى إلى حد كبير يا بنارنيا . أظن
نى قلت لك من قبل إنه كان لى حظ - أو سوء حظ - الاضطرار
إلى تمضية أمسية فى معسكرى بيلاد الغال عبر الألب ، مع ذلك
المتوحش متعهد المجالدين باتياتوس . وقد وصفك بأنك قطعة
متوحشة . وهو وصف كثير الحيوية للمرأة التى لا يمكن ترويضها .
لكنى لا أرى دليلا على ذلك . فأنت مطبعة موافقة إلى حد غير
عادى .

— أجل .

— وأنا أتساءل عما أحدث هذا التغيير فىك . أنت لا يعينيك أن
تخبرنى فيما أظن ،

— لا أدرى . أنا لا أستطيع أن أخبرك .

(م - ١٨ سبارتا كوس)

— أظن أنك تعرفين فعلا ، ومع ذلك فدعى الأمر جانبا .
أنت رائعة الجمال الليلة . معنى بتصفيف شعرك . ومعنى بثيابك
ياقارنيا . إلى متى سيستمر هذا الحال ؟ لقد كنت كثير الرقة في
معاملتك . ألم أكن كذلك ؟ الحزن هو الحزن ، لكن قارنى بين
هذا وبين مناجم الملح . أستطيع أن أنزع طفلك وأبيعه نظير
الثلاثمائة قطعة ذهبية التي هي ثمنه في السوق ، ثم أبعث بك إلى المناجم .
أنحبين ذلك ؟

— لن أحب ذلك .

فقال كراسوس .

— أنا أكره أن أتكلم بهذه الطريقة .

— لا عليك . تستطيع أن تتكلم بأى طريقة تشاء ، فأنت
تمتلكنى .

— وأنا لا أريد أن أمتلكك يا قارنيا . لأن الحقيقة أنك تمتلكينى
بنفس الطريقة تماما .

أنا لا أريد منك أن تبسوحى لى بأى أسرار . أنا أريدك أن
تعرفينى على حقيقتى . لأنك إذا أحببتنى ، أصبح شيئا آخر . شيئا
جديدا رائعا . يا إلهى . هل تعرفين أنهم يسمونى أغنى رجل
في العالم ؟ قد لا أكون كذلك ، لكننا نستطيع معا أن نحكم
العالم .

فقالت قارينيا وصوتها رتيب لا جرس فيه ، صوت ميت كما كان صوتها دائماً عند ما تتحدث إليه .

— لا أريد أن أحكم العالم .

— ألا تصدقين أنني سأتغير إذا أحببتني ؟

— لا أدري . ولا أبالي .

— لكنك سنباين إذا وصل الأمر إلى طفلك ذلك ؟ لماذا لا

تقبلين وجود مريض له ؟ بدلا من الجلوس هنا واللبن يتدفق من ثديك .

— ولماذا تهددين بالطفل دائماً ؟ الطفل ملك لك ، وأنا ملك

لك . أتظن أنك بالتهديد تقتل طفلي ، تجعلني أحبك ؟

— أنا لم أهدد بقتل طفلك .

— أنت ؟

— أنا آسف يا قارينيا . نحن نعود بالحديث دائما إلى نفس

هذه الحلقة . أرجو أن تأكلي . أنا أعمل ما أستطيع ، فمأ أقدم لك

وجبة كهذه . لا تقولي لي إنك لا تباين ، فالمرء يستطيع أن يشتري

بيتا ريفياً بثمن هذا العشاء . كليه على الأقل . كلى ولو القليل منه .

اسمعي ، سأروي لك شيئا طريفا حدث اليرم . قد تجد منه طريفا على

الأقل وكلّي قليلا .

فقالت قارينيا .

— أنا آكل على قدر ما أحتاج .

ودخل عبده ووضع صحننا من الفضة فوقه بطة . ونزع عبد آخر عظامها . وكان كراسوس يملك مائدة مستديرة . وكانت الموائد المستديرة قد بدأت لتوها في الشبوع . تحيط بثلاثها أريكة مستديرة واحدة ، فكان الطاعمون يتبادلون طعامهم معقودي الساقين ، يجلسون بين أكوام الحشائبات الحريرية .

— هذه البطة مثلاً ، مدخنة محشوة بالكماو مطبوخة بنظير الخوخ المسقى بالشراب .

فقالت قارينيا

إنها كثيرة الجودة .

— أجل ،

كنت أحدثك من قبل عن شيء ظريف حدث اليوم . دخل جراكرس إلى الحمامات . وهو يكرهني إلى حد الحقد ، لدرجة أنه لم يعد في استطاعته أن يخفي ذلك والغريب في الأمر أني لا أكرهه ، نسيت . فأنت لا تعرفينه . هو عضو مجلس الشيوخ وقوة سياسية كبيرة في روما — أوكأن كذلك ، فقوته اليوم تتعرض

لكثير من الهزات. وهو واحد من زمرة هؤلاء الذين ارتفعوا بأنفسهم من المجارى وجمع ثروة من الوساطة وبيع الأصوات. رجل كالحنزير السمين. لا كبرياء - لا جسد، فهذا هو الحال دائما، ولا إحساس كذلك. لذلك سيظل جالسا على عرشه حتى يذوب من تحته. حسن استطعت أن أرى فى التبر، أنه يريد منى شيئا إذ أقام عرضا كبيرا، باستعراض هيكله السمين جيئة وذهابا معى فى قاعة الاستراحة، وفى النهاية صرح لي بما يريد. كان يريد أن يشتريك، وعرض ثمنا كبيرا لك كذلك. وعندما رفضت ضاعف الثمن. فأهنته عامدا متعمدا، لكن ذلك لم يؤثر فيه.

فسألته قارينيا قائلة:

— ولماذا لم تبغى؟

— له؟ يجب يا عزيزتى أن تربه مرة واحدة وهو يمشى غارقا

فى لحمه. أم أن ذلك لا يعنك؟

فقلت قارينيا

— لا أهمية لذلك.

فدفع كرا كوس صحنه بعيدا، وحدثق إليها. وأفرغ مائى

كأسه من النبيذ فى جوفه، ثم صب كأسا آخر، ثم قذف بالكأس

عبر الغرفة في سورة غضب مفاجئة . ثم بدأ يتحدث وهو مسيطر
على أعصابه إلى حد ما .

— لماذا تكرر هيننى إلى هذا الحد ؟

— أيجب أن أحبك يا كراسوس ؟

— أجل . لأنى أعطيتك أكثر من كل ما أخذت من
سيارتا كوس .

فقالت .

— لم تفعل .

— لماذا ؟ لم لا ؟ ماذا كان هو ؟ أكان إلها ؟

فقالت قارينيا

— لم يكن إلها . كان رجلا بسيطا . كان رجلا عاديا . كان عبدا .

ألا تعرف معنى ذلك ؟ لقد عشت طفلة حياتك بين العبيد .

— وإذا أخذتك إلى الريف ، وأعطيتك لعبد من عبيد

المحراث فى جهة ما ، أتستطيعين أن تعيشى معه وأن تحبيه ؟

— أنا لا أستطيع أن أحب إلا سيارتا كوس . لم أحب يوما

رجلا غيره ، ولن أحب يوما رجلا سواه . لكنى أستطيع الحياة مع

عبد من عبيد الحقول . فسيكون مثل سيارتا كوس بشكل ما ، ولو

أن سبارتا كوس كان عبدا من عبيد المناجم وليس من عبيد الحقول .
هذا كل ما كانه سبارتا كوس . أنت تظن أنني بسيطة التفكير
جداً ، وأنا كذلك . وأنا حقا كذلك . فني بعض الأحيان أعجز
حتى عن فهم ما تقول . لكن سبارتا كوس كان أكثر بساطة مني .
ولو قورن بك لكان كالطفل . كان نقياً .

فسألها كراسوس قائلاً وهو يسيطر على نفسه .

— ماذا تعنين بأنه كان نقياً ؟ لقد أصغيت إلى الكثير من هذا
الهراء منك . كان سبارتا كوس عدوا للمجتمع لا يعرف القانون .
كان جزارا محترفاً ، أصبح فيما بعد قاتلاً خارجاً على القانون ،
وعدوا لكل شيء جميل ومحترم وطيب أقامته روما . لقد أقامت روما
السلام والمدنية في العالم بأسره ، لكن ذلك العبد القذر لم يعرف
إلا أن يحرق ويدمر . ما أكثر البيوت الريفية التي أصبحت حطاماً
لأن العبيد لم يعرفوا أو يفهموا المدنية . ماذا فعلوا ؟ ماذا حققوا
في السنوات الأربع التي حاربوا روما خلالها ؟ كم من الآلاف
ماتوا نتيجة لثورة هؤلاء العبيد ؟ ما أكثر التعس والالام التي
قاساها العالم لأن هذه النفاية حلت بالحرية — حرية التدمير .

جلست هي صامته لا تتكلم وقد أحنث رأسها وخفضت

عينها .

— لماذا لاتردين على ما أقول ؟

فقلت في هدوء .

— أنا لا أدري كيف أجيبك . لا أعرف ما تعنيه هذه

الأسئلة .

— لقد أصغيت إلى أشياء قلتها أنت لا أقبلها من أى إنسان
غيرك على هذه الأرض . لماذا لاتردين على ؟ ماذا كنت

تعنين عندما قلت إن سبارتا كوس كان نقيبا ؟ هل أنا أقل منه
نقاء ؟

فقلت فأرنبيا

— لا أدري . فأنا لا أفهمك . أنا لا أفهم الرومانيين . أنا

أعرف سبارتا كوس وحده .

— ولماذا كان هو نقيبا ؟

— لا أدري . ألا تظن أنني سألت نفسي هذا السؤال ؟ ربما

لأنه كان عبدا ، وربما لأنه قاسى الكثير . كيف تستطيع
أنت أن تفهم كيف يقاسى العبد ؟ فأنت لم تكن عبدا فى يوم من
الأيام .

— لكنه كان نقيبا . قلت إنه كان نقيبا .

— كان نقيماً بالنسبة لى . لم يكن ليستطيع أن يقترف عملاً سيئاً .

— وهل تظنين أنه كان عملاً طيباً أن يشعل تلك الثورة ؟
وأن يشعل النار فى نصف العالم ؟

— نحن لم نشعل النار فى العالم . كانت حريتنا هى كل ما نبغى .
كان كل ما نريد هو أن نحيا فى سلام . أنا لا أعرف كيف أتكلم كما
تكلم أنت . فأنا لست متعلمة . بل لا أستطيع حتى ان أتحدث بلغتكم
جيداً : ويسودنى الارتباك عندما تتحدث إلى . لم أكن لأرتبك
وأنامع سيارتا كوس . كنت أعرف ما يريد .

كنا نريد أن نصبح أحراراً .

— لككم كنتم عبيداً .

— أجل . ولما إذا يجب أن يكون البعض عبيداً والبعض
أحراراً ؟

فقال كراسوس فى مزيد من الرقة

— أنت تعيشين فى روما الآن يا قارينيا ، وقد صحبتك فى
جولة فى المدينة فى محفتى . وشاهدت قوة روما ، قوة روما التى
لا نهاية ولا حدود لها . فالطرق الرومانية تمتد عبر العالم بأسره .

والفيالق الرومانية تقف على أطراف المدينة وتدفع قوى الظلام . وترتعد الشعوب لمجرد مرأى صولجان السفير ، وحينها يوجد الماء ، يسيطر الأسطول الروماني على البحار . وقد شاهدت العبيد يحطمون بعض فيالقنا . لكن المدينة هنا لم يصبها حتى خدش واحد من جراء ذلك . فهل تتصورين ، بكل ما لديك من عقل ، أنه كان في استطاعة قليل من العبيد المتمردين ، أن يقلبوا أعظم قوة عرفها العالم في تاريخه - القوة التي لم تستطع الإمبراطوريات السابقة أن تباريها ؟ ألا تفهمين ؟ إن روما خالدة . والحياة الرومانية هي أفضل حياة عاشها البشر على الإطلاق . وستبقى إلى الأبد . هذا ما أريدك أن تفهميه . لأنك من أجل سيارتا كوس . فقد انتهى أمره ، أما أنت فلك حياتك الخاصة التي يجب أن تحيها .

- أنا لا أبكي من أجل سيارتا كوس . ولن يبكي إنسان يوماً من أجل سيارتا كوس . كما أنهم لن ينسوا سيارتا كوس أبداً .

- آه يا قارينيا ، قارينيا - كم أنت حقا . إن سيارتا كوس لم يعد إلا مجرد شبح بالفعل . وسيختفي هذا الشبح غداً . وبعد عشر سنوات من الآن ، لن يتذكر أحد اسمه . ما الذي يدفعهم إلى ذلك ؟ أ يوجد أي تاريخ لحرب العبيد ؟ إن سيارتا كوس لم يشيد إنما حطم فقط . والعالم لا يذكر إلا الذين يشيدون .

.. لقد شيد الأمل .

.. قارينيا ، أنت تردين الكلمات كالفتاة الصغيرة . : لقد شيد
الأمل . الأمل لمن ؟ وأين هي هذه الآمال اليوم ؟ طارت كالرماح ،
كالتراب . ألا ترين انه لا يوجد طريق آخر في العالم ولن يوجد
أبدأ . إلا أن يحكم القوى الضعيف ؟ قارينيا ، أنا أحبك لأنك أمة ،
إنما على الرغم من هذه الحقيقة .

.. أجل .

وقال في مرارة .

— لكن سبارتا كوس كان نقيا .

— نعم كان سبارتا كوس نقيا .

.. حدثيني . . قولى لى كيف كان نقيا ؟

— لا أستطيع أن أقول لك . لا أستطيع أن أحدثك بأشياء

لا تفهمها .

— أريد أن أفهمه . أريد أن أقاتله . لقد قاتلته عندما كان

حيا ، وسأقاتله اليوم وهو ميت .

فهزت رأسها وقالت

— لماذا تلاحقنى بهذه الصورة ؟ لماذا لا تبغى ؟ لماذا تفعل لا

بي ما تشاء ؟ لماذا لا تدعني وشأني ؟

— إنما أسألك أن تحدثني عن شيء بسيط يا قارينيا . أكان
هناك رجل مثل سبارتاكوس على الإطلاق ؟ لماذا لا يستطيع
أي إنسان أن يحدثني عنه ؟
— لقد حدثتك .

ثم توقفت . فقال في رقة .

— أكمل يا قارينيا ، أكمل . أريد أن أصبح صديقا لك . لا
أريد منك أن تخافي من الحديث إلى .

— لست خائفة . لم أشعر بالخوف يوما بعد أن عرفت
سبارتاكوس ، لكن الحديث عنه أمر عسير . لقد وصفته بأنه قاتل
وجزار . لكنه كان خير رجل عاش على الإطلاق ، وأكثر الرجال
نبلا .

— أجل . قولي لي كيف . أريدك أن تقولي لي كيف كان
ذلك . أريد أن أفهم ما فعله ، ليجعلك تظنين ذلك . قد أستطيع أن
أصبح مثل سبارتاكوس إذا فهمت ذلك .

وكان قد مضى في الشرب دون أن يذوق الطعام ، وهدأت
سخريته عندهذاك . وقال :

— قد أستطيع أن أصبح مثل سبارتاكوس .

— أنت تحملني على الكلام عن ذلك ، لكن كيف أشرح لك ؟
ليس الرجال والنساء سواء حتى بين العبيد ، كما هو الحال بينكم .
والرجل والمرأة متساويان بين العبيد . فنحن نعمل نفس العمل ،
ونذوق نفس السوط . ونموت نفس الميتة ، وندفن في نفس
القبور التي لا اسم لها . وفي بداية الأمر حملنا الحراب والسيوف ،
وقاتلنا مع رجالنا جنبا إلى جنب . وكان سبارتا كوس رفيقي . كنا
كباننا واحدا ، كنا مرتبطين معا . وحينما كنت تجد على جسده أثر
جرح ، كان يكفي أن ألمسه فيؤلمني ويصبح أثر الجرح في جسدي .
وكنا متساويين على الدوام . وعندما مات خير صديق له ،
كريبكسوس ، وضع سبارتا كوس رأسه في حجرى وبكى ونهته
كالصبي الصغير . وعندما وضعت طفلي الأول بعد ستة أشهر ،
بكيت بنفس الطريقة ، فعنى هو بي . لم يعرف يوما امرأة غيرى
طيلة حياته . ولن أعرف رجلا غيره مهما حدث . شعرت بالخوف
يوم رقدت بين ذراعيه لأول مرة ، ثم اعتزاني شعور رائع ،
وعرفت أنني لن أموت أبدا لأن حبي خالد لا يعرف الموت ، وأنه
لن يضيرني شيء بعد ذلك . أصبحت مثله ؛ وأظن أنه أصبح مثلي
بعض الشيء . لم يخف واحد منا سر عن الآخر . واعدت أن
أخاف أول الأمر أن يرى آثار العقاب على جسدي . ثم أدركت
أن أثر العقاب لا يفترق عن الجلد السليم من الآثار . كان كثير الحب

لى . لكن أى شىء عنه أستطيع أن أحدثك به ؟ إنهم يريدون أن يجعلوا
منه عملاقا ، لكنه لم يكن عملاقا . كان رجلا عاديا . كان رقيقا
طيبا ومليئا بالحب . كان يحب رفاقه . كان يحضن بعضهم
البعض ، ويقبل الواحد منهم الآخر فى شفطيه عندما يتقابلون .
لم أرى منكم يوما أيها الرومانيون رجالا يتعاقبون وفى أى وقت كان
سبارتا كوس يقول لى شيئا ، كنت أعرف ما يعنيه . لأعرف ما يعنيه
الرومانيون عندما يتكلمون . وعندما كان العبيد يتقاتلون
ويتخاصمون ، كان سبارتا كوس يجمع بينهم ، وينسلكم الجميع ،
ثم يتحدث هو إليهم فيصغى الجميع . كانوا يرتكبون أعمالا قبيحة ،
لكنهم كانوا يرغبون دائما فى التحسن . لم يحسوا بالوحدة ، فقد كانوا
جزءا من شىء ، كان الواحد منهم جزءا من الآخر . اعتادوا أول
الامر أن يسرقوا من الغنائم ، وأوضح لى سبارتا كوس ، كيف
أنه لا حيلة لهم فى ذلك . فهم قد جاءوا من أماكن كانوا يرون
فيها السرقة . لكن المخزن العام لم يعلق بابه يوما ، ولم يتم عليه
حارس ، وعندما رأوا أن فى استطاعتهم أن يأخذوا كل ما يحتاجون
إليه دون سرقة ، وأنه لا يوجد طريقة لاستغلال ما يسرقون ،
كفوا عن السرقة ، وفقدوا خوفهم من الجوع والفقر . وعلبنى
سبارتا كوس أن كل ما يقترفه الرجال من أعمال شريرة ، فإنما
يقومون عليها لأنهم خائنون . وأراني كيف يستطيع البشر أن

يتغيروا وأن يصبحوا غاية في الجمال والروعة لو أنهم عاشوا في
إخاء، وتقامموا فيما بينهم كل ما عندهم . شاهدت ذلك وعشت
فيه . لكن الرجل الذي اخترته لنفسى كان بطريقة ما مثل ذلك
دائما . ولذلك استطاع أن يقودهم كلهم . ولذلك كانوا يصفون إليه .
لم يكونوا مجرد قتلة أو جزارين ، كانوا شيئا لم يشهده العالم من
قبل . كانوا ما يمكن للناس أن يصبحوه . وهذا السبب في أنك
لا تستطيع أن تؤذيني . وهذا هو السبب في أنى لا أستطيع أن
أحبك .

فقال لها كراسوس .

— اخرجى من هنا . اغربى عن وجهى . لعنة الله عليك .

بمث جرا كوس يطلب فلافيوس مرة ثانية . كان الرجلان يتقاسمان مصيرا واحدا . وكانا يبدون كأخوين أكثر من أى وقت قضى . . رجلين سمينين عجوزين ، وجلسا وكل منهما يتطلع إلى الآخر في فهم ومعرفة . كان جرا كوس واعيا بمأساة فلافيوس فقد حاول فلافيوس دائما أن يكون مثل غيره من الرجال ممن أصابوا النجاح ، لكنه لم ينجح في ذلك يوما . حاول أن يكون صورة طبق الأصل منهم ، قسمة قسمة ، لكنه لم يصبح في النهاية إلا مجرد تقليد . ولم يكن حتى محنالا ، إنما كان تقليدا للمحتال ليس إلا . وتطلع فلافيوس إلى جرا كوس ، فرأى أن جرا كوس القديم قد انقضى ، ذهب على الأبعد بعد ذلك . أى شئ مروع قد أصاب جرا كوس ؟ ، كان مجرد شك من جانبه ، لكن الشك كان فيه الكفاية . كان قد وجد هنا حاميا له ، لكن هذا الحامي لم يعد يستطيع بعد اليوم أن يحميه . وذلك شئ مقدر له الوقوع .

سأل فلافيوس قائلا .

— ماذا تريد ؟ لا تسبني مرة ثانية . إنها فارينيا . لقد تأكد

ذلك بالنسبة لى إذا كان ذلك ما تريد . إنها زوجة سبارتا كوس .
ماذا تريد منى الآن ؟

فسأله جرا كوس قائلاً .

— من تخاف ؟ أنا لا أرجع على من ساعدنى . من أى شىء تخاف
على هذه الأرض ؟

فقال فلافيوس فى تعبس .

— إنما أخاف منك . أخاف مما ستطلب منى أن أعمله . تستطيع
أن تطلب كتائب حراسة المدينة لو أنك أردت . ولك عصاباتك
الخاصة ، ولك رجالك الأشداء ، وهناك أحياء كاملة تستطيع أن
تجعل كل مواطن فيها يودى عملاً لك . لماذا لا تفعل إذن ؟
لماذا تقصد رجلاً عجوزاً مضت أيامه مثلى ؟ لم تمض أيامى ، لأنه
لم تكن لى أيام قط . فلم أكن إلا تابعاً رخيصاً . لماذا لا تذهب لى
أصدقائك ؟

فقال جرا كوس ؟

— لا أستطيع . فى هذا الأمر لا أستطيع .

— لماذا ؟

— ألا تعرف لماذا ؟ أنا أريد تلك المرأة . أريد قارينيا .

(م - ١٩ سبارتا كوس)

حاولت أن أشتريها . عرضت على كراسوس مليون قطعة ذهبية .
ثم ضاعفت السعر ، فأهانني وسخر مني في وجهي .

— أوه . . . لا . . . لا . . . مليونان ؟ مليونان ؟

وبدأ فلافيوس يرتعد من الفكرة . ولحق شفثيه السمينتين ،
وأخذ يقبض يده ويفردها وقال :

— مليونان ! هما العالم بأسره . العالم بأسره في حقيبة صغيرة
تحملها معك في ترحالك ، فتملك العالم بأسره . وعرضت أنت تلك
القيمة ثمنا لامرأة ؟ يا إلهي يا جراكوس - لماذا تريدها ؟ لست
أسأل لمجرد محاولة معرفة أسرارك . أنت تريد مني أن أهمل لك
شيئاً ، لكنني سأغادر هذا المكان في التو إذا لم تقل لي . يجب أن
أعرف لماذا تريدها .

فأجابه جراكوس مكتئباً .

— أنا أحبها .

— ماذا ؟

فأخني جراكوس رأسه ، وقد زايله وقاره في تلك اللحظة
أخني رأسه واحمرت عيناه وبلتتهما الدموع .

— لست أفهم . الحب ؟ وما الحب بحق الشيطان ؟ أنت لم تزوج قط ، ولم تستطع اذراة أن تنشب أظفارها فيك قط . وتقول الآن إنك تحب أمة إلى حد أن تدفع مليوني قطعة ذهبية ثمنها لها . أنا لا أفهم ذلك .

فزجر السياسي قائلاً :

— أمن الضروري أن تفهم ذلك ؟ أنت لن تستطيع أن تفهمه ، فأنت تنظر إلى قترى في رجلا عجوزاً سمينا ، فسرهما كما يحلو لك . لم أعرف قط امرأة كانت مخلوقة بشرية ؟ كم من نساءنا مخلوقات بشرية ؟ لقد خفتن وكرهتهن لادمانهن الذين جعلناهن كذلك . لست أدري . أنا اليوم أريد أن أزحف على ركبتي إلى هذه المرأة . أريدها أن تنظر إلى مرة واحدة ، وتقول لي إنني أعني شيئاً بالنسبة لها . أنا لا أعرف وضع كراسوس بالنسبة لها .. لكنني أستطيع أن أفهم ما تعنيه هي بالنسبة له . أستطيع أن أفهم ذلك جيداً . لكن ماذا يعنى هو بالنسبة لها فهو الرجل الذي حطم زوجها - الرجل الذي سحق سبارتاكوس ، كيف تستطيع هي أن تنظر إليه دون استمزاز وكرهية ؟

فأخى دلافيرس رأسه وقال .

— النساء يستطعن ذلك . ويستطيع كراسوس أن يرفع من

ثمها بغير تحديد ، وسيد هيثك ذلك .

- أوه . أنت مخطئ ، غاية الخطأ ، أيها الأحمق السمين ، أيها الأحمق السمين الغبي .

- لا تبدأ في ذلك من جديد يا جراكوس .

- إذن فلا تشكلم كالآبله . أريد المرأة ، وأنت تعرف ما هو

الثن .

- أنتي أنك ستدفع

- أجل .

فقال فلافيوس في حذر

- أنتعرف ماذا ستكون النتائج ؟ ليس بالنسبة لي . فأنا إذا

نجحت في تحقيق ما تريد ، سأخذ المال وأذهب إلى مصر ، وأشتري

بيتا ريفيا وعددا من الإماء في الإسكندرية وأعيش هناك كالمرزبان

بقية حياتي . أنا أمتطبع ذلك لكنك لا تستطيع يا جراكوس .

فأنت جراكوس ، وأنت عضو في مجلس الشيوخ ، وأنت أعظم

قوة في روما في هذه اللحظة . فأنت لا تستطيع الفرار . ماذا

ستفعل بها ؟

- أنا لا أفكر في ذلك الآن .

- لا ؟ أنت تعرف ما سيفعله كراسوس لم يهزم إنسان كراسوس قط ، ولم ينتزع إنسان من كراسوس شيئاً قط . هل تستطيع أن تحارب ذلك النوع من المال ؟ سيحطمك يا جراكوس حتى الموت . سيحطمك ويقتلك .

- فسأله جراكوس قائلاً في هدوء :

- أنظنه من الضخامة إلى هذا الحد ؟

- هل تريد الصدق ؟ المليونان أكثر مما حصلت به في يوم من الأيام ، لكن الحقيقة أنه كذلك ؛ فهو يستطيع وسيفعل .

فقال جراكوس :

- سأجرب حظي .

- وماذا ستجني بعد أن تجرب حظك ؟ مليونان مبلغ كبير . أستطيع أن أدفع منهما لإخراجها من بيت كراسوس ؛ ولإحضارها إليك ، ذلك ليس بالأمر العسير . ولكن من أدراك أنها لن تبصق في وجهك . وما الذي يمنعها ؟ لقد حطم كراسوس سيارتا كوس لكن من الذي دفع بكراسوس إلى ذلك ؟ من الذي تحايل على وضعه في ذلك المنصب ؟ من الذي أعطاه الجيش والمهمة ؟

فأخى جراكوس رأسه وقال :

- أنا .

- بالضبط . إذن ما الذي ستجنيه ؟

- أستطيع الاحتفاظ بها .

- وماذا تستطيع أن تقدم لها . ماذا ؟ لا يوجد إلا شيء .

واحد ترغب فيه كل أمة . أتستطيع أن تعطيه لها ؟

ما هو ؟

- فقال فلافيوس

- أوه . أنت تعرف ما هو . لماذا لا تواجه هذا الأمر ؟

فقال جراكوس في هدوء

- أتعني حربتها ؟

- وهي بعيدة عنك ، حربتها من غيرك ، وذلك يعني حربتها

خارج روما ، ذلك يعني حربتها بعيداً عن مناوئ كراسوس .

- أأظنها توافق على أن تهبني ليلة واحدة مقابل حربتها ؟

- ليلة واحدة من أي شيء ؟

- من الحب . لا ، ليس الحب . الشريف ، الاحترام ، الرعاية .
لا - ليس ذلك ، العرفان ، لتحديد الأمر على هذه الصورة ، ليلة
واحدة من العرفان بالجميل .

فقال فلافيوس :

- يالك من أحق .

فأحن جراكوس رأسه وقال

- وتزداد حماقتي إذ أجلس هنا وأدعك تقول ذلك . قد أكون
أحق وقد لا أكون ، سأجرب حظي مع كراسوس ، وستضطر
إلى إقناعها بأنني لا أحنث بوعدي أبدا ، فقد عشت على كلمتي .
وروما تعرف ذلك ، لكن هل تستطيع أن تقنعها بذلك ؟

فأحن فلافيوس رأسه موافقا

- ويجب أن تعمل الترتيبات اللازمة لخروجها من روما بعد
ذلك . هل تستطيع عمل ذلك ؟

فأحن فلافيوس رأسه موافقا مرة ثانية .

أين ؟

إلى بلاد الغال عبر الألب على الأقل . إذ ستكون في مأمن

هناك . لأن المواني ، والطرق المؤدية إلى الجنوب ستوضع تحت
المراقبة . أما إذا ذهبت شمالا إلى بلاد الغال فأظنها ستكون في
مأمن . وهي ألمانية ، وأظن أنها تستطيع الذهاب إلى ألمانيا إذا
أرادت .

— وكيف تستطيع إخراجها من بيت كراسوس ؟

— ليس ذلك بالمشكل . فهو يذهب إلى الريف ثلاثة أيام كل
أسبوع ، وقليل من المال ينفق بحكمة كغيبل بتحقيق ذلك .

— هذا إذا أرادت هي الذهاب فقط .

فأخني فلاقيوس رأسه موافقا . وقال

— فاهم .

وسترغب في إحضار الطفل فيما أظن ، لا مانع في ذلك ،
سأوفر للطفل الراحة والعناية هنا .

— جل .

-- وتريد المليونين مقدما ، أليس كذلك ؟

فقال فلاقيوس حزينا بعض الشيء :
www.alkottob.com

- أظن أنني سأضطر إلى أخذهما مقدما .

- تستطيع أن تأخذهما الآن . فالمال موجود هنا ، تستطيع أن تحصل على المبلغ كله نقدا ، أو تستطيع أن تسحب من عملائي أصحاب المصارف في الإسكندرية .

فقال فلافيوس :

- سأأخذه نقدا .

أجل . أظنك على صواب . لاتخذ عني يا فلافيوس لأنني سأجرك إذا فعلت :

- اللعنة يا جراكوس . إن كنتي لا تقل قيمة عن كلبتك .

- حسن جدا .

- كل ما في الأمر أنني لا أعرف لماذا تفعل ذلك . لا أعرف لماذا تفعل ذلك بحق كل الآلهة التي عاشت يوما ، وإذا ظننت أن كراسوس سيتناقى الأمر في سكون ، فأنت لا تعرف كراسوس .

- أما أعرف كراسوس .

- إذن ، فليساعدك الله يا جراكوس ، كم وددت ألا أحس

مثل هذا الشعور ، ولكن هذا هو ما أحسه .

حلمت فارينيا هذا الحلم . حلمت أنها تواجه مجلس تحقيق من أعضاء مجلس الشيوخ الموقر . جلس الرجال الذين يحكمون العالم هناك . جلسوا في مقاعدهم الكبيرة يرتدون عباةاتهم البيضاء ولكل واحد منهم وجه كوجه كراسوس ، طويل ووسيم وصارم ، وكل شيء يحيط بهم ، طريقتهم في الجلوس ، وانحناءاتهم إلى الأمام ، وذقونهم تستند إلى أيديهم ، والتعبير المرتسم على وجوههم كشيء منذر ، وثقتهم بأنفسهم ، وتأكيدهم لوجودهم . كان كل ما يحيط بهم يزيد من مظهر القوة . كانوا يمثلون القوة والسلطان ، ولم يكن في استطاعة أي شيء في الدنيا أن يقف في وجههم . جلسوا في مقاعدهم الحجرية البيضاء في قاعة مجلس الشيوخ الكبيرة ذات القباء ، فكانت مجرد رؤيتهم شيئا يبعث على الفرع الكبير .

حلمت فارينيا أنها تقف أمامهم ، وأنها مطالبة بالشهادة ضد سبارتا كوس . وكانت تقف أمامهم في رداء من القطن الخالص ، وهي تشعر شعورا موقلما حارا ، بأن اللين يلوث الرداء . وبدءوا بوجهون إليها الأسئلة .

- من كان سبارتا كوس ؟

وبدأت تجيب عن السؤال ، لكنها قبل أن تفرغ جاء السؤال

التالى :

- لماذا حاول أن يدمر روما ؟

وحاولت أن تجيب من جديد ، لكن السؤال التالى جاء مرة

ثانية :

- لماذا قتل كل من وقع بين يديه ؟ ألم يكن يعلم أن قانوننا يحرم

القتل ؟

حاولت أن تنفى ذلك ، لكن السؤال التالى جاء قبل أن تخرج

كلمتان من إنكارها من بين شفرتها .

- لماذا كان يكره كل ما هو طيب . ويحب كل ما هو شرير ؟

وحاولت مرة ثانية أن تتكلم ، لكن واحدا من أعضاء

المجلس نهض وأشار إلى صدرها ، وسألها قائلا :

- ما هذا ؟

- ابن

ارتسم الغضب عند ذلك على كل وجه ، غضب رهيب فازداد

ذعرها أكثر من أي وقت مضى . ثم انفثاً خوفها في حياها بلا سبب
تستطيع أن تفهمه . وقالت لنفسها في الحلم :

- حدث ذلك لا لشيء ، إلا لأن سيارتا كوس معي .

وأدارت رأسها عند ذلك ، فتحقق ظننا ، إذ وجدته يقف إلى
جوارها . وكان يرتدى ما كان يرتديه في عالية الأوقات في أثناء
كفاحهم . كان يرتدى أحذية جلدية طويلة الرقبة ، وثوباً رمادياً
بسيطاً ، وقبعة صغيرة من الفلين تجثم على شعره الأسود الجعد .
ولم يكن يحمل سلاحاً ، فقد كان دائم التدقيق في ألا يحمل أحد
سلاحاً إلا عند مواجهة المعركة . ولم يكن يرتدي أي حلي أو خواتم
أو عقود ، وكان وجهه حليقاً بعناية وشعره الجعد قصيراً .

وكان في وقفته الكثير من اليسر والثقة بالنفس ، ونذكرت
في حياها أن وقفته كانت كذلك على الدوام . فقد ينضم سيارتا كوس
إلى جماعة فينفذ هذا الشعور باليسر إلى كل شخص من الموجودين ،
لكن رد الفعل كان يختلف بالنسبة لها ، فقد كانت تشعر بالسرور
دائماً عندما تراه . وكانت تحس أنها كالحلقة المكسورة ، فما إن
يظهر حتى تقفل الحلقة نفسها ، وتصبح سليمة كاملة . كانت في
فسطاطه يوماً ، وكان في الفسطاط خمسون شخصاً على الأقل في
انتظار سيارتا كوس . وجاء في النهاية ، فانتحيت هي جانباً لتركة

يتعامل مع الناس الذين كانوا في انتظاره . واكتفت هي بمراقبته ؛
لكن سعادتها زادت وزادت ، وأصبحت كل كلمة يقولها ، وكل
حركة يعماها جزءا من تدرج سعادتها تلك . ووصلت إلى حد لم تعد
تتحمل عنده المزيد ، فاضطرت إلى الخروج من الفسطاط ، لتجد
مكانا تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسها .

وأحست عند ذلك في قلبها ، شيئا من ذلك الشعور . وسألها
هو قائلا :

- ماذا تفعلين هنا يا عزيزتي ؟

- إنهم يستجوبونني .

- من ؟

فأشارت إلى أعضاء مجلس الشيوخ النبلاء وقالت :

- هؤلاء . إنهم يعيشون في الخوف .

ولحظت حينذاك أن أعضاء المجلس لا يتحركون أدنى حركة
كما لو كانوا قد تجمدوا .

وقال سيارتا كوس :

- لكنهم كما ترون أكثر منك خوفا .

وكان ذلك القول يطابق شخصيته تمام المطابقة ، فهو يرى الشيء
ويقرره في بساطة ، وبطريقة مباشرة . فتبدأ هي دائما في التساؤل ،
لماذا لم تر هي الأخرى نفس الشيء ؟ الواقع أنهم كانوا خائفين .

وابتسم سبارتا كوس وقال :

— لنذهب يا فارينيا .

وأحاط خصرها بذراعها ، وأحاطت خصمه بذراعها وخرجا
معا من قاعة مجلس الشيوخ إلى شوارع روما . كانا محبين ، فشيا
معا . ومشيا في شوارع روما ولم يلحظهما إنسان ، ولم يوافقهما
أحد .

وواصلتا السير فترة أخرى ، ثم قال سبارتا كوس :

— يجب أن أذهب إلى مكان ما ، يجب أن نذهب إلى مكان ما

معا .

فقلت قارينيا في الحلم .

— أنا أعرف مكانا نذهب إليه .

— أين ؟

هو بيت رجل يدعى كراسوس ، فأنا أعيش هناك .

فتوقف عن السير ، وسحب ذراعها بعيدا ، وأدارها لتواجهه

وهو يفتش في عينها . وفي تلك اللحظة ، لاحظ أثر اللبن على
ردائها . فقال يسألها ، وقد نسي فيها يبدو ما قالته عن كراسوس .

- ما هذا ؟

- اللبن الذي أرضع به طفلي .

فقال :

- أنا لم أرزق طفلا .

وبدا عابه الخوف فجأة ، وتراجع مبتعدا عنها . ثم اختفى .
وانتهى الحلم .

واستبقت فارينيا فلم تجد شيئا إلا الظلام المحيط بها .

ذهب كراسوس في اليوم التالي إلى الريف ، وعندما جاء
المساء ، أحضر فلاقيوس نارينيا لجراسوس ، وهو العمل الذي اتفق
على القيام به . جاء وكراسوس يجلس إلى عشاءه وحيداً . وجاءت أمة
إلى جراسوس ، وأنها إليه أن بالخارج شخصين ، فلاقيوس
وامرأة . وأن المرأة تحمل بين ذراعها طفلاً .

فقال جراسوس :

— أجل . أجل . أنا أعرف . هناك مكان معد للطفل . أدخلها

ثم قال

— لا . لا . سأقوم بذلك بنفسى

وجرى تقريباً ، من غرفة الطعام إلى الباب الخارجى . وأدخلها
إلى البيت بنفسه . وكان جم الأدب ، كثير التقدير ، ورحب بهما
كما يرحب المرء بأضياف عظيمى الشأن .

كانت المرأة تلتف في عيادة طويلة ، ولم يستطع أن يتبين
وجهها بوضوح في المدخل المعتم . لكنه الآن ينتظر حتى يتعالج

إليها . وقادها إلى الداخل ، وقال للمرأة إنها تستطيع أن تعطيه
الطفل . أو أن تأخذه بنفسها إلى غرفة الحضانه . وكان الطفل نائماً
بين ذراعها ، وخشى جراكوس أن يقول شيئاً أو يشير إلى شيء
قد يخلق في نفسها نوعاً من التوجس بشأن الطفل .

وقال :

— عندي حضانه منظمه له وعندى مهد صغير ، وكل ما قد
تريدين . وسيجد الراحة الكامله ، وسيكون في مأمن ، ولا يمكن
لشيء على الإطلاق أن يصيبه .

فأجابت فارينيا قائلة :

— إنه لا يحتاج إلى الكثير .

وكانت تلك أول مرة يسمع فيها جراكوس صوتها . كان صوتها
ناعماً ، لكنه غنى وعميق ، صوت يبعث البهجة في نفس السامع .
ثم ألقت بالجزء الخاص بالرأس من عباءتها إلى الوراء ، فرأى
وجهها . وكان شعرها الأصفر الطويل ، معقوصاً في مؤخرة عنقها ،
ولم يكن وجهها يحمل أى طلاء . والغريب في ذلك حقاً ، أنه جعل
خطوط وحدود وجهها الجميلة أكثر لفتاً للنظر ، وأكثر جمالاً .

(م - ٢٠ سبار تاكوس)

وبينما كان جراكوس ينظر إليها ، راح فلافيوس يراقب
جراكوس إذ انتحى فلافيوس جانباً ، وهو يادى الاهتمام ،
مكتئباً ، ومتحيراً في نفس الوقت . وكان غير مرتاح هناك ، وما
إن استطاع أن يجد لكلماته منفذاً ، حتى قال :

— يجب أن أعد بقية الترتيبات الآن يا جراكوس . سأعود
في الفجر ، وأمل أن تكون مستعداً لي عندذاك .

فأخى جراكوس رأسه موافقاً وقال

— سأكون مستعداً .

عند ذلك خرج فلافيوس ، وقادها جراكوس إلى الغرفة التي
كان قد أعدها للطفل . وكانت تجلس فيها أمة ، وأشار جراكوس
برأسه إلى المرأة وقال مفسراً :

— ستجلس هنا طوال الليل . ولن تنزع عينها عن الطفل لحظة
واحدة . وبذلك لا تضطري إلى الخوف من أن يعيب طفلك شيء .
وإذا بكى الطفل ، ستناديك في الحال ، فلا حاجة بك إلى التلق
على الإطلاق .

فقالت قاربنا

- سينام الطفل ، أنت طيب القلب إلى حد كبير . لكن
الطفل سينام .

- لكنك لن تضطري إلى الإصغاء إلى بكاء الطفل . إذ ما
إن يبك ، حتى تناديه . هل أنت جائعة ؟ هل أكلت ؟
فأجابته فارينيا بعد أن أرقدت الطفل في المهد قائلة :

- لم أكل لكني لست جائعة . فأنا نائرة الأعصاب إلى حد
لم يبق لي معه أية شهية . أحس كأنني في حلم . كنت أول الأمر
خائفة من الثقة بالرجل الآخر ، لكنني أصدق الآن . لست أدرى
لماذا تضطر إلى الإقدام على هذا من أجل . أخشى أن أكون في
حلم أستيقظ منه في أية لحظة .

- لكنك ستجلسين معي بينما أفرغ من عشائي . وربما زغبت
في تناول شيء كذلك .

- أجل . سأفعل ذلك .

ورجعا إلى قاعة الطعام ، وجلست فارينيا على الأريكة في
زاوية قائمة على الجانب الذي جلس عليه جراكوس ولم يستطع
هو أن يسترخي في جلسته ، إنما جلس هناك متصليا بعض الشيء ،
غير قادر على انتزاع عينيه من فارينيا . ودلر يدهنه في قليل من

الدهشة . إنه لا يحسن انزعاجا في أى صورة من الصور ، ولا يتوجس خيفة من شيء ، وإنما يميل إلى الامتلاء بسعادة أكبر من أية سعادة عرفها في حياته من قبل . كان يشعر بالرضا ، ولم يكن في حياته كلها من قبل ، قد أحس بمثل هذا الشعور من الرضا قط . وبداله أن كل شيء على ما يرام في الدنيا ، وأن انعدام التجانس المؤلم في الدنيا قد اختفى . إذ كان يحس أنه يجلس مطمئنا في بيته ، في مدينته المباركة ، في مدينته روما الرائعة . وامتلا بحب عظيم دافق لتلك المرأة التي كانت تجلس قبالة . لم يحاول عند ذلك أن يتبع العقدة التي ركزت الحب الوحيد في وجوده كله في زوجة سبارتا كوسر ، وظن أنه فهم السر في ذلك ، ولكنه لم يحس رغبة في التفديش في نفسه ووضع يده عليه .

وبدأ يتكلم عن الطعام فقال :

- أخشى أن تجدى الطعام أميل إلى البساطة بالمقارنة إلى المائدة التي ينصبها كراسوس . فأنا أكل الفاكهة واللحم البسيط ، والسك في غالبية الأحوال ، وأتناول أحيانا صنفاً خاصا . وعندى الليلة سرطان البحر المحشو ، وهو طيب جداً ، ونبيذ أبيض أشربه بحففا بقليل من الماء .

ولم تسكن هي مصغية إليه ، فقال في نفاذ بصيرة غير عادية

— أنت في الحقيقة لا تفهمين متى تتكلم نحن الرومانيين عن

الطعام .

فأمنت على رأيه قائلة :

— هذا صحيح .

— أستطيع أن أدرك السر في ذلك . فمن لا تتحدث قط
عن مدى فراغ حياتنا . ذلك لأننا ننفق الكثير من الوقت في ملء
حياتنا ، فجعلنا من كل تصرفات البرابرة الطبيعية ، وهي الطعام
والشراب والحب والضحك - جعلنا من كل هذه الأشياء طقوسا
كبيرة وصنما . لم نعد نحس بالجوع قط . نتحدث عن الجوع ، لكننا
لا نجربه أبدا ، ونتحدث عن العطش ، لكننا لا نحس العطش
مطلقا ، ونتحدث عن الحب ، لكننا لا نحب . ونحاول أن نجد
بديلا لكل هذا بما ندخله من تجديدات وبألوان الضلال التي لا
تنتهى . لقد احتلت التسلية بالنسبة لنا محل السعادة ، وعندما تفقد
كل تسلية طعمها ، يجب أن نجد شيئا آخر أكثر تسلية وأكثر
إثارة - أكثر وأكثر وأكثر ، وزدنا من قساوة نفوسنا ، إلى حد
أننا لم نعد نحس بما نعمل ، وعدم الإحساس هذا ينمو ويتضخم ،
أتفهمين ما أقول ؟

فأجابته فارينيا قائلة :

— أنهم بعضاً منه .

— وأنا يجب أن أنهك بأقارنينا . يجب أن أنهم لماذا تخافين أن يكون هذا مجرد حلم . فكري اسوس كثير التقدير والحب لك . وأظنه قد يقدم حتى على الزواج منك ، إذا رغبت في ذلك . وكرا سوس رجل عظيم . بل إنه واحد من أعظم الرجال في روما وسلطانه ونفوذه لا يصدقان . أتعرقين ما هو الفرعون المصرى ؟

— أجل أعرف .

— حسن ، كرا سوس في هذه اللحظة ، له من السلطان أكثر مما للفرعون المصرى . وفي وسعك أن تصبحي أعظم من ملكة مصر . الا يحمل إليك هذا بعضاً من السعادة ؟

— مع الرجل الذى قتل سبارتاكوس ؟

— آه . لكن فكرى . هو لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه . فهو لم يعرف سبارتاكوس ، ولم يحمل له أية كراهية شخصية . فأنا مجرم بنفس القدر . روما هي التي حطمت سبارتاكوس . لكن سبارتاكوس قد مات ، وأنت على قيد الحياة . ألا تريدن ما يستطيع كرا سوس أن يعطيه لك ؟

فأجابت قارينيا قائلة

- لا أريده :

- ماذا تريد من يا عزيزتي قارينيا ؟

فقالت :

- أريد أن أصبح حرة ، أريد أن أرحل عن روما ، ولا أرى روما مرة ثانية طول حياتي . أريد أن أرى ابني ينشأ في ظل الحرية .

فسألها جراكوس قائلاً وهو في حيرة ذهنية حقيقية .

وهل حرية المرء ثمينة إلى هذا الحد ؟ حرية من أجل أى شيء ؟ حرية من أجل الموت جوعاً ؟ حرية كي يذبح المرء ؟ وكى يصبح شريداً بلا مأوى ؟ - حرية ليعمل المرء فى الحقول كما يعمل الفلاح ؟

فقالت قارينيا :

- لا أستطيع أن أحدثك عن ذلك . حاولت أن أحدثك كراسوس لكننى لم أعرف كيف أحدثته . ولا أعرف كيف أحدثك أنت

- وأنت تكرهين روما وأنا أحب روما يا قارينيا، روما هي
دمائي وحياتي؛ أمي وأبي. وروما عاهرة، لكنني أموت لو اضطرت
إلى ترك روما، وأنا أحس هذا الآن، وعلى بالشعور بمدى أنني لأنك
تجلسين أمامي هناك، لكنك تكرهينها. وأنا أتساءل عن السبب.
هل كان سبارتا كوس يكره روما؟

- كان ضد روما، وكانت روما ضده. أنت تعرف ذلك.

- لكن لو أنه حطم روما، ماذا كان ليقيم بدلا من روما.

- كان يريد عالما لا عبيد فيه ولا سادة، إنما ناس يعيشون
معا في سلام وأخوة. قال إنه سيأخذ من روما ما هو طيب وجميل
وأنه سيشيد مدنا بلا أسوار، وأن كل الناس ستعيش في سلام
وأخوة، وأنه لن تعود هناك حروب بعد ذلك، ولن تبقى تعاسة
ولا آلام.

ظل جرا كوس صامتا فترة طويلة حينذاك، راحت قارينيا
ترقبه خلالها في حب استطلاع وبلا خوف. فقد كان بالرغم من
مظهره الخارجي الضخم، وبالرغم من جسده الضخم السمين كان
رجلا رغبت في أن تثق فيه، ومغاير الكل رجل عرفته من قبل.
كما كانت فيه أمانة غريبة معكوسة إلى الداخل، وكانت فيه صفة
ذكرتها بطريقة ما بسبارتا كوس، لم تكن شيئا تستطيع أن تضع

يدها عليه ، إذ لم تكن شيئاً جثامياً - بل ولا حتى أحد أساليب
السلوك . إنما كانت ، بصورة أكبر ، هي طريقته في التفكير .
وكان في بعض الأحيان - بعض الأحيان فقط - يقول شيئاً
كما كان سبارتا كوس يقوله .

ظل صامتاً فترة طويلة قبل أن يتكلم من جديد . ثم علق عند
ذاك على ما قالته من قبل ، كما لو لم تكن قد انقضت لحظة
واحدة . قال :

- إذن فقد كان ذلك هو حلم سبارتا كوس ، أن يقيم عالماً
بلا سباط ولا أحد فيه يجلد - لا قصور فيه ولا أكواخ من
الطين ؟ من يدري ؟ ما ذا أسميت ابنك يا قارينيا ؟

-- سبارتا كوس . وأى اسم غير هذا يجب أن أسميه ؟

-- سبارتا كوس ، أجل . طبعاً ، وسيشب ليصبح طويل القامة
قويًا ، فيه كبرياء . وهل ستحدثينه عن أبيه ؟

- نعم ، سأحدثه عنه .

- وكيف ستحدثه له ؟ كيف ستشرحين ؟ إنه سيشتد في عالم

ليس فيه رجال مثل سبارتا كوس . كيف ستشرحين له ما جعل
أباه نقياً ورقيقاً ؟

فسألته قارينيا قائلة .

— وكيف عرفت أن سبارتا كوس كان نقياً ورقيقاً ؟

فتساءل جراً كوس قائلاً :

— وهل من العسير معرفة ذلك ؟

— إنه عسير بالنسبة لبعض الناس . هل تعرف ما سأقوله

لايني ؟

أظنك ستفهمني . سأقول له شيئاً غاية في البساطة . سأشرح له
أن سبارتا كوس كان نقياً ، وكان رقيقاً لأنه وضع وجهه ضد الشر
وعارض الشر ، وحارب الشر — ولم يهادن أبداً طينة حياته كل
ما كان خطأ .

— وهذا ما جعله نقياً ؟

فقالت قارينيا :

- لست بالغة الحكمة ، لكنى أظن أن ذلك يجعل أى رجل نقياً
فسألها جراً كوس قائلاً :

- وكيف تسنى لسبارتا كوس أن يميز بين ماهو صواب وماهو
خطأ ؟ .

- كل ماكان فيه خيرلقومه فهو صواب، وماكان يؤذيهم فهو
شر .

فأخنى جراً كوس رأسه موافقا وقال :

الآن أستطيع أن أرى جلم سبارتا كوس وطريقة سبارتا كوس
فى الحياة . لقد تقدمت بى السن كثيرا بالنسبة للأحلام يا قارينيا
وإلا لا كثرت من الأحلام حول ما فعلته بالحياة الواحدة التى
توهب للرجل ليحيها حياة واحدة . وتبدو شديدة القصر بلامعنى
وبلاهدف . تمر كاللحظة الخاطفة . يولد الرجل ومايلبث أن يموت
دون منطق أو وزن . وهأنذا أجلس هنا بجسدى هذا السمين
الضخم القبيح . هل كان سبارتا كوس وسيا شديدا الجمال ؟

فابتسمت لأول مرة منذ دخلت إلى بيته ، ابتسمت ثم بدأت
تضحك . ثم استحال الضحك دموعا ووضعت وجهها على المنضدة
وبكت .

— فارينيا ، فارينيا . ماذا قلت أنا ؟

— لا شيء .

ثم اعتدت في جلستها ، وجففت وجهها بالمنشفة . وقالت :

— لا شيء . قلته أنت . لقد أحببت مبارتا كوس إلى حد كبير .
لم يكن مثلكم معشر الرومانيين ، ولم يكن مثل رجال قبيلتي كذلك .
كان تراقيا ، له وجه عريض مسطح . وحدث ذات يوم أن انكسر
أنفه ، بينما كان أحد الملاحظين يضربه . وقال الناس إن ذلك
أكسب وجهه شيئا بالغم ، لكنه كان كاملا بالنسبة لي . هذا
كل ما في الأمر .

كانت الجواجز التي تفصل بينهما قد ذابت . وانحنى جرا كوس
إلى الأمام وأمسك بيدها . لم يكن قد شعر يوماً طيلة حياته بمثل هذا
القرب من امرأة ، وبمثل هذه الثقة في امرأة . وقال :

— يا عزيزتي ، يا عزيزتي ، هل تعرفين ما قلته لنفسي ؟ قلت
لنفسي أول الأمر ، إنني أريد منك ليلة من الحب . ثم رفضت أنا
نفسى ذلك . ثم رغبت في ليلة من التبجيل والاحترام ، وهذا رفضته
كذلك . ثم أصبح كل ما أريده هو الشكر و عرفان الجميل . لكن
هناك ما هو أكثر من عرفان الجميل . أليس كذلك يا فارينيا ؟

فقلت في صراحة

— نعم . هو كذلك .

وأدرك عند ذاك أنها خلو من النفاق والتصنع ، إذ كانت
لا تعرف إلا أن تجاهر بها في ذهنها كاملاً ، فرفع يدها إلى فمها وقبلها ،
فلم تسحبها هي منه . وقال :

— أريد هذا . أمامي من الآن حتى طلوع النهار . هل تجلسين
معي وتحدثين إلي ، وتشرين قليلاً من النيذ ، وتأكلين بعضاً
من الطعام ؟ عندي الكثير الذي يجب أن أقوله لك ، والكثير
الذي يجب أن أسمع منك . هل تجلسين معي حتى طلوع النهار .
وعند ذاك سيأتي فلافيوس ومعه الجياد ، وتغادرين روما إلى الأبد ؟
هل تفعلين هذا من أجلي يا قارينا ؟

فقلت :

— ومن أجل نفسي كذلك . فأنا أريد أن أفعل ذلك .

— لن أحاول أن أشكرك ، لأنه لا توجد طريقة أعرف
بها كيف أشكرك .

فقلت قارياً :

— ليس هناك ما تشكرني عليه . فأنت تبعث في من السعادة
قدراً لم أكن أظن أني سأبلغه مرة ثانية في يوم من الأيام . لم أكن
أظن قط أني سأستطيع الابتسام من جديد بعد موت سبارتا كوس .
ظننت أن الحياة ستظل كالصحراء أبداً ، ولو أنه اعتاد أن يقول
لي إن الحياة تفوق في أهميتها كل ما عداها من الأشياء ، ولم أعرف
يوماً ما كان يعنيه ، قدر ما عرفت الآن . أريد الآن أن أضحك .
ولست بمقدرة على فهم السبب في ذلك ، لكنني أريد أن أضحك .

عندما عاد فلافيوس ، كانت الساعة التي تسبق الفجر قد حانت ، الساعة الرمادية الموحشة ، عندما تكون الحياة في جزرها ؛ وتصل الأشياء إلى منتهائها قبل أن تبدأ من جديد . وأدخلته مدبرة البيت دون أن تقول شيئاً إلى جيراكوس وفارينيا . وكان جيراكوس ممدداً في مقعد متعباً ، شاحب الوجه ، وإن كان لا يبدو عليه التعب . أما فارينيا فكانت تجلس على أريكة ترضع طفلها . وكان التعب بادياً عليها هي الأخرى ، لكنها كانت رائعة الجمال في جلستها هناك ترضع الطفل السمين المتورد . وعندما رأى جيراكوس فلافيوس ، وضع أصبعه على فمه ، فانتظر فلافيوس في هدوء . ولم تكن له حيلة في أن يأسره الإعجاب بجمال المرأة . فقد كانت تبدو في جلستها هناك تحت ضوء المصباح ترضع طفلها ، كأنها شيء منزع من ذاكرة روما عن الزمان القديم ، القديم جداً .

وعندما انتهت من إرضاع طفلها ، غطت صدرها ، ولفت الطفل النائم في دثار من الصوف . ونهض جيراكوس ووقف قبالتها ، وظلت هي معلقة أبصارها به لحظة طويلة .

وقال لهما فلافيوس :

- لقد قررت استخدام المركبات . فهذه الطريقة نستطيع أن نكسب أكبر وقت ممكن ، وتصبح المسألة عدد الأميال التي نقطعها سواء كنا سننجح في الوصول أم لا . ولقد ولدت إحدى المركبات بالأغطية والحشيات كي تنالين أكبر قسط من الراحة . لكن يجب أن نرحل في الحال . فنحن بهذا الوضع قد تأخرنا ، تأخرنا إلى حد كبير .

ولم يبد عليهما أنهما يسمعا ، فقد كانت عينا كل منهما متشبثة بالآخر ، زوجة سبارتا كوس الجميلة ، والسباسبى الرومانى السمين المتقدم فى السن . ثم استدارت فارينيا إلى مدبرة البيت وقالت لها :

- هل تحملين الطفل عنى لحظة ؟

فأخذت مدبرة البيت الطفل ، وذهبت فارينيا إلى جرا كوس وربتت على ذراعيه ، ثم مدت قامتها ومست وجهه ، فانحنى لها فقبلته :

وقالت له

- الآن يجب أن أقول لك هذا ، أنا أشكرك لأنك كنت بالغ الطيبة معى . إذا جئت معى ، سأحاول أن أكون طيبة معك أنا الأخرى ، كأطيب ما يمكن أن أكونه مع أى رجل .

— شكراً لك يا عزيزتى .

— هل تأتى معى يا جراً كوس ؟

— أوه ، شكرأ لك يا عزيزتى ، وليباركك الله . أنا أحبك إلى حد كبير ، لكنى سأكون عديم النفع بعيداً عن روما . فروما أمى ، وأمى عاهرة ، لكنها . فيما عدك ، المرأة الوحيدة التى أحببتها يوماً . ولست عديم الإخلاص . ثم أنا رجل عجوز سمين ، وسيضطر فلاقيوس هذا إلى أن يفتش المدينة ليجد مركبة تحملنى . اذهبى أنت يا عزيزتى .

تقال فلاقيوس وقد نفذ صبره

— قلت لكما إننا قد أضعنا كثيراً من الوقت . حسون شخصاً يعرفون بهذا الأمر فى هذه اللحظة . أتظن أنه لن يترثر واحد منهم ؟

فقال جراً كوس :

— إرعتها جيداً . فستصبح الآن رجلاً عنياً يا فلاقيوس .
وسنعيش بعد اليوم فى راحة . فافعل هذا الشئ الأخير من أجلى .
إرعتهاهى والطفل رعاية طيبة ، رافقهما كل الطريق شمالاً حتى تصل إلى التلال التى تقوم عند أقدام جبال الألب . والفلاحون الغالبون
(م ٢١ - يارنا كوس)

الذين يعيشون هناك في الأودية الصغيرة ، قوم طيبون ، بسطاء ،
مجدون وسجدوا لنفسها مكاناً بينهم . لكن لا تركها حتى تستطيع
رؤية جبال الألب - واضحة على السماء . وأسرع . اهو بالسياط
على الجباد . اقلهم إذا لزم الأمر ، واشتر جيداً جديدة ، لكن
لا تتوقف أبداً . هل تفعل هذا من أجل يا فلافوس ؟

- هل أخللت بوعد قطعته لك بهد ؟

- لا ، لم تفعل . فليبرعكم الله .

وذهب معهم حتى الباب ، وحملت هي الطفل بين ذراعيها .
ووقف في الباب الخارجى ، في الفجر الرمادى الذى أخذ الضوء .
يشوبه ، وراقبهم وهم يصعدون إلى المركبات ، وكانت الجباد
ناثرة الأعصاب ، نشبطة ، راحت تفرع الرصيف بأقدامها وتلوك
أجنتها .

وصاح مخاطبها قائلاً :

- ليردك الله يا قارينيا .

فلوحت له بيدها ، ثم انطلقت المركبات تفرقع في الشوارع
الضيقة المقفرة ، موقظة الجيرة بأسرها بدويها وضجيجها .

عند ذلك عاد جراكوس إلى مكتبه. وجلس في مقعده الكبير وقد استبد به التعب في تلك اللحظة، وأغمض عينيه برهة. لكنه لم يتم فقد كان رضاؤه باقيا لم يزل. وأغمض عينيه، وترك أفكاره تسرح، وفكر في أشياء كثيرة. ففكر في أبيه. كان حذوا فقيرا في ذلك الزمن الذي كان من الواضح أنه انقضى إلى الأبد، أيام أن كان الرومانيون يكفون ويفخرون بكمهم. وتذكر تدريبه السياسي في الشوارع، والحروب الدموية التي كانت العصابات تشنها، والتدريب على بيع وشراء الأصوات بما في ذلك من سخرية شريرة، واستغلال الدهماء، وتسليقه سلم السلطان والقوة. بهم لا يشبع إلى السلطان، وبهم لا يشبع للمال. في تلك الأيام، كان مازال هناك الرومانيون الأتباء الذين حاربوا في سبيل الجمهورية، والذين حاربوا من أجل حقوق الشعب، والذين تكلموا بشجاعة في الساحة العامة عما في انتزاع أراضي الفلاح وإقامة مزارع العبيد الشاسعة من ظلم. كانوا يحذرون. وكانوا يهدرون كالرعد، وكانوا يقفون أمام الطغيان وجهها لوجه. وكان جراكوس يفهمهم، ويقر بعدالة قضيتهم. لكنه كان يعرف كذلك، أن قضيتهم قضية محترمة الخسران. فليس من الممكن إرجاع عقارب ساعة التاريخ إلى الوراء، لأن الزمن يتقدم إلى الأمام. فانضم إلى أوائك الذين كانوا يضعون ثقتهم في الإمبراطورية. وبعث بعصاباته لتحطم

أولئك الذين كانوا يتحدثون عن الحريات القديمة . وذهب
الغادلين ونوي الميادي .

فكر في ذلك في تلك اللحظة ، لأسفا أورتاه ، إنما رغبة في
الفهم . كان أعداؤه القدامى هؤلاء يحاربون في سبيل حريات
قديمة . لكن ، هل كانت هناك حريات قديمة ؟ كانت هنا امرأة
خرجت من بيته . والحريه تشتعل بداخلها كالنار ، وقد أسمت
ابنها سبارتا كوس ، وسيسمى هو ابنه سبارتا كوس . ومتى يرضى
العبيد بالبقاء عبيدا ؟ لم يجد إجابة لنفسه عن أسئلته ، ولم يستطع أن
يوجد لنفسه حلا . ولم يبعث ذلك أيضاً الأسف إلى نفسه ، فقد
عاش حياة حافلة لا بأسف عليها . وكان فيه إحساس بالتاريخ
حينذاك ، إحساس بسرعة مرور الوقت الذي لا يعدو أن يكون
هو مجرد لحظة فيه ، وبعث ذلك بالراحة إلى نفسه . ستدوم مدينته
الحبيبة . ستدوم إلى الأبد . ولو أن سبارتا كوس عاد يوماً وحطم
أسوارها حتى يعيش البشر في مأمن من الخوف ، فسيدركون أن
رجالا مثل جراكوس قد عاشوا يوماً ، رجالا أحبوا المدينة على
الرغم من أنهم قبلوا ما فيها من شر .

وانتقل إلى التفكير في حلم سبارتا كوس . هل يعيش ذلك
الحلم ؟ هل يدوم ؟ هل كان الشيء الغريب الذي قالته فارسياس صحيحاً .

إن قوس وسع البشر أن يصبحوا أتقيا . خلاصاء بمحاربة الشر ؟ إنه لم يعرف قط مثل هؤلاء الرجال ، لكنه لم يعرف سبارتا كوس قط .
لكنه قد عرف قارينيا . وسبارتا كوس قد ذهب ، وقارينيا قد ذهبت . لقد أصبح ذلك كالحلم عند ذلك . وهو لم يلبس إلا طرف المعرفة الغربية التي تمثلها قارينيا ، لكن تلك المعرفة لم يكن لها وجود بالنسبة له ، ولا تستطيع أن توجد .

ودخلت مدبرة منزله ، فنطلع إليها في استغراب ، وسألها في

برقة قائلاً

— ماذا تريد من أيتها العجوز ؟

— حمامك جاهز يا سيدي .

فقال بفسر لها

— لكنني لن أستحم اليوم .

وأدهشه ما بدا عليها من دهشة وحيرة . ومضى يقول

— كل شيء قد تغير اليوم يا عجوز . انظري . هناك ، على تلك

المنضدة ، تجد من صفا من الحقائق ، في كل حقيقة توجد شهادة

عنتق لكل واحدة من عبيدي ، وفي كل حقيبة ، يوجد عشرون
ألف قطعة ذهبية . أريدك أن تعطى الحقايب للعبيد ، وتطلي منهم
مغادرة بيتي . أريدك أن تفعل هذا الآن يا عجوز .

فقال

- أنا لا أفهمك .

-- لا ؟ لماذا لا تفهميني ؟ ما قلته واضح تماما . أريد منكم أن
تذهبن جميعا . أتبن حرائر وممكن قدر من المال ، هل سمحت لك
يوما من قبل بعصيان أو امرى ؟

- لكن من سيظهر لك طعامك ؟ من سيعنى بك ؟

-- لا تسأليني كل هذه الأسئلة يا عجوز . افعل ما أقول .

وخال جراكوس الوقت الذي سبق خروجهم جميعا من البيت
دهرا ، ثم ران على البيت سكون غريب ، سكون جديد ، وكانت
شمس الصباح ترتفع ، وامتلات الشوارع بالحياة والأصوات
والضجيج ، لكن بيت جراكوس كان ساكنا صامتا .

وعاد إلى مكتبه ، وذهب إلى خزانة وفتحها وأخرج منها سيفا ،
سيفا أسبانيا قصيرا من النوع الذي يحمله الجنود ، لكنه جميل الطرق

وله غمد مزخرف رائع . كان السيف قد أعطى له منذ سنين وسنين
مضت بمناسبة احتفال ما ، لكنه لم يستطع ، على الرغم مما بذل من
جهد ، أن يتذكر أية مناسبة كانت . غريب أن يحمل مثل هذا
الاحتقار للأسلحة ، لكن ذلك لم يبد غريبا للغاية ، عندما تذكر
أن السلاح الوحيد الذي اعتمد عليه طيلة حياته كان مواهبه
الخاصة .

وأخرج السيف من غمده وتحسس حافته وطرفه المديب .
كان ماضيا شديدا للماضي . ثم عاد إلى مقعده وجلس وراح يتأمل
كرشه الضخم ، وبدأ يتنم لفكرة قتله لنفسه . لم يكن في ذلك
أى كرامة ، بل كان أمرا سخيفا كل السخافة ، وشك جديبا في أن
يجد من نفسه القوة على إغهاد السيف في - بالطريقة الرومانية الشريفة .
أنى له أن يعرف أنه لن يطعن أكثر من الشحم ، ثم يفقد السيطرة
على أعصابه ويرقد متخبطا في دمايته يعوى ويصبح طلبا للموت .
باله من وقت في حياة رجل يبدأ فيه القتل . إنه لم يقتل شيئا واحدا
طيلة حياته ، حتى ولا فرخا من أفراخ الدجاج .

ثم أدرك أن الأمر ليس مسألة أعصاب . فهو لم يخف من
الموت إلا لما . وكان منذ طفولته يسخر من القصص المضحكة

عن الآلهة . وكان كرجل ، قد قبل بسهولة وجهة نظر المتعلمين من أبناء
حقيقته ، في أنه لا توجد آلهة ، وأنه لا حياة بعد الموت . لقد قر
رأيه على ما ينوي عمله ، إنما يخاف فقط ألا يعمله في وقار .

ولا بد أنه أغنى بينما كانت تلك الأفكار تدور في ذهنه ، لأنه
استيقظ على دقائق شخص يقرع الباب الخارجي قرعاً مدوياً ،
فنفض عن نفسه النعاس وأصغى .

وفكر لنفسه قائلاً

-- ياله من مزاج مزاجك يا كراسوس . ياله من سخط عادل ،
أن يستطيع هذا الأحمق المعجوز السمين أن يلفك حول أصبعه
وينزع منك مكافأتك الكبيرة عن الحرب . لكنك لم تحبها
يا كراسوس . أردت سبارتا كوس لتعلقه على الصليب بالمسامير ،
وعندما لم تستطع الحصول عليه ، أردتها هي . أردتها أن تحبك ،
وأن تزحف على قدميها أمامك . أوه يا كراسوس ، أنت أحمق
كبير ، أحمق غبي كثير الخطأ . ومع ذلك فالناس من أمثالك هم رجال
العصر . لا شك في ذلك .

وبحث عن السيف فلم يجده . فهبط راحماً على ركبتيه حتى
وحده تحت المقعد . وركع والسيف في يديه ، ثم أعمدته بكل قوته

في صدره . وكان الألم من العنف إلى حد أن صرخ في ألم . لكن
السيف نفذ ، ثم سقط إلى الأمام فوقه ، فدفعه حتى نهاية الطريق .

وهكذا كان عندما حطم كراسوس الباب ودخل . واحتاج
القائد إلى كل قوته ، حتى قلبه على ظهره ، وعند ذلك رأى القائد
وجه السياسي وعليه جهامة أو ضخمة فاترة .

وعاد كراسوس بعد ذلك إلى بيته ، يفيض غضبا وكراهية . لم
يحب من قبل طيلة حياته كلها أنه يكره إنسانا أو شيئا بنفس الطريقة
التي كان يكره بها جرا كوس الميت . لكن جرا كوس قدمات ، ولم
يعد لكراسوس ما يستطيع عمله في ذلك الشأن .

وعندما دخل كراسوس إلى بيته ، تبين أن لديه ضيفا . كان
كايوس الشاب في انتظاره . ولم يكن كايوس يعرف شيئا عما حدث .
كان قد عاد لتوه ، كما أوضح ذلك على التو ، من عطلة التي أمضاها
في كاپوا ، فجاء مباشرة ليزور حبيبه كراسوس . وراح إلى كراسوس
وبدأ يربت على صدره . وعند ذلك أهوى عليه كراسوس بقبضة
يده فطرحه أرضا .

واندفع كراسوس كالعاصفة إلى الغرفة المجاورة ، وعاد يحمل
سوطا . وكان كايوس قد بدأ يجمع شتات نفسه وينهض من وقعته

على الأرض ، والدم يجرى نازلا من أنفه ، ووجهه مليء بالدهشة
والآلم والسخط ، ثم بدأ كراسوس يجلده بالسوط .

وصرخ كايوس ، وصرخ مرة ومرة ، لكن كراسوس مضى
يهوى بالسوط فوقه . وكان من الضروري في النهاية أن يتدخل
عبيد كراسوس ويوقفوه ، فتعثر كايوس خارجا من البيت ، وهو
يبكي كالصبي الصغير من ألم الجلد بالسوط .

www.alkottob.com

نفذ فلافيوس اتفاهه مع جرا كوس ، فاندفعت المركبات تشق طريقها شمالا ثم تعرج إلى الشرق وهي مسلحة بخبر أوراق الاعتماد الموقمة من جرا كوس نفسه . ولم تذكر قارينيا الكثير من الرحلة ، إذ أمضت معظم اليوم الأول نائمة والطفل متشبث بصدرها . وكان طريق كاسيا طريقا ممتازا ناعما سطحه صلب ، فتقدمت المركبات في يسر وانتظام ، قاد السائق الجياد خلال الجزء الأول من النهار بلا رحمة . ثم استبدلت بالجياد مجموعة جديدة عند الظهر ، وتقدمت المركبات خلال الجزء الأخير من النهار تجرها الجياد في عدو سريع منظم . وعندما نزل الليل كانوا قد ابتعدوا عن روما أكثر من مائة ميل شمالا . واستبدلوا الجياد مرة ثانية في الظلام ، واستمرت المركبات في اندفاعها طول الليل تحت ضوء القمر في سرعة منتظمة تلهم الأميال ميلا إثر ميل .

واعترضت طريقهم الداوريات العسكرية عددا من المرات ، لكن تفويض مجلس الشيوخ الذي كان جرا كوس قد أعطاه لفلافيوس كان كافيا على الدوام لشق طريقهم . ووقفت قارينيا ساعات بأسرها في أثناء تلك الليلة في المركبة المتأرجحة والطفل ينام

طب

تتريات

الجزء الثامن
تعالقارينا حرينها

www.alkottob.com
www.library4are

في سلام عند قدميها وهو ملتف بالأغطية تحيط به الحشيات .
وشاهدت الريف يمر أمام عينيها بضئ نور القمر . وشاهدت
في أثناء مرور المركبات فوق الجسور الرومانية الرائعة ، سيول الماء
وهي تندفع هابطة إلى أسفل . كانت الدنيا نائمة لكنهم واصلوا
السير .

وعندما أفل القمر قبل الفجر بساعات قليلة ، عرجت المركبات
خارجة من الطريق إلى مرج صغير ، وحلوا الخيول من المركبات
وقيدوها ، وتناولوا شيئا من الخبز والبيذ ثم رقدوا فوق الأغطية
ليستريحوا . واستعصى النوم على فارينبا . أما السائقون المجهدون
فسرعان ما غرقوا في نوم عميق . وبدا لفارينبا أنها لا تكاد تكون
قد أغفت عندما أيقظها نلافبوس ، فأرضعت الطفل بينما كانوا
يسرجون الخيول ، وكانوا يعملون متبرمين في بطن شأن الرجال
عندما لا يكونون قد تغلبوا بعد على إرهابهم ، وعند ذلك قادوا
المركبات عائدين إلى الطريق في ضوء الفجر الشاحب ، ثم اتجهوا
إلى الشمال من جديد . وكانت الشمس تشرق عندما توقفوا في
إحدى المحطات التي تقوم على جانب الطريق كل ميل ليلينوا
أطرافهم ويستبدلوا الجياد مرة ثانية . وبعد فترة قصيرة مروا
بمدينة مسورة ، وظل السائقون يلهبون الجياد بالسياط طيلة ذلك
الصباح فتدفع المركبات متقدمة في دوي كالرعد . وعند ذلك بدأت

حركة المركبة اللانهائية تؤثر على فارينيا . فنقيأت عدة مرات ، وظلت في خوف دائم من أن يتوقف لبنها عن التدفق . إلا أن فلافوس ، عندما جاء المساء ، اشترى لبنا طازجا وجبنا من لبن الماعز من أحد الفلاحين - وهو الطعام الذي كان في استطاعة فارينيا أن تبقى في معدتها - واستراحوا معظم الليل نظرا لأن المساء كانت ملبوة بالغيوم .

وقاموا مرة ثانية قبل الفجر وبدءوا المسير ، ومع انقضاء النهار ، وصلوا إلى حيث يلتقي طريق كبير آخر بطريقهم ويقطعه . كانوا حينذاك يتقدمون شمالا في اتجاه الغرب . وشاهدت فارينيا لأول مرة على بعد والشمس اخذة في الغروب ، قم جبال الآب المسكلة بالتلوج . وكانت الليلة مقمرة ، فمضوا في طريقهم دون توقف ودون إمعان في إرهاب الجياد . إلا أنهم توقفوا مرة في أثناء الليل ليستبدلوا الجياد للمرة الأخيرة ، ثم انصرفوا قبل الصباح عن الطريق الرئيسي إلى طريق مترب غير مرصوف يمتد شرقا وتخرج الطريق هابطا إلى أحد الأودية ، واستطاعت فارينيا عندما أشرقت الشمس أن ترى الوادي كله ممتدا أمامها مغلفا بالضباب ، بالضباب ، ونهرا جميلا يتدفق في منتصفه ، والتلال ترتفع على كل من جانبيه . كانت جبال الآب قد أصبحت أكثر قربا عند ذلك .

هنا لم يعد في استطاعتهم أن يتقدموا بسرعة كبيرة نظرا لأن المركبات كانت تترنح من جانب إلى جانب من الطريق المترب غير الممهّد. فجلست فارينيا بين الحشيات، وهي تمسك بطفلها بين ذراعيها. وعبروا النهر فوق جسر خشبي ثم بدءوا يصعدون في بطن على سفوح التلال. وجاهدت الجياد طيلة النهار صاعدة مقتفية الأثر على الطريق الجبلي المتعرج. وكان الفلاحون الغالبون عندما يرونهم، يوقفون عن عملهم لبشاهدوا المركبتين الكبيرتين والجياد الاصبلة ذات الصدور الضخمة التي تجرهما، وكان الاطفال يجرون على الدوام إلى جانب الطريق وروسهم مغطاة بنسيج الكنان ليحذقوا بعيون واسعة إلى هذا المشهد غير العادي.

وقبل المساء بقليل، عندما أصبح الطريق مجرد درب غير مهّد، وصلوا إلى قمم التلال، وشاهدوا واديا عريضا يمتد أمامهم. واستطاعت فارينيا أن ترى هنا وهناك في هذا الوادي العريض مدينة صغيرة، وبمجموعة من المنازل، وبمجموعات من أكواخ الفلاحين في أماكن أخرى. وكان الوادي يضم مساحات عريضة من الغابات، وكثيرا من القنوات الصغيرة، وما يوحي بمدينة كبيرة مسورة غير واضحة المعالم على بعد. وكانت المدينة تقع إلى الغرب بالنسبة لهم، فراحوا يشقون طريقاً لأنفسهم هابطين في اتجاه الشمال متجهين إلى جبال الألب التي كانت مازال تبدو بعيدة.

وكان هبوط التلال في نفس صعوبة ارتقاتها ، فقد كان من
الضروري كبح جماح الجباد وشدها إلى الورا ، كما أن الطريق كان
ينثني ويدور ، وكان الظلام قد حل بالفعل عندما وصلوا إلى قاع
الوادي ، فتوقفوا لينالوا قسطا من الراحة وليتظروا بزوغ القمر .
وسافروا زمنا في تلك الليلة تحت ضوء القمر ثم توقفوا من جديد ،
ثم استأنفوا السفر مع تباشير نور اليوم التالي ، وكانت الطرق كلها
ردية في هذه المنطقة ، ومع ذلك فقد واصلوا التقدم حتى وصلوا
في النهاية إلى التلال المتحدرة حيث تبدأ جبال الألب .

وهنا افترق فلافيوس عن فارينيا ، تركها في وقت مبكر ذات
صباح على رقعة من الطريق حيث لم يكن يبدو شيء على مرمى
البصر عدا الحقول والغابات .

وقال لها

— صحتك السلامة يا فارينيا ، لقد نفذت ما وعدت جراكوس
بعمله ، وأظن أنني أستحق بعضا من المال الذي دفعه لي . وأمل ألا
يرى واحد منا روما مرة ثانية في يوم من الأيام ، فليست هي
بالمدينة الصالحة لكلينا من الآن فصاعدا . أرجو الحظ الحسن
والسعادة ، لك ولولدك الصغير هذا . توجد قرية ريفية صغيرة

على بعد حوالي ميل صعودا في هذا الطريق ، ويحسن ألا يروك
قادمة في مركبة . إليك هذه الحقيبة ففيها ألف قطعة ذهبية تكفي
لشراء طعامك وإيجار مأوى لك لمدة عام إذا احتاج الأمر في هذه
المناطق . والفلاحون هنا قوم بسطاء ، وسيساعدونك إذا أردت
أن تعبري الجبال إلى وطنك . لكنني أنصحك بالابتعاد عن ذلك .
إذ يعيش في الجبال قوم متوحشون يكرهون الأعراب . كما أنك
لن تجدي قومك قط يا قارينيا . فالقبائل الألمانية دائمة التجوال في
الغابات من مكان إلى مكان ، ولا يستطيع إنسان أن يحدد مكان
قبيلة ما من سنة إلى سنة . كما أن تلك الغابات الموجودة في الجانب
الآخر من جبال الآلب ، فيما سمعت ، مكان كثير الرطوبة غير صحي
لا يصلح لتنشئة طفل صغير . لو كنت مكانك يا قارينيا لقررت أن
أعيش في جهة ما من هذه المنطقة المجاورة . ويجب أن أعترف لك
بأن هذا لا يستهويني ، لكن هذا ما أردته أنت . أليس كذلك ؟

وأحنت رأسها موافقة وقالت

— هذا ما أردته . وأنا كثيرة الشكر لك يا أفلاقيوس

وعند ذلك أداروا المركبات ليعودوا أدراجهم ووقفت
قارينيا هناك والطفل بين ذراعيها ، ترقيهم وهم يتهددون وسط
عواصف الغبار ، وظلت ترقيهم حتى أخفاهم مرتفع من الأرض
عن نظرها .

(م - ٢٢ سبارتاكوس)

وجلست إلى جانب الطريق وأرضعت الطفل . ثم قامت
وتقدمت على الطريق . وكان الصباح صباح يوم من أيام الصيف
الرائقة الندية ، وكانت الشمس تصعد في سماء زرقاء صافية ،
والغيور تشدو وتنفي وأسراب النحل تنقل من زهرة إلى زهرة
تمتص الرحيق وتملأ الهواء بطنينها .

وكانت فارينيا سعيدة . لم تكن سعادتها هي السعادة التي عرفتها
مع سبارتاكوس ، لكنه كان قد أورشها معرفة الحياة وقيمة
الوجود الثمينة . وهي حية وحررة ، وطفلها حي وحر . لذلك كانت
راضية بطريقة ما ، وتطلع إلى المستقبل في أمل وتفاؤل .

هذا ما حدث لقارينيا . والمرأة لا تقوى على الحياة وحيدة .
فوجدت مأوى لها في القرية التي انتهت إليها ، وهي قرية تضم قوما
من الفلاحين الغالبين البسطاء ، وجدت مأوى لها مع رجل ماتت
زوجته في أثناء الوضع . من المحتمل أن يكون الفلاحون قد عرفوا
أنها أمة هاربة ، لكن ذلك لم يمنع لهم شيئاً . فقد كانت ممثلة الأنداء
ومنحت الحياة لواحد من أطفالهم . وكانت هي امرأة طيبة ،
فأحبها القوم لقوتها وبساطتها الصريحة .

وكان الرجل الذي دخلت بيته فلاحاً بسيطاً . لا يقرأ
ولا يكتب ، ولا يعرف إلا دروس الكد . لم يكن سيارتا كوس ،
ومع ذلك فلم يكن ليختلف كثيراً عن سيارتا كوس . فله نفس
الصبر على الحياة . ولبس سريع الغضب ويحب طفليه حباً عميقاً —
طفله هو ، والطفل الذي جاءته به قارينيا .

أما قارينيا ، فقد قدسها وعبدها — لأنها جاءتته من الخارج
وجلبت له الحياة معها . واستطاعت هي مع الزمن أن تعرفه ، وأن
تبادله بعضاً من شعوره . وتعلمت لغتهم بسهولة كبيرة ، فهي لغة

لا تينية الأصل خالطها كثير من الكلمات العالية ، وتعامت طرائقهم التي لم تكن لتختلف كثيراً عن طرائق وعادات قبيلتها الأصلية . فهم يفلحون الأرض ويخرجون منها المحصول . وينذرون بعض المحصول لآلهة قريتهم ، ويدفعون جزءاً آخر لجامع الضرائب ولروما . يعيشون ويموتون ، يرتصون وينثنون ، يكونون ويتزوجون ، وتمضي حياتهم مع الدورات العادية للفصول .

وكانت تغييرات كبيرة تطرأ على العالم ، إلا أنهم ما كانوا يشعرون بالتغييرات فيما بينهم إلا ببطء كبير ، لدرجة أن حياتهم لم يكن ليصيبها أي صدع حقيقي .

وكانت نارنيا مشمرة ولوداً . فكانت تخرج من بين حقوبها كل عام طفلاً جديداً . فأنجبت سبعة أطفال من الرجل الذي تزوجت منه قبل أن تتوقف عن الحمل . وشب سيارتا كوس الصغير معهم ، طويلاً قوياً منتصب القامة . وعندما بلغ السابعة من عمره حدثته لأول مرة عن كان أبوه ، وروت له قصة ما فعله أبوه . وأدهشها أنه استطاع أن يحسن الفهم . ولم يكن أحد في هذه القرية قد سمع من قبل باسم سيارتا كوس ، فأحداث أكبر من هذه قد هزت الدنيا ولم تدر بها هذه القرية . ومع نمو بقية أطفالها : وثلاث منهم بنات وخمسة صبيان ، روت لهم قارنيا القصة مرات كثيرة .

قصت عليهم كيف استطاع رجل عادي ، كان عبدا ، أن يقف في وجه الطغيان والظلم ، وكيف ظلت روما العاتية ترتعد من مجرد ذكر اسمه طيلة سنوات أربع . وحدثتهم عن المنجم المشؤوم الذي كد فيه سبارتا كوس وروت لهم كيف قاتل في المجنلد الروماني وفي يده سكين . وحدثتهم عن مدى رفته وطيبته وحنوه ، ولم تحاول قط أن تفصل بينه وبين القوم البسطاء الذين كانت تعيش بين ظهرانهم فكانت ، في الحقيقة ، عندما تتحدث عن رفاق سبارتا كوس تنتقي هذا أو ذاك من سكان القرية لتضرب به المثل . وكان زوجها يصغي ، عندما تروي هذه القصص ، في عجب وحسد .

ولم تكن الحياة التي عاشتها فاريندا حياة سهلة لينة . فقد كانت تعمل منذ طلوع النهار حتى نزول الليل ، تستأصل الحشائش ، وتعزق الأرض ، وتنظف ، وتغزل وتنسج . ولوحت الشمس بشرتها البيضاء فأحالتها سمراء ، واختفى جمالها ، لكن جمالها لم يكن يوما بالشيء الذي تعلق عليه كبير أهمية . فما من مرة توقفت فيها لتفكر في الماضي وتأمله ، إلا أحست بالشكر لما أعطته لها الدنيا . ولم تعد تبكي على سبارتا كوس . وأضحت حياتها مع سبارتا كوس عند ذلك كالحلم .

وعندما بلغ ابنها الأول العشرين من العمر ، أصابها حمى ، وماتت بعد ثلاثة أيام . وكان موتها سريعا وبلا كثير من الألم ،

وبعد أن بكأها زوجها وأولادها وبناتها لفوها في كفن ودفنوها
في الأرض لتستريح إلى الأبد .

وحدث بعد موتها أن طرأت تغييرات على ذلك المكان . فقد
بدأت الضرائب تزداد ، وكانت الزيادة مطردة بلا نهاية . وجاء
صيف جاف فمات أغلب المحصول ، وعند ذلك جاء الجنود
الرومانيون . وطرّدوا العائلات التي لم تستطع دفع ما عليها من
ضرائب من بيوتها ومن أرضها ، وقبّدوا أفرادها بالسلاسل من
أعناقهم ، وساقوهم إلى روما ليباعوا هناك استيفاء لما عليهم من
ضرائب .

على أنه ، ليس كل من مات محصولاته قد قبل هذا الموقف في
خنوع . فقد فر سبارتا كوس وإخوته وأخواته وغيرهم من أهل
القربة إلى الغابات التي تنمو إلى الشمال من قريتهم ، الغابات التي
تنمو على السفوح صاعدة مع جبال الألب الموحشة . وعاشوا هناك
حياة فقيرة تعسفة على ثمار البلوط والجوز وعلى القليل من الصيد
الذي يستطيعون قتله . لكنهم ، عندما أقيم بيت ريفي كبير على
الأراضي التي كانت ملاك لهم من قبل ، انقضوا عليه وأحرقوا
هذا البيت الريفي وأخذوا كل ما كان فيه .

عند ذاك جاء الجنود إلى الغابات ، وانضم الفلاحون إلى قبائل
الجال لمقاتلة الجنود . وانضم إليهم العبيد الفارون ، واشتعلت نيران
حرب أثارها من جردوا من أملاكهم ، عامما بعد عام . فكان الجنود
يسحقونهم أحيانا ، وفي أحيان أخرى كانت قوة الثوار تزداد إلى
حد أن يجتاحوا السهول ويحرقوا ويسلبوا وينهبوا .

في مثل هذه أحياء عاش ومات ابن سبارنا كوس ، مات
وسط الصراع والعنف كما مات أبوه . وكانت القصص التي رواها
هو لأولاده أقل وضوحا وأكثر بعدا عن الحقيقة . واستحالت
القصص إلى أساطير ، وأصبحت الأساطير رهوزا ، لكن حرب
المضطهدين ضد من يضطهدونهم استمرت ودامت . كانت شعلة
يعلو نورها ويخبو لكنها لم تنطفئ قط . ولم يمح اسم سبارنا كوس -
ولم يكن ذلك نتيجة لوراثة الدم ، إنما كان نتيجة لوراثة الصراع
المشترك .

وسياتى يوم تتحطم فيه روما — لا على أيدي العبيد وحدهم
بل على أيدي العبيد ، وعبيد الأرض ، والفلاحين ، والبرابرة

الأحرار الذين ينضمون إليهم .

وما دام هناك من البشر من يكذب ويأخذ غيرهم ثمرة الذين
يعملون ويستغلونها ، فسيظل اسم سبارتا كوس في الأذهان ،
يهمس به البشر أحيانا ، ويصيحون به عالياً واضحا في أحيان
أخرى .

و انتهى .

تاریخ

www.library4ara.com

www.alkottob.com

مكتبات

www.alkottob.com
www.library4arab.com